

يوسف السباعي

أرض النفاق

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السبحار وشركاه

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطيات
(رواية ١٩٤٧ ٠٠٠٠٠)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(١٩٤٨)	خبايا الصدور
(١٩٤٨)	يا أمة ضحكت
(١٩٤٩)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩ ٠٠٠٠٠)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(١٩٤٩)	من العالم المجهول
(١٩٥٠)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠ ٠٠٠٠٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	ميكى العشاق
(١٩٥٠)	بين أبو الريش وجنيثة ناميش
(١٩٥١)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١ ٠٠٠٠٠)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(١٩٥١)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠)	بين الأطلال
(١٩٥٢)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليالى
(١٩٥٢)	الشيخ زعرب
(١٩٥٢)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٣)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك ياللى
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(١٩٥٣)	هسة عابرة
(رواية فى جزأين ١٩٥٤)	رد قلبى
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(١٩٥٨)	من حياتى
(١٩٥٩)	لطمات ولثامات
(رواية فى جزأين ١٩٦٠)	نادية
(١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(١٩٦١)	أيام وذكريات
(١٩٦٢)	أيام من عمرى
(رواية فى جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية فى جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامه على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى خير من استحق الإهداء
إلى أحب الناس إلى نفسي
وأقربهم إلى قلبي
إلى يوسف السباعي
ولو قسّلت غير هذا
لكنت شيخ المتافقين
من أرض النفاق
يوسف السباعي

مقدمة

أهو الغرور الذى يبعثنى إلى أن أهدي كتابى إلى نفسى ؟
أم هى الأنانية ؟

لا أكذبكم القول .. أنى — ككل إنسان — أنا فى مغرور ..
ولكنى أؤكد لكم أن ذلك لم يكن هو الدافع إلى هذا الإهداء
الجرئ .. وأسميه جريئاً لأنها لا شك جرأة منى — وأنا المنافق الذى
طالما بدوت للناس متواضعاً .. منكراً لذاته — أن أفصح نفسى
فأخصها .. دون بقية خلق الله .. بإهداء الكتاب .. وأتممها
علناً .. بأنها أحب الناس إلى ١.

ما الذى دفعنى إلى هذه المغامرة ؟. لم لم أهد كتابى إلى عزيز
لدى ؟ والأعزاء كثيرون فى أرض النفاق .. فأوفر على نفسى ما قد
يوجه إلتى من لوم وسخرية ؟.

دفعنى إليها أمران .. أولهما .. أنى لا أود أن أكون — كما قلت
فى الإهداء — أول المنافقين فى أرض النفاق .. وأنى لا أرغب فى أن
اتهم بأنى أنهى عن خلق وآتى مثله .. أو أنى آمر الناس بالبر وأنسى
نفسى .. بل أريد أن أكون أول من يخلع رداء النفاق .. فى أرض
النفاق .. فأبدو على حقيقتى .. أناً مغروراً .

وثانيهما .. أنى أود أن أكرم نفسى وهى على قيد الحياة .. فلشد
ما أخشى ألا يكرمنى الناس .. إلا بعد الوفاة .. ونحن شعب يحب
الموتى .. ولا يرى مزايا الأحياء حتى يستقروا فى باطن الأرض .
إنى أريد كل شئ .. أريد ما بالدنيا وأنا فى الدنيا .. أما الخلود ..

والذكرى .. والتاريخ .. فما حاجتى إليها .. وأنا عظام نخرة ..
تنوى فى قبر بقفرة .

ما حاجتى إلى تقدير الأحياء .. وأنا بين الأموات ؟ .. ما
حاجتى إلى أن يذكرونى فى الدنيا وأنا فى الآخرة !! ويمجدونى فى
الأرض وأنا فى السماء !

أنى أبغى المديح الآن .. والتقدير الآن .. وأنا أسمع وأحس ..
فما أمتعننى شيء كسماع المديح والتقدير .. قولوا عني مخلصين ..
وأنا بينكم .. إني كاتب كبير قدير شهير .. وإني عبقرى ..
ألمعى .. لو دعى .

فإذا مات ، فشيعونى بألف لعنة ، واحملوا كتيبي فأحرقوها
فوق قبرى ، واكتبوا عليه : « هنا يرقد أكبر حمار .. أضاع عمره
فى لغو وهذر » .

إني لاشك رابع كاسب .. لقد سمعت مديحك وأنا حي محتاج
إليك .. وصممت أذنى عن سبابكم وأنا ميت ، أغنانى الله عنكم
وعن دنياكم .

هل علمتم لم أهديت الكتاب إلى نفسى ؟ . لأنى أحب نفسى
وأقدرها ، ولدتى الجرأة على أن أقول ذلك .

إليك الكتاب بعد هذا .. لقد حاولت جهدى أن أكون فى
كتابته .. كما كنت فى إهدائه .. غير منافق ، وأن أكتب فيه بما
استطعت من الصراحة .

ولست أزعم أنى نجحت تمامًا .. فهناك موضوعات ، لم أستطع
طرقها . وهناك سطور شطبتها بعد أن كتبتها .. ولكن لم يكن من
ذلك بد ، على الأقل لكى يمكن للكتاب أن يرى النور ، ولكى
يمكن لكم أن تقرأوا الكتاب .. هل فهمتم ؟

يوسف السباعى

(١)

تاجر أخلاق

النزاهة والعفة والمروءة
والتضحية !!

أوتظن أن هذا هو ما يدفع بالمرء إلى
مرتبة الزعماء في هذا الزمن ؟ .. هل
تظن أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوافر
فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟!

تاجر أخلاق بالجملة والقطاعي ...

« المحلل له فروع في جميع أنحاء للعالم »

أدهشتني اللافتة .. كما لا شك أنها تبعث الدهشة في نفس كل من يراها
غیری .. فما رأيت من قبل تاجر أخلاق ، وما سمعت قط أن الأخلاق تباع
لا بالجملة ولا بالقطاعي .

وهزرت رأسي في حيرة .. ونخيل إلي أني قد أخطأت القراءة فعدت مرة ثانية
أحقق فيها النظر وأمعن في قراءتها مرة بعد مرة .. فوجدت أني لم أخطئ في حرف
واحد ، وأن الرجل حقًا تاجر أخلاق .. أو على الأقل هذا هو ما يدعيه .

كان الوقت بعيد الظهر .. وقد انتهيت من تناول وجبة دسمة شهية ..
عمادها : الأرناب والملوخية .. وأركانها ورق العنب المحشو ، وطبق من
الدمنة .. وحواشيها كمية لا بأس بها من سلطة الطحينة والخيار المخلل ..

وخاتمها شقة مثلجة من بطيخة « شليان بلاك » أصلى .
انتهيت من الغداء .. وما كان بودى أن أنتهى .. فشتان عندى بين مباشرة
الغداء والانتها منه .. وشتان بين حالتى فى أثناء الغداء وحالتى بعده .. ولا سيما
إذا كان غداء صيف وملوخية بالذات .

فأنا فى الغداء صائل جائل .. مكر بلا فر .. مقبل بلا إدار ، كأنى الحجاج
فى قوله : « لا يقعق لى بالشنان » ولا يغمز جانبى كتغماز التين « لا أترك ميدان
المائدة حتى آخر طبق وآخر لقمة .

أما بعده — أعنى بعد الغداء — فإنى خائر القوى ، مسترخى الأطراف ،
طريح مكدود ، خامل الحس ، متبلد الذهن .. فلقد صرعتنى الطبايق بعد أن
أفيتها .. وهزمتنى بعد أن كدستها فى الوعاء الذى ما ملأ ابن آدم شرًا منه ،
وأحسست بثقل فى معدتى كأنى قد ملأتها بالحجارة .

وهكذا جلست كعادتى بعد الغداء .. وقد أحسست بوطأته .. وشعرت
بالنوم بهاجنى بلا رفق ولا هودة وكرهت أن أستسلم له .. فما كان يعينى شىء
قدر النوم بعد أكلة ثقيلة دسمة .

وخرجت إلى الشرفة ، وتمددت فى مقعد مريح .. وأمسكت بإحدى
الصحف أستعين بها على طرد النوم .. ولكنى كنت كالمستجير من الرمضاء
بالنار .. فلقد ازداد ذهنى بالقراءة تيلدًا ووجدت النوم يتسلل إلى أجفانى تسلل
الحب إلى القلوب الخالية .. وأخذت أنظر إلى الصحيفة فأجد حروفها تتراقص ،
وتترنخ ، وتتداخل ، وتشابك ، وإذا بى أقرأ منها كلامًا هو أبعد ما يكون عن
حقيقتها ، كلامًا من وحى الذهن التائه الحالم .. وأحس برأسى يسقط فجأة على
صدرى ، أو على كتفى ، فأهب من غفوقى ، وأعود إلى اليقظة والانتباه .

ولست أدرى كم من الزمن دامت تلك الغفلات المتقطعة ، التى كنت أستغرق
فيها .. عندما تنهت فجأة وعزمت على أن أخرج للسير خارج الدار .. بعد أن
أيقنت أنه لا سبيل لمقاومة النوم مع استمرار الاستلقاء على الأريكة فى هذا الوضع

المرح ، وبعد أن أيقنت أن القراءة هى خير منوم يتناوله إنسان فى مثل حالتى . وهكذا طردت النوم من عينى ، وتحاملت على نفسى ، ونهضت حاملا الوعاء المقدس الممتلىء .. فارتديت قميصًا وبنطلونًا ، وحذاء من الكاوتش ؛ وتناولت عصا خفيفة ، كنت دائمًا أستعملها كرفيق سير ، ووضعت على رأسى قبعة من الفل ، وعلى عينيّ منظرًا أسود ، وغادرت الدار .

كنت أقطن فى أحد أطراف المدينة .. وكانت دارى تقع فى أول طريق قد تآثرت فى بدايته بضعة منازل صغيرة ، وامتدت على جانبه أشجار البانسيانس التى تتكاثف أوراقها صيفًا ، تكسو هاماتها أكداس من الزهور الحمر المشتعلة المتأججة .

سرت فى الطريق ، وجاوزت الدور إلى الخلاء ، وهبت علىّ نسيمات ، ملأتنى نشاطًا .. فأحسست بجمول الجسد قد تطاير ، وركود الذهن قد تبدد ، وخفت معدنى شيئًا فشيئًا ، فلم أعد أحس بذلك الثقل الذى كنت أحسن به ، فأمنعت فى السير .

وطال لى السير .. حتى وجدتنى أتوقف أمام حانوت قد قام على أحد جوانب الطريق .

وتملكنى الدهش .. فما كنت قد رأيت الحانوت من قبل .. رغم تعودى السير فى الطريق ، وزاد من دهشتى أن البقعة التى أقيم فيها الحانوت كانت مقفرة خالية ، لا يكاد يمر بها إنسان ، وكان من الغباوة والحمق أن يحاول تاجر أيًا كان أن يتخذ من البقعة المقفرة سوقًا لتجارته .. إلا إذا كان قد نوى أن يبيع بضاعته لنفسه أو للجن والشياطين .

واقتربت من الحانوت لأتبين أى نوع من الحوانيت يكون ، ولم يد على مظهره الخارجى ، ما يستدل منه على أنه مقهى من تلك المقاهى الخلوية ، التى تقام فى أطراف المدينة ، والتى يلجأ إليها الناس لينعموا بالهدوء والسكينة .. إذ لم أجد أثرًا لمناضد أو مقاعد صفت خارجها ، ووقفت أمام الحانوت ، ورفعت

بصرى إلى أعلى ، فقرأت اللافتة العجيبة : « تاجر أخلاق .. بالجملة والقطاعى » .

وعلت وجهى ابتسامة عريضة ، وانطلقت من فمى ضحكة خافتة :
« تاجر أخلاق » !!

هذا رجل مجنون ولا شك ، فما خطر ببالى قط قبل أن أرى اللافتة أن الأخلاق بضاعة يمكن الاتجار فيها .

أم ترى الرجل نصائبًا محتالا ، وأن الاتجار بالأخلاق قد أضحى نوعًا جديدًا من الدجل وطريقة مبتكرة للضحك على السذج والبسطاء ؟

ولم لا .. وهل يصعب على الرجل أن يجد من أصحاب الجهالة زبائن يتعاون بضاعته ؟!

ولكن الرجل محتال غبى ، ودجال أحق ، فما أظنه فى تلك البقعة النائبة الخالية يجد أى نوع من أنواع الزبائن ، لا جاهلا ولا غير جاهل ، لقد كان خيرًا له أن يشيد حانوته فى وسط المدينة ، أو فى حى من أحيائها العامرة بالمجاذيب والمخايل .

ودفعنى حب الاستطلاع إلى التقدم داخل الحانوت فقد كانت المسألة تستحق الاستطلاع ، ولم أشك قط فى أننى أمام مورد تسلية ومنبع فكاهة ، وأن بصاحب الحانوت لوثة أو خبلا أو مسًا من فلسفة .

ووقع بصرى على صاحب الحانوت .. وقد قبع بين كوم من (الشالات) المتنفخة ، وأطرق برأسه .. واستغرق فى صمت عميق .. ووقفت أتأمله برهة ، فوجدته كهلا قد وهن منه العظم ، ورق الجسد ، وغطى شيب رأسه (بطاقيّة) بيضاء ، وتدلت لحيته الطويلة على صدره .. وبدت عروقه الخضراء بارزة تحت جلده الأبيض الرقيق ، وغطى جسمه بعباءة سوداء ، ودس قدميه فى (مركوب) أحمر .

ولم أجد فى منظر الرجل ما يبعث على الخشية .. وماذا أخشى منه وهو على

حاله تلك من الوهن والعجز . وتقدمت خطوة أخرى فأحس بى الرجل وانتفض فى مقعده ، فلقد باغته رؤيتى ، وهو الذى لم يتعود أن يرى أحداً يطرق حانوته ، ففزع من البيع والشراء بأن يقبع فى صمت ويأس بين أكداس بضائعه المنتفخة المكتظة ، لا يأمل فى شار أو زائر ..

وأقرأته السلام فى أدب واحترام خشية أن يكون جنونه من نوع شرير خطر ، ولكن الرجل رد على تحيتى فى سكون وتؤدة ، جعلانى أبذل برييتى فى عقله ريبة فى عقلى ، وجعلنى أراجع نفسى مرة ثانية .. وعاودنى الشك فى صحة قراءتى اللافتة — رغم قراءتى لها ما يربو على المائة مرة — وقلت لنفسى : إن البصر خداع ، وإنه لا شك قد خدعنى فى قراءة اللافتة .. فأبداها على غير حقيقتها . وأصابتنى حيرة شديدة .. ودفعنى الشك إلى التردد ، فلقد تصورت ما يمكن أن يقول عنى الرجل ، وهو على مثل ما يبدو من عقل وحكمة ، ولا يعدو أن يكون تاجرًا عاديًا .. لأى نوع من أنواع البضائع .. تاجر غلال .. تاجر عطار .. أى شيء من هذا القبيل ، تصورت ما يمكن أن يقول عنى ، إذا ما سألته أن يبيعنى « أخلاقًا » ..

ليتصور أى إنسان ماذا يمكن أن يقول عنه أى تاجر فى الطريق إذا ما ذهب إليه وسأله أن يبيعه أخلاقًا .

مجنون ولا شك !!

وهكذا لم أر خيرًا من التحفظ فى حديثى مع الرجل ، وأن أحاول أن أثبت من خلال الحديث حقيقة بضاعته ، وهل هى بضاعة عادية ، كغيرها من البضائع التى يتجر بها الناس .. أم هى حقًا كما تقول اللافتة : « أخلاق بالجملة والقطاعى » .

وبدأته الحديث قائلاً :

— سلامات يا حاج .. كيف الحال ؟

وهز الرجل رأسه ببطء :

- رضا .. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .
- كيف حال السوق عندكم ؟
- والله « موش ولا بد » .. الحال راكدة ، والسوق نائمة ، والبضائع مكدسة كما تراها .
- ولكن ما سبب فى هذا الكساد ؟
- من يدري !
- لم لا تعلن عنها ؟ إن الإعلان قد أضحى شرطاً أساسياً للنجاح ، إننا قد أضحينا فى زمن الإعلان . الإعلان عن كل شيء .. عن البضائع والأعمال ، وعن الأجساد والرجال ، فما بالك لا تعلن عن بضاعتك ؟
- ورأيت الرجل يتسم فى سخرية :
- أنا أعلن عن بضاعتى ؟. أعلن عن شيء لا يجهله مخلوق .. أعلن عن شيء لا يستغنى عنه إنسان .. هذا والله هو الجنون .
- ولم أجد فى قول الرجل ما يدلنى على نوع بضاعته ، فقد كان قوله عامًا ، ينطبق على كثير من أنواع البضائع .
- ولم أجد بداً من أن أتجه إلى بغيتى من أقصر طريق ، فقلت للرجل ببساطة :
- هل أستطيع أن أجد لديك بعضاً من ..
- ولم أتم حديثى ، أو أفسر مطلبى ، بل أشرت إلى الأكياس إشارة عامة لا تحدد شيئاً بالذات لعل الرجل نفسه يسمى شيئاً مما يبيع .. ولكنه لم يزد على أن أشار برأسه بالموافقة علامة على أنه يوجد لديه « بعض من .. »
- وعدت أستدرج الرجل بقولى :
- من أى نوع ؟
- من جميع الأنواع .
- أيمكننى أن أرى بعضها على سبيل العينة ؟
- البضاعة أمامك . قلب كما تشاء .

ووجدت أن المسألة قد حلت ، فليس عليّ إلا أن « أدب » يدي في كل شوال فأفحص ما به .. ولا شك بعد ذلك أتى سأعرف ماذا يبيع الرجل .
ومددت يدي في أقرب الأكياس التي فوجدت به حبات صغيرة كحبات الكسبرة الجافة... وأخذت أفحصها فحصى خبير عليم ، كأني أعلم مقدار جودتها أورداءتها ثم أعدت العينة إلى الكيس .. ومددت يدي في كيس آخر ، فوجدت به مسحوقاً أصفر اللون ككبريت العمود ؛ ورفعت منه حفنة إلى أنفي ، فلم أجد به رائحة الكبريت ، وانتقلت إلى كيس آخر .. فوجدت به مسحوقاً أبيض ، أشبه بالملح .. وهكذا أخذت أنقل يدي من كيس إلى كيس ، والرجل يلحظني من طرف خفي .

وفحصت معظم ما في الأكياس التي كانت في متناول يدي ، فلم يزدني الفحص إلا حيرة ودهشة ، إذا كانت الأكياس لا تحوى إلا مساحيق ومواد شديدة الشبه بتلك التي يبصرها المرء في حانوت العطار ، ولا يعرف لها اسماً .
وانتهى بي الأمر إلى أن أقنع نفسي أن الرجل لا بد وأن يكون عطاراً بعقله لوثة بسيطة ، أو كما يقولون « هفة » تجعله يصر على أن يسمى عطارته « أخلاقاً » ولا أظنه الأول من نوعه ، فقد سبق لي أن صادفت بائع « فول مدمس » لا يبيع بضاعته إلا إذا طلب منه الشارى « لوز » وبائع « طعمية » لا يطبق أن يطلق أحد على بضاعته سوى « كباب » ، ولست أشك في أنها طريقة لتجويد البضاعة والترويج لها ، أو هو نوع من التشبيه الذى يحذف فيه المشبه ويبقى المشبه به ، كقولى : إذا ما رأيت حسناء : « رأيت قمراً » .. أو إذا رأيت بعض صحبى « رأيت حميراً » .

وحاولت أن أجد لنفسى صلة بين العطارة والأخلاق ، حتى أبرر تسمية الرجل لنفسه تاجر أخلاق .. فلم أستطع .. فاكتفيت بأن قلت لنفسى « لله في خلقه شئون » .

كل هذا طاف برأسى في ثوان معدودات وأنا أدس يدي في الأكياس

وأخرجها بيضاء من غير سوء .
وجلس الرجل يرقبني وأنا أنقل يدي من كيس إلى كيس .. وأخيرًا سألتني في هدوء بعد أن أبصر حيرتي :
— ماذا تريد ؟

وأسقط في يدي .. وزادت حيرتي .. ولكنني سألته بسرعة ، مشيرًا إلى أحد الأكياس :

— أى نوع هذا ؟

وأجاب الرجل ببساطة متناهية :
— شجاعة .

و لم أستطع أن أمتنع ضحكة أفلتت من شفتي ، وسألته دهشًا :
— شجاعة ؟!

من يتصوّر هذا ؟ .. إن المجنون حقًا تاجر أخلاق .. إن بصرى لم يخدعنى في قراءة اللافتة .. وما عاد هناك بعد قوله أى شك في نوع بضاعته .
و لم يرتح الرجل كثيرًا لما بدر منى من ضحكك ، ونظر إلّى نظراته إلى طفل يريد أن يلهو ، وقال مؤنبًا :

— يا بنى .. ليس لدى وقت للمزاح .. ابحث لك عن مكان للعبث غير هذا .. إذا كنت لا تريد الشراء فخير لك أن تنصرف .

و لم تكن لى بالطبع أية رغبة فى الانصراف ، فقد بدا لى أن المسألة مسلية جدًا .. وأن الرجل يستحق أن يقضى معه المرء بعض الوقت .. فتصنعت الجدة وكسوت وجهى مظهر الغضب .. وقلت بلهجة تشوبها الحدة كأنه قد جرح كرامتى :

— أى عبث هذا وأى مزاح ؟ إني أريد الشراء .. إن وقتى لا يتسع للتسكع فى الحوانيت حتى ولو كانت حوانيت أخلاق .. هل تظن أنى أقطع كل هذه المسافة من أجل العبث والمزاح ؟

وخدع قولى الرجل .. فبدا عليه الأسف وأطرق متمتا ببعض كلمات الاعتذار .. ولم أر خيراً من الاستمرار فى هذا الجد ، ومن كتمان زوبعة الضحك التى تصطبخب فى صدرى ، ووضعت إحدى يدى فى جيبي .. وأشرت بالأخرى فى شئ من الثقة والكبرياء إلى « شوال الشجاعة » وقلت فى منتهى الجد .

— زن لى رطلا .

وأجاب الرجل بنفس الجد .. ولحت فى عينيه شيئاً من التبرّم بجهلى المطبق :

— ليس بالرطل .

— إذا .. أقة .

— ولا بالأقة .

— كيلو !!؟

وهز الرجل رأسه فى استنكار .. فعدت أقول فى شبه اعتذار :

— إذا .. اكتل لى قدحاً .

— ولا بالقدح .

وبدت على الحيرة .. وساءلت نفسى : إذا كان المخبول ينوى أن يبيعنى ذلك المسحوق بالواحدة فيعد على الذرات ، ولكن الرجل أنقذنى من حيرتى ليوقعنى فى حيرة أدهى وامر ، فقال بلهجته الجادة :

— نحن هنا نزن بالرطل ، أو نكيل بالقدح .. إن مقياس البيع هنا بالزمن .. فيمكنك أن تأخذ مقدار شجاعة يوم .. أو عشرة .. أو إن شئت ما يكفيك شجاعة مدى العمر .

ولم أحاول مناقشته خشية الزلل ، وخشية أن أغضبه فيطرده من الحانوت ، وسألته عن سعر شجاعة عشرة أيام ، فأجابنى :

— الحساب ليس الآن .

— أتبيعون الشجاعة .. « شكك » ؟

— سمه ما شعت ، ولكننا لا نقبض هنا ثمنًا .. فالحساب يوم الحساب .
وهنا كان من أشق الأمور على نفسى أن أحاول كتمان الضحك ، ولكنى
استطعته فى النهاية .. فتغلبت على رغبة الضحك .. وزدت من مظهر الجدد .
ولم أشك فى أن الرجل لا يمكن أن يكون « نصابًا » ما دام لا ينتظر الثمن إلا
يوم الحساب .. وأحسست أنه لا مانع عندى بتأثًا — ما دام الرجل يعطى ولا
يأخذ — أن أجرب كل بضاعته ، وأى ضرر هناك فى أن آخذ من كل شوال حفنة
فألقيها فى الطريق .. ثم أدفع الثمن للمخبول يوم الحساب .. لو قابلنى يوم
الحساب .

وطلبت من الرجل أن يعطينى عشرة أيام شجاعة . وقام الرجل من مكانه
فاتجه إلى صندوق أخرجه منه معيارًا صغيرًا ، أخذ يعبئ بواسطته من مسحوق
الشجاعة فى قرطاس من الورق . فلما انتهى من التعبئة ، مديده إلى بالقرطاس
قائلًا :

— هذه شجاعة عشرة أيام .. إن استعماله سهل يسير ، فليس عليك إلا أن
تذيب الكمية فى كوب من الماء القراح ، وتقلبها جيدًا ، ثم تجرعها مرة واحدة ..
لا تخش شيئًا .. إن طعمها مستساغ .. وليس بها أى أثر من مرارة .. إن مفعوله
أكيد وسريع .. ربع ساعة فقط .. ثم تظهر آثاره .
وهزت رأسى متسائلًا :
— وما هى آثاره ؟

— الشجاعة .. الشجاعة بجميع أنواعها .. ستصبح رجلاً شجاعًا لمدة
عشرة أيام .. فإذا أعجبك الحال وسرّك أن تكون رجلاً شجاعًا فاحضر إلى قبل
انتهاء الأيام العشرة .. حتى أعطيك جرعة أخرى .
وكان الرجل يتكلم بلهجة ملؤها الجدد والإخلاص .. حتى أدخل فى روعى
أن المسألة قد تكون على شئ من الحقيقة .. وأننى قد أضحي فعلاً — إذا ما
تناولت مسحوق الشجاعة — رجلاً شجاعًا .

وسألت نفسي لِمَ لا أجرب .. فقد يصح قول الرجل ، وهو فيما يبدو لي رجل طيب شديد الإخلاص .. ليس به — فيما عدا تجارته للأخلاق — أى أثر لجنة أو خبل ، فهو هادئ وقور ، رزين مهذب . وعزمت فى نفسى أن أجرب المسحوق فعلا .. ولكن خطرت لى فجأة خاطر أصابنى برجفة .

من يدرينى .. أن المسحوق ليست به مادة سامة .. وأن الرجل مجرم شرير .. من غواة القتل ، وأنه يقضى على ضحاياه بتلك الطريقة العجيبة فيعطيه المسحوق على أنه « أخلاق » .. ويخدعهم بطيبته وإخلاصه .. فيقتنعون بصدق قوله ، ويذهبون إلى دورهم حاملين المسحوق ويتناولونه دون أن يخبروا أحداً ، خشية أن يسخر منهم .. فيقضى عليهم .. فى التو والحين ، ويذهبون ضحية المجرم الشرير ، دون أن يحس أحد بما اقترف من جرم .

ونظرت إلى الفرطاس ، ثم إلى الرجل .. وبدا من مظاهر طيبته وإخلاصه ما بدد كل وساوسى ، ولكنى قلت لنفسى : إن « الحذر لا يمنع القدر » وقلت للرجل على سبيل التهديد المستتر :

— أليس بهذا المسحوق أية مواد غريبة غير الشجاعة ، مواد مخدرة مثلا .. أو مواد سامة ؟

ونظر إالى الرجل فى كثير من الدهش والاستنكار ، وقال فى سخرية :
— مواد مخدرة ؟ .. ومواد سامة ؟ .. أهذا كلام تقوله لتاجر أخلاق .. ساعحك الله يا سيدى .. دع القرطاس وانصرف من فضلك .

— لا تغضب يا حاج .. لأننى أسأل على سبيل المزاح ليس إلا .. يجب عليك أن تكون رحب الصدر مع زبائنك .. يجب أن تكون صبوراً .. أليس عندك شوال صبر . !

— عندى بالطبع .

— خذ منه جرعة تحتل سخافات الزبائن .

— أخذت يا سيدى .. أتظن أنى كنت أحتمل الجلوس كل تلك الأعوام الطوال ، وسط هذه البضائع الكاسدة البائرة التى لا يريد لها إنسان دون أن أتناول من الصبر ما يعيننى على الانتظار .. لقد طال بى الجلوس يا سيدى بين أكياس الأخلاق ، طال بى الجلوس بين شلالات الشجاعة والصدق والإخلاص والصراحة والنزاهة والعفة والصبر والكرم .. طال بى الجلوس بين هذه الأصناف البائرة ، دون أن يسألنى إنسان أين أنت ، وأخذت أشرب من شوال الصبر الجرعة تلو الجرعة حتى كاد الصبر ينفد ... والبضائع مكدسة كما هى . وأحسست مرارة فى قول الرجل وتصورت جلسته هكذا وحيداً فى هذه البقعة النائية المقفرة .. دون أن يطرق بابه أحد أو يؤنس وحشته إنسان . وأجذت أنقل البصر بين الأكياس سائلاً الرجل عن محتوياتها :

— ما هذا ؟

— تضحية .

— وهذا ؟

— مروءة .

— وهذا الكيس الذى على الرف ؟

— إخلاص .

— وهذا الذى فى الركن ؟

— شهامة .

وهكذا أخذت أسأل والرجل يجيب .. حتى عتد لى كل ما يخطر على البال من الأخلاق الفاضلة !!

ونظرت إلى الرجل المسكين .. وخطر لى خاطر مفاجئ .

هذا الرجل لا شك أحق من رأيت .. ماذا يجبره على الجلوس هكذا بين الشوالات الفاضلة .. فى ملل ويأس ، وضيق وتبرم .. يستعين على الحياة بجرعات الصبر .. الجرعة تلو الجرعة .

أى أحقق مأفون هذا الرجل .. ما ضرّه لو أستبدل بجرعات الصبر جرعات من الشوالوات الأخرى .. ما حاجته إلى هذه التجارة الراكدة الكاسدة ، وهو لو تناول من كل شوال جرعة واحدة ، ثم انطلق إلى الحياة لكان له شأن فيها ، وأى شأن .

تصوّروا رجلا جمع كل هذا الخلق والمزايا والفضائل ، كيف يكون مصيره في الحياة وماذا يصبح ؟

يا للجاهل الغبى ! كيف يضيع على نفسه كل تلك السنين الغابرة ، والعمر البائد ، لقد كان في استطاعته أن يصبح زعيما من الزعماء ، ولكنه أضاع عمره في الانتظار بين الشوالوات . وفي تجرع الصبر .

ونظرت إلى الرجل نظرة رثاء وقلت له في إشفاق :

— يا حاج .. لقد ضيعت عمرك سدى ، إذا كان الأمر كما تقول ، وليس على الإنسان لكى يصبح على كل هذا الخلق إلا أن يتناول جرعة من كل شوال فلماذا لا تأخذ لنفسك جرعة تدفع بك بين عظماء القوم وتكفيك مشقة الجلوس بين الأكياس في هذه الوحدة المضنية ؟

ونظر الرجل إلى نظرة ملؤها الاستخفاف ، نظرة لو ترجمت إلى العربية لكانت « أى أحقق أبله مجنون مأفون !! أى شيء وضعه الله لك في رأسك بدل العقل » !

واحتملت نظره .. ولم آبه لها .. وانتظرت أن أسمع ما يليها من كلام يفسر ما فيها من هزء وسخرية ، قال الرجل :

— أوتظن أننى حتى الآن لم آخذ منها .. أو تظن أننى ما زلت في انتظار نصيحتك .. « طباخ السم بيدوقه » .. أفلا تريد منى أن أتذوق بضاعتي .

وصمت الرجل برهة ، ثم أمسك بذراعى وأجلسنى بجواره على أحد الشوالوات وأردف قائلا :

— اسمع يا سيدى .. إني آتوسم فيك الخير .. وأشعر أنه حق على أن أخلص

لك النصيح ... وأصدقك القول .. سأحدثك كصديق .. لا كتاجر ..
سأحدثك حديث صديق مخلص مجرب .

لقد تناولت من كل هذه البضاعة التى حولك .
الشجاعة والعفة والمروءة والتضحية .. الخ .
تناولت من كل هذا الذى تراه .

يا خيبة الأمل .. لقد كنت مثلك حسن الظن ، سليم النية . فأقبلت عليها بنهم
وشره .. كنت أظن — كما تظن — أنها تدفع بالإنسان إلى مصاف عظماء
الرجال ، ولكن نهى قد طاش وفألى قد خاب .

النزاهة والعفة والمروءة والتضحية !!

أو تظن أن هذا هو ما يدفع بالمرء إلى مرتبة الزعماء فى هذا الزمن ؟ .. هل تظن
أن زعماء هذا الزمن يجب أن تتوفر فيهم هذه المزايا والأخلاق ؟!
أنت أبله يا سيدى — ولا تؤاخذنى فى الكلمة — أترى لو كان فى ذلك شئ
من الصحة .. أكنت ترى هذه البضاعة مكدسة على الرفوف فى أكياسها
لا يقربها إنسان ؟

هذه بضاعة لا يحتاج إليها المرء فى هذه الأيام .. لقد أصبحت عتيقة بالية ..
لقد أضحت « مودة قديمة » .. لا تلائم نفوس هذه الأجيال .. ولا تصلح
لزعمائهم .. ولا يقبل عليها إلا كل مجنون فقد عقله .

لقد تناولت جرعة من كل ما ترى ، وحاولت أن أخوض معركة الحياة
مسلحًا بتلك الأخلاق فاتتهى فى الأمر إلى أن أنهم بالجنون .. وهزمت فى دنيا
اللقام شر هزيمة .. وعدت إلى حانوتى ملومًا محسورًا .

وليس عليك يا سيدى .. لكى تعلم حالتى وقتذاك إلا أن تتصور رجلا يعيش
بين الناس ، ولا يكذب .. ولا ينافق ولا يداهن .. رجلا يصارع كل إنسان
برأيه فيه .. رجلا شجاعًا لا يهاب أحدًا .. رجلا كريمًا يعطى البائسين ماله حتى
يصير منهم .. رجلا ذا مروءة وتضحية يخلع ملابسه فى الطريق ليقى بها طفلا

عارياً أضرب به البرد .. هو مجنون بلا شك .. وهكذا كنت أنا .. لقد فررت من الناس بعد أن برموا إلى وضجوا من أفعالي .. لقد هربت من الدنيا بعد أن دفعتني مروعاً إلى أن أأطعم المتضورين جوعاً .. حتى تضرّرت أنا من الجوع .. وكسوت العرايا حتى عريت .. دون أن يحس بي إنسان ، أو يرد جميل أحد . وأخيراً يا سيدي عدت إلى حانوتي لأقبع بين أكياس البضاعة الخاسرة التي لا تسمن في هذا الزمن ولا تغني من جوع .

وأطرق الرجل ، واستغرق في صمت عميق .. وشعرت بالرتاء له ، وسنحت لي فكرة جديدة لم أتردد في عرضها عليه .

لقد قلت لنفسى : إن الرجل رغم كل ما قال .. أحق مأفون ، أو هو على الأقل ضيق العقل ، قصير النظر ، لا يعرف كيف يتصرف .. لقد قال : إن بضاعته أضحت عتيقة بالية ، وإنها أضحت « مودة قديمة » لا تلائم نفوس هذه الأجيال ، ولا تصلح لزعمائهم .

ترى ما الذى يمنعه من أن يجدد بضاعته ، ويستبدل « بمودتها القديمة » أخرى « جديدة » ! لِمَ لا يحاول أن يتجر في الصنف الآخر من الأخلاق .. الصنف الذى يقبل عليه الناس ، والذى يلائم نفوسهم ، ويصلح لزعمائهم . لِمَ لا يتجر في النفاق والجبن والمكر والرياء والخسة و .. الخ . هذه لا شك ستكون بضاعة رائجة ، وستخرجه من حالة الركود التى سئمها .

ونظرت إلى الرجل ، قلت له ناصحاً :

— إذا كان الأمر كذلك فلم لا تغير نوع البضاعة ؟ ما دمت تعرف أنها قد أضحت في هذا الزمن كاسدة خاسرة !؟ لم لا تحاول أن تتجر في نوع آخر كالنفاق مثلاً ، أو الغش أو الكذب ؟

ورفع الرجل رأسه ونظر إليّ كما ينظر إلى طفل غرير وقال في أسف : — وأنتى لى أن أحصل عليها يا سيدي ، وقد استنفدها الناس جميعها ؟ لقد

سألت عنها صاحب الخانوت الأول فقال : إنه لم يبق منها ذرة واحدة وأنبأني أن لذلك قصة قديمة ، فقد كان الخانوت عندما أنشئ أول مرة في سالف الزمن يكتظ بكل أنواع البضاعة ، وأقبل الناس يتزاحمون وكلهم يطلب النوع الآخر ، الجبن والنفاق والمكر والرياء والخسة .. واشتد تزاحمهم وتكأكهم على الخانوت يتدافعون بالمناكب والأيدى .. وكان أكثر البضائع رواجاً هو النفاق .

كانوا كلهم يطلبون النفاق .. النفاق . النفاق ..

واشتد الزحام حتى قتل من الناس خلق كثير .

وأخيراً أصدر الحاكم أمره بإغلاق الخانوت ، وبلاستيلاء على كل ما به من نفاق ، وأضحى النفاق بذلك بضاعة حكومية ، ووضعت الحكومة نظاماً لتوزيعه بالبطاقات . ولكن المحسوبة تدخلت في الأمر ففاز الأنصار والمحاسيب بنصيب الأسد ، وحرم سائر أفراد الشعب الذى ليسوا بالأنصار والمحاسيب . وأخيراً ضج الشعب المحروم من النفاق ، وطلب أن يأخذ نصيبه منه ، ولكن البضاعة الباقية كانت من الضالة بحيث يستحيل توزيعها على الشعب ، ففكر الحاكم في خير طريقة يوزعون بها الكمية الباقية بحيث يعطى كل إنسان نصيبه من النفاق .

وانتهى بهم الأمر إلى حل معقول ، وهو أن يقذفوا بكمية النفاق الباقية في النهر .. فيلوثوا بها المياه ، وبذلك يحصل كل إنسان على شيء من النفاق ، مهما قل فهو خير من لا شيء .

وهكذا جرت مياههم بالنفاق ، وسرى منها إلى كل شيء .. سرى في النفوس التى لا غنى لأجسامها عن شرب مياه النفاق ، وسرى إلى أراضيهم التى لا بد لها من السقيا بمياه النفاق .

وهكذا سرى النفاق في كل ما يشربون وما يأكلون ، بعد أن سقيت نباتاتهم وحيواناتهم بمياه النفاق .

أجل يا سيدى لقد أضحوا قوم النفاق ، وأضححت أراضيهم أرض النفاق .

وصممت الرجل بعد ذاك .. وأخذت أفكر فيما قال .
وكنت ما زلت أحمل في يدي قرطاس الشجاعة .
وهممت بأن أعيد إليه القرطاس ، لكنني تراجعمت وقلت لنفسى : لِمَ
لا أجرب ؟ .. إن المسألة لا تزيد على عشرة أيام فقط « أكون فيها رجلاً شجاعاً .
عشرة أيام على سبيل التجربة ليس غير . فإن أفلحت كان بها ، وإن لم أفلح
فإنى لم أخسر شيئاً .
أجل .. يجب على أن أجرب جرعة الشجاعة .
وقلت للرجل :
— سأخذ القرطاس ، وسأتناول منه جرعة على سبيل التجربة ، وسأعود
إليك بعد عشرة أيام ، لأخبرك ماذا فعلت .
وهز الرجل رأسه وقال :
— أمرك .. لقد حذرتك كصديق .. وأنت وشأنك .
وودعت الرجل وسرت إلى الدار ، وأنا أحمل في يدي قرطاس الشجاعة .

(٢)

رجل شجاع

ما الشجاعة ؟! هل هي ذلك الشيء
الذى يمكن تركيزه فى النهاية فى إحساس
الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب
بلقائه ؟

إذا كانت تلك هي الشجاعة ، فأنا
بلا شك رجل شجاع .

سرت فى طريقى عائداً إلى الدار ، حاملاً قرطاس الشجاعة بإحدى يدي ،
وبالأخرى أخذت أهرع عصاى وأطوحها للأمام وللخلف ، وقد داخلنى من
قرطاس الشجاعة وهم عجيب
إن مجرد حملى للقرطاس ، واعتقادى بأننى بعد لحظات سأصبح رجلاً شجاعاً
قد جعلنى بالفعل رجلاً شجاعاً .
ما معنى أنى سأصبح رجلاً شجاعاً ؟ وما معنى فرحتى بالجرعة التى ستملؤنى
بالشجاعة ؟

أليس فى ذلك إهانة لنفسى ؟ وإتهام صريح بأننى رجل غير شجاع ، وأنه لو
لم تتح لى فرصة لقاء « تاجر الأخلاق » ولو لم يتفضل ويهب لى بعض مسحوق
الشجاعة .. لظللت طول عمري رجلاً جبائلاً .. لا تداخله الشجاعة قط !!

ووجدتنى أسألك نفسى :

— هل أنا رجل جبان حقاً ؟ هل أنا فى حاجة إلى هذه الجرعة لتجعل منى
رجلاً شجاعاً ، أم أنتى بالفعل رجل شجاع ، وأن الجرعة لن تفعل بنفسى أى

تغيير أو تبديل ؟

ما الشجاعة ؟! هل هي ذلك الشيء الذى يمكن تركيزه فى النهاية فى إحساس الإنسان بعدم خشية الموت والترحيب بلقائه ؟
إذا كانت تلك هى الشجاعة ، فأنا بلا شك رجل شجاع وما لى حاجة إلى جرعة الشجاعة لأنها لن تجعل منى أكثر مما أنا عليه .

أنا رجل لا أخشى الموت ، وليس فى قولى شيء من الغرور أو الفخر لأنه فى الواقع ليس به ما يستدعى التفاخر ، لأن عدم خشيتى للموت ليس مبعثها إحدى المزايا والفضائل التى يفخر بها الإنسان ؛ بل مبعثه حبى للنوم .

فأنا لا يمتنعنى شيء قدر أن آوى إلى فراشى فى التاسعة أو العاشرة فأمدد جسدى على الفراش وأترك أعضائى تنعم بالفتور والاسترخاء بعد طول كد وكدح ، وأترك ذهنى يهدأ ويستقر بعد طول تفكير وإجهاد ، ولا تمضى على بضع دقائق حتى أكون قد خلقت هموم اليوم ومتاعبه ، وطرحت عن كاهلى كل ما أثقله ، وعن رأسى كل ما أنهكه ، وخلصت نفسى من الإحساس بأى عبء أو مسئولية ، ولم يعد للمتاعب والمشاكل أى سلطان على ؛ لأنى قد انطلقت من أغلالها ، وفككت من إسارها ، إذا أنقذنى منها النوم .

والموت أخو النوم ، أو قل أبو النوم .. فهو النومة الكبرى ، أو هو الانطلاق النهائى من أغلال الحياة ، والفرار الأبدى من كل ما يثقل علينا فيها من متاعب ومشاكل ، وهو راحة دائمة من عناء العمل والتفكير .

ترى ماذا يمكن أن أخشاه من الموت ؟ وهو النوم الدائم وأحب شيء فى حياتى هو النوم .

إذا فأنا رجل شجاع !! ولا حاجة لى ألبنة إلى جرعة الشجاعة !!
ولكن إذا كنت شجاعاً حقاً ، وليس لى من الموت خشية ، فلم لم أمت حتى الآن ؟

هل أنا متعلق بالحياة ؟ أبداً والله .. هل الموت متعذر ؟ أبداً أبداً .. لماذا لم

أمت حتى الآن ؟!
لأننى — وإن كنت لا أخشى الموت فى جملة نتائجه — إلا أننى أخشى منه
تفاصيله ومقدماته .

أجل .. إن تفاصيله هى التى تخيفنى ، ومقدماته ووسائله هى التى تثير الذعر
فى نفسى ، فلو أن الإنسان استطاع أن يقدم على الموت كما يقدم على النوم ، فيقول
لأهله ببساطة :

— اتمسوا بالخير .. أنا رايح اموت !!

تماما كما يقول لهم :

— اتمسوا بالخير .. أنا رايح انام .

ثم يذهب إلى فراشه ويتمطى ويتشاءب ، ويفرك فى عينيه ويهرش فى رأسه ،
ويقرأ فى مجلة حتى يهاجمه النعاس ، ثم يطفىء النور ، ويغمض عينيه ويموت .
ولو كان الإنسان يستطيع أن يموت بهذه السهولة .. إذا لأقدمت على الموت
منذ زمن طويل .. ولأثبت حقاً أنى رجل شجاع .

ولكن الموت — للأسف الشديد — لا يمكن الحصول عليه بهذه السهولة ..
بل لا بد له من مقدمات « دراماتيكية » محزنة .. ولا بد له من مظاهر بها كثير من
التهويل والتهويل .

حقيقة إن النتائج واحدة .. وإن الأسباب مهما تعددت فالموت واحد . وأن
الإنسان خارج من الدنيا على أية حال .. ولكن ما من شك هناك فى أن تلك
المظاهر هى أشد وقعاً على الإنسان من الموت نفسه

أجل .. إنى على استعداد للخروج من الحياة فى أى وقت .. ولكنى لست على
استعداد قط لأن أتصور نفسى — مجرد تصور — وأنا معلق فى « سلم الترام »
وقد طوتنى عجالاته الحديدية التى تنهب الأرض ، ووقع جسدى بين العجل
والشريط ، وأخذت العجلات تلوز على جسدى كأنها القرامة .. جسدى
يتمزق وعظامى تنهشم كأننى « قطعة بفتيك » ، ودمائى قد سالت على الأرض ،

ورأسى قد تناثرت منه فتات المخ — إن كان به مخ ١١ — وشعرى الذى لمعته
« بالبريل كريم » قد اختلط بالطين والدماء .
لا . لا .. هذا كثير .. كثيرًا جدًا .. والله إنى لأكاد أبكى على نفسى من مجرد
الوصف .

إذا فأنا إنسان جبان ! .. وهل يمكن أن يكون جبن الإنسان فى تلك التفاصيل
التافهة ؟! ماذا يخفى من كل ما حدث لجسدى .. ما دمت أعرف أن الجسد
فان ، وأنه سيختلط بأديم الأرض ، فى جميع الحالات .
إلى إنسان جبان .. جبان فى التفاصيل .. جبان فى خوض المسالك .. ماذا
تجدينى شجاعتى فى احتمال النهاية ؟ إذا كنت أجبن عن الخوض فى المسالك التى
توصلنى إلى تلك النهاية .. إن شجاعتى لا تعدو أن تكون شجاعة نظرية .
ولقد كانت تلك هى أيضًا شجاعتى فى الحياة . كما كانت شجاعتى بالنسبة
للموت .. شجاعة نظرية ليس إلا .

كنت أزعم لنفسى دائمًا أننى شجاع .. ولكنى ما صنعت قط ما يثبت تلك
الشجاعة ، فلقد كان بعد النظر وتقدير العواقب ، والحلم ، والتساهل ،
والتسامح ، وإدارة الخد الأيسر ، لمن صفعنى على الخد الأيمن ، وأكل العيش
وإرضاء الرؤساء ، والعقل والاعتزان ، واتقاء الشر ، والمحافظة على الكرامة والهيبة
والوقار ، وعدم التدخل فيما لا يعينى .. الخ .. كل ذلك كان يقف عقبة فى
سبيل إظهار الشجاعة ، وكان يمنعنى من أن أفعل ما يجب أن يفعله كل رجل
شجاع .

إلى رجل جبان . فلقد طوت شجاعتى غيرها من الصفات التى بدت للناس
فضائل ، فوصفونى بالرزانة ، والعقل والاعتزان .

كم مرت بى ظروف ، هممت بأن أنشر فيها شجاعتى بعد طول انطواء ،
وهممت بأن أندفع فأفعل ما تمليه على الشجاعة . ولكنى أتريث ، وأفكر ،
وأستبق الحوادث وأستعرض النتائج ، فيغلبنى الجبن ، وتتوارى شجاعتى ، أمام

التورى والتفكير ، وخشية العواقب ، وحب السلام وتجنب الشر ، وإذا لى قد انقلبت إلى امرئ جبان .

وهكذا قادنى التفكير إلى الاقتناع بأننى مخلوق جبان ، قد خلت نفسه من الشجاعة أو انكششت فى نفسه الشجاعة وتوارت بحيث أصبحت كعدمها فكأنها سلاح فى غمده لم يسئل قط ، فعلاه الصدا وتلم حده .

ولم أشك عندئذ فى أن الجرعة التى أحملها ستحدث فى نفسى أثرا مذكورا ، فهى ستدفع فى نفسى الشجاعة إن كنت خلوا منها ، وستنشرها إن كانت مستترة متوارية ، وتزيل ما علاها من صدا ، وتجعل منها سلاحا ماضيا بتارا .

إن الجرعة ستنتقذنى من بعد نظرى وطول أناتى ، وتنزع من نفسى ذلك الخضوع والاستسلام وتجعل منى سهما ينفذ إلى كبد الحقيقة بلا التواء ولا دوران ولا تراخ ولا تمهل .

إنها ستجعل منى رجلا شجاعا ، شجاعا فى كل ناحية فى الرأى وفى التفكير وفى الأقدام وفى التصرف .

وكنت قد وصلت إلى الدار ودلفت إلى داخلها متسللا إلى حجرى دون أن يحس لى أحد ، وأخفيت القرطاس فى أحد الأدراج وذهبت إلى المطبخ فأحضرت كوبا من الماء

وأغلقت باب الحجرة وجلست أمام المنضدة وأخرجت القرطاس فوضعت ما به فى الكوب وأخذت أقلب المسحوق بملعقة صغيرة حتى ذاب فى الماء .

وأمسكت بالكوب ، ووقع بصرى على صورى فى المرآة فترددت برهة . لقد بدأ الخوف يداخلى ، وتذكرت وقتذاك .. الدكتور جيكل . والمستر

هايد .

ماذا يحدث لو أنه حدث لى مثل ما حدث للرجل التمس ؟!

ماذا يحدث لو أن الشجاعة أزممت لى ، وأضحت شخصيتى الشجاعة تغلب

على شخصيتى الأخرى من تلقاء نفسها دون حاجة إلى مساعدة الجرعة ؟

ماذا يحدث لو أن الشجاعة التى ستثيرها الجرعة ، أبت أن تنطوى ، وأن سيفها الذى سل قد أبى أن يعود إلى غمده ؟
ماذا يحدث لو أن شجاعة الأيام العشرة التى أنوى تجربتها قد استمرت حتى نهاية العمر ؟

أنا لا أكره الشجاعة بالطبع ، وحاشاى أن أحط من قيمتها كصفة فاضلة يجب أن يتصف بها كل إنسان .

ولكنى مع ذلك أخشاهما .. لأنى لم أجربها بعد ، وقد تكون كما قال الرجل تاجر الأخلاق « مودة قديمة » فى هذا الزمن .. « مودة » لا تلام نفوس هذه الأجيال ، فماذا يحدث إذا استبدت بى .. وأبت أن تفارقنى ؟

ماذا يحدث إذا أزم من بى داء الشجاعة ، فى زمن الجين ١٩ ونظرت إلى المرأة مرة أخرى ، فوجدت وجهى قد علاه الاصفرار وبدا عليه اضطراب ظاهر .

يا لله ، لشد ما أنا جبان رعديد ، أن أخاف الشجاعة !!
وحجلت من نفسى ، وكرهت أن أكون بهذه الدرجة من الجبن .
ورفعت الكوب إلى فمى ، وتجرعته مرة واحدة ، كما يتجرع الإنسان شربة زيت الخروع .

ووضعت الكوب على المائدة ، وأحسست أنى ألهث كأنتى خارج من سباق .. وبدأت أحلق فى المرأة ، وأرقب وجهى جيداً خشية أن تحدث الجرعة به من التقلبات ما أحدثته جرعة « الدكتور جيكل » فى وجهه عندما انقلب إلى « مستر هايد » .

ولكن وجهى لم يطرأ عليه تغيير يذكر ، اللهم إلا ذلك البريق الذى بدا فى عيني .. أو قد يكون ذلك مجرد وهم تخيلته .

أما التغيير الحقيقى الذى حدث فقد حدث فى جسدى ، فقد أحسست بقوة تسرى فيه ، وبعضلاقى تشد وتبرز ، حتى بدا لى أنى أستطيع أن أتحكم فيها

وأجعلها — تلعب — كذلك الرجل الذى أبصرته ذات مرة فى أحد الموالد وقد وقف أمام الجماهير المحتشدة « يلعب عضلاته » ويصيح فيهم أنا شوال بطل امبابه فى وزن الريشة ..

لقد بدا لى أنى أصبحت شديد الشبه بصاحبنا شوال ، وما أسرع ما خلعت القميص والفانلة ووقفت أمام المرأة ، أتأمل جسدى بإعجاب مفرط « وألعب » عضلاتى بسرور زائد .

وأخيراً ارتديت ملابسى ، وأنا أشعر بالرضاء عن نفسى كل الرضاء ، وفتحت باب الحجرة وخرجت إلى القاعة ، فكان أول ما صدم أذنى ، صوت صراخ الخادمة .

ولم يكن صوت الصراخ بالشئ الغريب الوقع فى أذنى ، فقد ألفته من طول ما سمعته ، فقد كنت أسمعه بمعدل مرة فى كل نصف ساعة .

وتفسير الأمر ، أن ضمن الأعمال الجليلة ، التى تؤديها حماق ، بشغف وإخلاص وإتقان فى حياتها الملأى بجلال لأعمال هو ضرب هذه الخادمة الصغيرة .

ويخيل لى أن ضربها للخادمة قد أضحى عندها — غية — كما يهوى البعض تربية العصافير أو جمع طوابع البريد ، أو أنها تجد فى ضربها مخرجاً للدوافع الغضب المتجمعة فى نفسها ، فهى تتخذ المسكينة متنفساً لها ، وإلا طال بها الكبت فأنفجرت وأصابتها هى ومن حولها .

ولم يكن هناك ما يؤذى مشاعرى كصوت صراخ الخادمة أو بكائها ، وكان عامل الشفقة يتحرك فى نفسى ، فيجعلنى أفور وأثور ، وأهم بالتدخل فى الأمر وتخليص الخادمة ومنع السيدة من ضربها ، ولكنى كنت أهدىء نفسى ، وأتروى وأفكر فى العواقب وأقلد النتائج .

إن السيدة عصبية متوترة النفس ، سريعة الغضب والانفعال ، أو قل إنها تحب الغضب والانفعال ، فهى تبحث عن كل ما يثيرها ويحنقها ، ويغضبها ، وتتجنب

كل ما يبعث في نفسها الهدوء والسكينة ، وتأبى أن تريح نفسها ، ولم أكن أشك في أن تدخل في الأمر .. ومحاولتي منعها من ضرب الخادمة ، سيتيح لها فرصة للفوران والغليان .. ويهيئ لها عمل « خناقة لرب السماء » والدخول في معركة أكبر .. تعتبر معركة الخادمة بالنسبة لها ليست أكثر من « أبرتيف » ، وكنت أعرف أنها في النهاية ستحملني مسئولية كل ما حدث وستجعل مني مخطئاً أثيماً .. ثم تمرض بعد ذلك عقب الخناقة وأكون أنا مسئولاً عن مرضها . وعلى ذلك فقد كان الأمر ينتهي بي في كل مرة إلى السكوت و « الصهينة » وإلى أن أكبت غضبي فأحتمل بكاء الخادمة ، وأن أتخذ موقف « الحياد » وأكفي خيرى شرى .. وأنطوى في حجرى حتى تنتهى عملية الضرب .

ولست أشك أن عملى .. كان ينطوى على الجبن ، ولكنى لست أشك أيضاً في أنه كان عملاً ينطوى على الحكمة فقد كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتى وقت تتعود فيه الخادمة الضرب .. وأتعود منها سماع البكاء ، ويصبح الأمر مسألة طبيعية .. ليس فيها ما يثير .

أما في هذه المرة — وبعد أن تناولت جرعة الشجاعة — فاختلف الأمر كل الاختلاف .. إلى « أصهين » ولم أنطو . ولم أكف خيرى شرى ، ولم أتخذ موقف الحياد ، ولم أفكر في عواقب أو أقدر نتائج .. لقد تملكتنى الشفقة على الخادمة ، وأحسست مبلغ ما في ضربها من ظلم واعتداء .. فاندفعت إلى السيدة ونزعت الخادمة من بين يديها ... وقلت لها في لهجة صارمة .. إني أحذرهما من أن تمدا يدهما إلى الخادمة ، بعد الآن وإلا حدث ما لا تحمد عقباه .

ونظرت إلى السيدة في دهش ، فقد أذهلها — وأنا الهادئ الرزين المنطوى على نفسه — أن أتدخل فيما تراه صميم عملها واختصاصها ، وأن أحاول بالتهديد منعها من مباشرة أول حقوقها .. والتمتع بخير متعتها لا .. لا .. لقد كان هذا شيئاً كثيراً .. كثيراً جداً .

وتركت الخادمة .. تركتها كلية ، بل ونسيتها تماماً ، والتفتت إلى .. فقد (أرض النفاق)

وجدت في صيدًا ثمينًا .. صيدًا يهين لها حيوانا حافلا .. بأشهى المعارك والثورات والانفعالات .. صيدًا لم تستطع قط أن تتحرش به وتوقعه في جبالها .. من فرط بروده وهلوئه وانطوائه على نفسه .

وبدأت المعركة .. حامية دامية .. ثارت فثرت .. هاجت فهجت .. شتمتني فشتمتها .. لعنت ألى .. فلعنت سنسفل أجداد أبيها .. همت برفع العصا فنزعته من يدها وألقيت بها من النافذة .. ارتمت باكية فلم آبه لها .. سخسخت فتركت الدار ، حيا الله جرعة الشجاعة . فقد نفست كربتى ، وفرجت همى .. لقد جعلت منى حقًا رجلا شجاعًا .

وخرجت من الدار .. وأنا أحس بالقوة والنشاط والحماسة .. لقد شعرت أن فككت من إسار الجبن وانطلقت من أغلال التروى وخشية العواقب . وأنى أستطيع أن أقدم على أى شىء .. غير هباب ولا وجل .

وكان أول ما فعلته قبل أن أخرج هو أن قذفت بالطربوش الذى كنت أضعه على رأسى ، والذى كنت أخشى الخروج من غيره .. حتى لا يقول الناس عنى إننى رجل غير محترم !! .. وأى صلة يمكن أن تكون هناك بين « الطربوش » والاحترام إلا إذا كانت هناك صلة بين « الليلة والترام » ، أو « الجوزية والأسد الضرغام » .

أى صلة هناك بين الطربوش والاحترام ؟ .. وكيف يمكن أن يصل بنا السخف إلى أن نقول .. إن فلانا رجل محترم ، لأنه يرتدى طربوشًا .. وإن فلانا غير محترم لأنه لا يرتدى طربوشًا ؟ كيف خطر لنا أن ننشئ أية صلة بين الطربوش والاحترام .. والله لو كانت هناك صلة بين أحدهما والآخر .. لا رتديت مائة طربوش .. ولكنه قول هراء .

والواقع أننا لو حكمنا العقل وحاولنا أن نجد هناك صلة ، لو جدناها بين الطربوش ، وعدم الاحترام ، أو بينه وبين المسخرة . أجل .. إن هذا الوعاء الأسطواني الأحمر ذا العنق الذى شدت به خيوط سود مبرمة .. هو المسخرة

بعينها .. نحمل رأسنا عيئه بلا أى مبرر ولا فائدة ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الناس يصنعون بقرصه ثقبًا يجلبون بها الهواء إلى رعوسهم ويخرجون منها الصهد .. ما ضرهم لو ألقوا بالطرايش نفسها وتركوا رعوسهم حرة طليقة ؟! هذا الوعاء الأحمر لا يقى من برد ولا حر .. ولا يؤمن من مطر ولا شمس .. ولا يوحى باحترام ، ولا هو زينة .

ترى ماذا يجبرنا على ارتدائه ؟

الجبن !!

جبن التقاليد .. وجبن التقليد ، والخوف من أن نتهم بالشذوذ .
لا تقولوا إنه شعار لقوميتنا ، فهذا جهل وسخف .
منذ متى كان الوعاء الأحمر شعارًا لقوميتنا ؟ إنه لو عملون .. شعار لاستعبادنا .

من قال : إن قوميتنا فى حاجة للطربوش ذى الزر ؟
حرروا رعوسكم من الطرايش ، فأغلب ظنى أنها سبب محتكم ، إنها تساعدكم على خفض الرعوس .. إنها تخفى شعاع أذهانكم ، وتحيط رعوسكم بظلمة معتمة .. وهكذا ألقيت بالطربوش .. وخرجت إلى الطريق رافع الرأس عاريه .

ووقفت فى إحدى محطات الأتوبيس ، فقد كنت على موعد لإنهاء صفقة هامة .. وكان الموعد قد أزف فقد عطلتنى المعركة الأولى التى خضت غمارها من أجل الخادمة ما يزيد على ربع الساعة .

ولحت أول عربة من عربات الأتوبيس فاقتربت من المحطة بسرعة ، وأشرت للسائق بيدى .. فلم يتوقف .. رغم أنه كان بالعربة محلات خالية .

ولم تكن المرة الأولى أن أشير إلى سائق أتوبيس فلا يقف رغم خلو العربة .. وكان كل ما أفعله هو أن أنتظر وأنتظر .. وأن أقنع نفسى أن القاعدة هى ألا يقف السائق إذا ما أشار له إنسان فى محطة .. وأنه إذا وقف فيكون فضلًا من الله ..

وليس علىّ إلا انتظار فضل الله .

وماذا أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. إلى لا أستطيع أن أوقف العربية ، ولا أستطيع كذلك أن أعدو فأقفز فيها وهى سائرة .. فأنا أجبن من أن أفعل ذلك .. أولا . لأنى أخشى على هيبتي وقيافتي أن تضيع .. وثانياً .. وهو الأهم .. لأنى أخشى أن تنزلق قدمي فأهوى تحت العجلات ، وأنا — كما سبق القول — لا أخشى الموت فى ذاته .. ولكنى أخشى وسائله المسرحية الحمقاء .. وأكره أن أموت بهذه الطريقة المزعجة ، وحتى إذا كان لا بد من أن أموت بإحدى هذه الطرق المسرحية .. فلا أقل من أن تكون طريقة مشرفة .. استشهاد .. مثلاً .. أما أن أموت تحت عجلات — ثورنيكروفت — فذاك والله ما لا أتمناه قط .

وتوالت أمامي العربية بعد الأخرى ، وهى تمر بمر الكرام .. دون أن تفكر إحداها فى الوقوف .. فهى إما ملآى بالركاب ، وإما أن سائقها يضايقه الوقوف .. فهو يسوق العربية لجرد النزهة .

وتملكى الحق ، وقلت لنفسى إن ذلك أحد مظاهر الفوضى فى أمة الفوضى .. فالحكومة تترك الشركة تعبت بمصالح الناس .. فلا تضع فى خطوطها إلا عددًا ضئيلاً من العربات لا يفى بحاجة الجمهور الذى يحشر فيها كالسردين ، والشركة تترك السائقين يتحكمون فى عباد الله .. فلا يقفون إلا عندما يشاعون .

وأخذت أعزى نفسى بأنه لو كان بيدى الأمر ، وكنت وزيراً للأشغال لعرفت كيف أضبع حدًا لهذا العبث .. ولعرفت كيف أوفر للجمهور راحته .. ولكنى عدت فتذكرت أننى عندما أصبح وزيراً للأشغال .. لن أحس قط بهذا العبث أو المضايقات .. لأنى سأكون وقتذاك صاحب عربة فخمة ضخمة .. ولن يخطر لى على بال قط أن هناك أناسًا يركبون الأتوبيس وأنهم يقفون الساعات الطوال فى انتظاره ، وأن عربات الأتوبيس لا تكفى الجمهور ، وأن السائقين لا يقفون فى المحطات .. إلى لن أذكر قط شيئاً من هذا لأنى سأكون « مجموعاً »

في عربة تسابق في الريح وتنب الأرض نهبًا .
وتلك هي العلة في هذا البلد .. إن الذي يحس بالمصاب لا يملك منعه ..
والذي يملك منعه .. لا يكاد يحس وجوده .

إن الذين يقطنون الخطائر ويبيتون على الطوى .. ويشربون مع البهائم من ماء
الترع .. إن الهياكل التي هزلت من الفقر والجوع والحرمان .. والأجساد التي
حطمها المرض وأنهكتها العلل .. لا تملك من أمر نفسها شيئًا .. إنها بلا حول ولا
قوة .. إنها قطع يسير إلى مصيره التعس في رضا واستسلام .

أما الرعاة .. الذين يملكون زمام القطيع والذين يحركونه ويسوسونه .. فهم
في عيشة راضية .. أجل .. إن الذين ييدهم أمره لا يحسون بأمره ، ولا يدركون
من أمره شيئًا .

كيف يحسون جوعه وبطونهم ملاءى مكتظة ؟! كيف يذكرون أنه يشرب
من ماء الترع .. إذا كانوا يشربون ماء « فيشى » ؟! وكيف يدركون أنه في
حاجة لأنابيب مياه إذا كانوا يأخذون مياههم من « الفريجيدير » ..!!

كيف يبصرون عريه ، وهم يرفلون في « النايلون » و « الشارك سكين » ؟!
وكيف يبصرون هزاله وأجسادهم السمينة « المربرية » تنضح منها قطرات
النعيم ؟ كيف يحسون حاجته ، وهم لا يزيلون في تفكيرهم عن « ماري
أنطوانيت » حين قيل لها : « إن الشعب لا يجد الخبز ، فقالت : ليأكل جاتوه !!
أني لراكب « البويك » أن يحس حاجة راكب قدميه؟ قدميه العاريتين اللتين
يلسعهما لهب الأرض .. وأني لماسك المروحة يروح بها على وجهه أن يحس حاجة
ماسك الفأس يضرب بها أرضه .. تلفح الشمس وجهه ويفرق العرق جسمه !
إن شر ما في المصاب .. أن الذي لا يحس .. يستطيع أن يفعل ، ولكنه لا
يفعل لأنه قرير هائئ .. أما الذي يحس ، فهو لا يفعل شيئًا لأنه أعجز من أن
يفعل .

إن خير وسيلة لإصلاح هذا البلد .. هو الصيام .

ولست أعنى بالصيام .. هذا الصيام الذى نصومه فى رمضان ، فعلم الله أننا قد أصبحنا نباشره — لو باشرفه — بطريقة أخرجه عن كل معانى الصيام ، فنحن لا نحرم أنفسنا خلاله أى شئ .. على العكس إننا نعطيها كل ما تشتهي من المأكولات الشهية التى أضحت من خصائص رمضان ، كالكنافة ، والقطايف ، والمشمشية ، وقمر الدين ، والمكسرات .. وكل ما نفعله فى صيامنا أننا نؤجل موعد أكلة إلى موعد الأكلة التالية .. فنأكل غداءنا مع عشاءنا ونسميه إفطاراً .. ونبكر فى إفطارنا فنسميه سحوراً .. ويزيد على ذلك أننا نظل طوال اليوم مستلقين بلا عمل ولا فائدة كأننا جثث هامدة .. يضيق خلقنا ونغضب لأقل سبب .. بحجة أننا صائمون .. ويسب أحدنا الآخر ! لأنه صائم وكفران ..

لا .. لا .. لست أقصد هذه الطريقة فى الصيام ، التى ليس فيها من الصيام قليل ولا كثير ، والتى ليست لها من نتائج الصيام أى أثر ، فلا هى أشعرتنا بحرمان الفقير ولا رقت قلوبنا نحوه .

إنى لا أقصد الصيام عن الأكل .. بل أقصد الصيام عن الغنى .. والصيام عن النعيم .. أجل يجب أن يفرض على كل إنسان أن يصوم عن الغنى شهراً فى السنة يعيش فيه بدخل لا يزيد عن أربعة جنيهات .. يقضى بها كل حاجته وحاجة أسرته من مأكول وملبس ومسكن .

يجب أن يجرب رئيس الوزراء والوزراء وغيرهم من العظماء والأثرياء كيف يمكن لإنسان أن يعيش هو وأسرته بأربعة جنيهات فى الشهر .. يجب أن يقطنوا فى عشة من عشش الترجمان وزينهم .. إيجارها خمسون قرشاً .. يجب أن يجربوا كيف يمكن أن يأكل الإنسان لحمه مرة واحدة فى الشهر . لحمه لا تزيد على « الفشش والأزوار والكروش » التى تباع فى المذبح . يجب أن يعرفوا كيف يمكن لأربعة جنيهات أن تكفى حالة عائلة .

يجب أن يصوموا عن الغنى والنعيم .. لا إلى الأبد.. ولكن يصومون لمدة شهر

واحد .. حتى يحسوا ذلك البؤس الذى لا يخطر لهم على بال . فإذا طلب من الوزراء بعد ذلك أن ينصفوا طائفة تشكو لم يتمهلوا ولم يترثوا ، وإذا طلب من الأثرياء أن يدفعوا الضرائب لم يتألموا كما لو كانت تستقطع من جلودهم .
أجل .. لن تنصلح الأمة .. إلا إذا سن فيها قانون الصيام .. الصيام عن الغنى والترف والنعيم .

* * *

جال كل ذلك بخاطرى وأنا أنتظر على محطة الأوتوبيس ، ولحت عربية مقبلة .. وبدا لى أنها خالية فعزمت أن أركبها بأية حال .. وأخذت ألوح للسائق .. وهو مقبل فى سرعة .. ومرى دون أن يتوقف أو يأبه لى .. فدفعتنى الشجاعة التى استجدت فى نفسى إلى أن أفعل شيئاً لم أكن أجسر على فعله قبل أن أتناول الجرعة ، لقد أخذت أعدو وراء الأتوبيس محاولا اللحاق به و « الشبطة » على سلمه .

اندفعت كالريح .. وقدمائى منطقتان لى كأتى جواد فى سباق ، حتى لحقت العربية وأمسكت بمقبض الباب ، ووضعت إحدى قدمى على السلم .
ولست أدرى ما حدث بعد ذلك بالضبط ؟

ولكن نتيجة ما حدث .. النتيجة النهائية التى بقيت فى نفسى .. هى احترام وتقدير وإعجاب شديد بأولئك « المتشعبطين » على سلا لم جميع أنواع المركبات من ترامات وأتوبيسات ، فلقد أدركت أنها مسألة تحتاج لمهارة فائقة .
لقد وضعت إحدى قدمى على السلم ، ولم أضع الأخرى وظللت معلقاً فى العربة المسرعة تجربنى خلفها ، ثم حاولت أن أترك العربة وأعود إلى الأرض ، متمثلاً قول القائل :

أنل قدمى ظهر الأرض لى

رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وأفلت يدى ورفعت قدمى التى على السلم وحاولت أن أثبت جسدى على

الأرض ، ولكنى .. للأسف ، وجدت الأرض تعدو بسرعة تحت قدمى .
أجل .. لقد كانت الأرض تجرى بسرعة إلى الخلف أو هكذا بدا لى ،
وجدت من المستحيل أن أحتفظ بنفسى واقفاً ، أو أثبت قدمى على الأرض ،
ولم أشعر إلا وقد لففت بضع لفات حول نفسى كأنى بهلوان ، ثم انطرحت أخيراً
ممدوداً الجسد على الأرض .

وصرخ الركاب ، ووقفت العربى ، وهبط بعضهم إلى ليرى ما حل لى ،
وتحسست أنا نفسى .. فوجدت أننى لم أصب بشىء .. اللهم إلا البهدة وقللة
القيمة ، وسرعان ما نهضت واقفاً على قدمى .. أزيل الأتربة التى علفت ببدلتى .
وما من شك هناك فى أنه لو حدث لى ما حدث ، وأنا فى حالتى العادية دون
أن أحتسى ما احتسيت من جرعة الشجاعة .. لكان أقصى ما أفعله مع السائق
هو أن أعرف غمرته ، وأن أقدم فيه شكوى للشركة إذا لم يشغلنى عن تقديمها
شاغل ، ذلك إذا لم أفر بنفسى من فرط الخجل الذى يصيبنى من « المدر » الذى
حدث لى .

أما أن أشتبك فى معركة مع السائق فذلك كان آخر ما أجسر على فعله ، فقد
كنت أكره التشابك والتضارب ، وكانت خشيتى من العواقب ، وبعد نظرى
تجعلنى دائماً أذرع بالصبر والحلم ، وأجبن عن الدخول فى معركة أيسر ما
يصيبنى منها هو « البهدة » والإهانة .

ولكن فى هذه المرة .. لم أكن كما تعودت أن أكون . لقد أصبحت رجلاً
شجاعاً ، ولم يعد هناك ما يقف فى طريق شجاعتى .. لا بعد نظر ولا ترو ولا
تفكير .. لقد كان يجب على أن أثار لنفسى من السائق المستهتر ، وأن أجعل منه
عيرة للعامل النذل القذر الذى يطالب بحقه دون أن يعرف واجبه ، والذى يضيق
ذرعاً بإهمال الحكام لمصالحه ، وهو لمصالح الجمهور أشد إهمالاً وأكثر تراخيًا
واستهتاراً .

وكان السائق ما زال جالساً أمام عجلة القيادة دون أن يكلف نفسه مشقة

النزول لرؤية ما حدث .. فاقتربت منه ، ورأيته ينظر إليّ في سخرية ويقول هازئاً :

« لما انت خايب كده بتشعبط ليه » .

وهنا لم يعد في قوس الصبر منزع .. فمددت يدي إليه في سكون وأمسكت به من قفاه وجذبتة بعنف فأخرجته خارج العربة .
وكما يقول المثل « وعينكم لا ترى إلا النور » .. إلى ما عهدت في نفسي هذه القوة ولا المهارة في العراك .

أول ما فعلته أُننى « لهفته مقص » .. فنزل « يرف » على الأرض ، ولم يكد ينهض حتى ناولته « روسية » ثم انهلت عليه باللكمات حتى « ضحضحته » ! ولحمت في وجوه الركاب علامات الفرحة والشماتة .. كأني بضربي الرجل أرضيت في نفوسهم رغبة مكبوتة في الاقتصاص منه .

وأخيراً تدخل الركاب بيننا ، وأخذ السائق يصيح بأعلى صوته ويسبني بأقبح الصفات ، وأقسم ألا يتركني إلا في القسم وأنه لا بد أن يجعلني أبيت على الأسفلت .

ونظرت إلى الساعة فإذا بالموعد قد أزف ، وتملكني الخلق ، فقد كنت حريصاً على ألا يضيع الموعد ، حريصاً على إنهاء الصفقة ، ومع ذلك فلم يكن هناك بد من أن أذهب مع الرجل إلى القسم .. ولم يكن هناك بد من ضياع الموعد .. وربما ضياع الصفقة أيضاً .. فقد لا تتاح الفرصة لإنهائها بعد ذلك .
وذهبت مع الرجل إلى القسم وى كثير من الندم ، وبودى لو أنبى المسألة بالحسنى، ولكنى كنت رجلاً شجاعاً، وكان على أن أحتمل عواقب شجاعتي حتى النهاية !!

(٣)

الخيانة العامة

إن اليهود الذين فرقهم الله في الأرض شيعة .. قد فرقوكم شيعة .
إن اليهود الضالين قد أضلوكم ، إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم
جبناء . يا أمة العرب . يا أمة الخطب .

سرت مع سائق الأوتوبيس متجهين إلى أقرب مركز للبوليس .. ولم يكف
سيل الشتائم المندفع من فيه عن التوقف .. بل أخذ يغمري بما لذ وطاب من ألفاظ
التهديد والسباب حتى وصلنا النقطة ودلفنا إلى الداخل .
ووقفنا برهة أمام الحاجز الخشبي وقد جلس وراءه باشجاويش منتفخ
الأوداج .. بادى الشر ، يتناقش مع امرأة ملتفة في ملاء سوداء وقد سقطت
الملاءة على كتفها وتهدل شعرها وسال دمعها وأخذت تقول له بصوت باك :
— سبع ليال على هذا الحال .. يأتى إلى الدار .. وقد ترنخ من فرط السكر ..
بعد أن يكون قد تركنى والأولاد طيلة النهار دون نقود ، فلا يكاد يرانى حتى
ينهار على ضرباً .

ونظرت إلى جوارها فوجدت رجلاً ضخماً الجثة أحمر العينين قد تلفح
« بلاسة » وكسا جسده بجلباب طويل ودس قدميه في مركوب أصفر ..
ووجدته ينظر إلى المرأة شراً ثم وجه القول إلى الباشجاويش قائلاً :
— يا سعادة البية .. (كان لهذا التعظيم أثر منعش على الباشجاويش وبدأ لي
أنه سيوافق الرجل على ما يقول) يا سعادة البية .. هذه المرأة .. كذابة ومخرقة ..
وتستحق الشنق لا الضرب ..

وهز سعادة الباشجاويش رأسه بالموافقة .. وأمر أحد الجنود أن يجر المرأة إلى الخارج فمد الجندي يده ، وسحب المرأة من قفاها ، ولم أحتمل أنا هذا المنظر فبدأت التدخل طالباً من الجندي أن يترك المرأة ، ومن الباشجاويش أن يحقق جيداً في الموضوع ، ولم يكن مظهرى بعد سقوطى من الأتويس وتدحرجى على الأرض وعراكى مع السائق .. ليشجع الرجل على احترامى وخشيتى .. فوجدته يوجه إلّى نظرة ملؤها الازدراء .. ويأمرنى بالسكوت .. بالتى هى أحسن !!

خرجت المرأة وزوجها .. وبدأ الباشجاويش فى استجوابنا . ولكن لم تمض لحظة حتى سمعت صراخ المرأة . وبدأ لى أن زوجها لم يستطع أن ينتظر حتى يذهبها إلى الدار فبدأ فى تنفيذ انتقامه على سلم القسم .

واندفعت أنا من باب القسم فوجدت الرجل قد طرح المرأة أرضاً وانهال عليها رفساً ولكماً ، وتحكمت فى النخوة والشجاعة .. ولم أقل لنفسى كما تعودت أن أقول فى مثل هذه الظروف — وأنت مالك — بل هجمت على الرجل أنقذ المرأة من برائته .

وحدث الأمر الطبيعى . الذى تعرفونه كلكم ، والذى يحدث دائماً فى مثل هذه الظروف .. فلقد كف الرجل عن ضرب امرأته ، وكفت المرأة عن الاستغاثة ، وانهال الاثنان على بالضرب .. فلم ينقذنى سوى الجندي الذى أرسله الباشجاويش لإحضارى حتى أدلى أمامه بيقية أقوالى .

ووجدت أن السائق قد أنبأ الباشجاويش أنى كنت واقفاً فى المحطة وأشرت له بالوقوف .. فوقف .. فلم يشعر إلا وأنا أقفز إلى العربة وأهجم عليه فأشبعه ضرباً ولكماً ، وأدليت بصحة ما حدث ، ولكنى وجدت الباشجاويش ينظر إلّى شرراً ويقول :

— الظاهر أنك « غلباوى » ، ولسانك طويل ومتعافى .
ولم تعجبني من الرجل نظرته ولا لهجته .. فقلت له منذراً :

— خير لك أن تكون أكثر أدبًا .
وهنا احمر وجه الرجل واندفع صائحًا :
— سأريك كيف أكون أكثر أدبًا .
ثم أشار إلى أحد الجنود أن يدخلني إلى الزنزانة .
ولم تجدني المقاومة نفعا ، وبعد لحظات وجدت نفسي كما يقولون « على
الأسفلت » .

من يصدق هذا ؟ من كان يصدق أنى أنا الرجل الهادئ الرزين .. العاقل
المحترم .. تدفعني الظروف الجزقاء بمثل هذه السهولة والبساطة إلى أن أبيت ليلتي
على الأسفلت !

ولماذا ؟ بلا سبب ، وبلا أى مبرر ولا داع .
إنى حقا قد أضحييت رجلا شجاعا .. ولكن أين الذى فعلته من مظاهر
الشجاعة حتى يبرر ارتماي هكذا فى إحدى نقط البوليس كالمجرمين والمتشردين ؟
أى شىء فعلته يتكافأ مع هذا الجزاء ، وأى فائدة أفدها أنا .. أو أفادها غيرى من
جراء كل ما فعلت ؟ وتذكرت « حماق » وما يمكن أن يكون قد حدث لها من
مضاعفات عقب معركتى معها من أجل الخادم فأصابنى غم شديد ؟
أهذا هو ما فعلته فى جرعة الشجاعة !!؟

ولكن ما ذنب جرعة الشجاعة ؟ إن الذنب فى الواقع ذنبى أنا .. فلقد كنت
محدث شجاعة .. أو كنت كما يقولون « هبلة ومسكوها طار » ..
لقد اندفعت استعمل شجاعتى .. ببلىه وجنون ، لقد كنت أشبه « بشجاع
حرب » على وزن « ثرى حرب » .. و « أرتست حرب » .. وأخذت أبعثر
الشجاعة التى أصابتنى بعد طول جبن .. ذات اليمين وذات اليسار .. لقد كنت
أريد أن أعوض حرماني من الشجاعة ، وأن أظهر شجاعتى بأى وسيلة وعلى أى
وجه تمامًا كما يفعل ثرى الحرب الذى أصابه الغنى فجأة .. بعد طول فقر .
لشد ما كنت مجنونًا أحمق ، وما هكذا والله تستعمل الشجاعة

ويكون الشجعان.

ماذا فعلت من مظاهر الشجاعة ؟.

تعاركت مع « حماق » من أجل الخادمة ، وقذفت بطربوشى وخرجت عارى الرأس كأى غر حدث من الفتية المفتونين .. ثم لم أستطع الصبر حتى يقف الأوتوييس فأركب فيه ، بل حاولت أن أركبه وهو سائر كأى متشرد من أبناء السبيل .. ولم تساعدنى خييتى على « الشعبة » . فسقطت على الأرض كأى مدب .. وذهبت قيافتى وضاع قدرى .. ولم أكف بهذا ، بل هجمت على السائق واشتبكت معه فى معركة بالركلات واللكمات والروسيات .. كالرعاع والغوغاء ، ووجدت نفسى منساقاً مع شجاعتى الخرقاء إلى قسم البوليس .. وأضعت بذلك الموعد الذى كنت سأنجز فيه الصفقة الهامة .. ولم أكف بكل هذا .. بل اندفعت كأى حمار .. لأتدخل بين زوج وزوجته .. فتلقيت من الضرب الشتائم ما كنت فى غنى عنه ، وأخيراً .. احتددت على الباشجاويش كأى غبى .. فكان مصيرى الأسلفت .. يالى من محدث شجاعة ؟

أهذا هو ما استطعت أن أفعله بشجاعتى ؟

أهذا هو مصيرى بعد أن أضحيت رجلاً شجاعاً ؟ .. أرتنى على الأسفلت بلا

ميرر ولا سبب ؟ .. كأى نشال أو محتال !

لا .. لا !! لقد أسأت التصرف بشجاعتى ، وتعجلت باستعمالها فوضعتها

فى غير موضعها .. لقد كان يجب على أن أكون أكثر اتزاناً مما فعلت .. وأن أتريث فلا أستعمل شجاعتى إلا فيما يستحق .. وألا أكون شجاعاً إلا فى جلائل الأعمال التى تفيد المجتمع والناس .. فأقوم ما اعوج من الأمور وأصلح ما فسد .. بدل هذا الذى فعلته من الشعبة فى الأتوييسات والعراك مع طوب الأرض .

وهكذا أقنعت نفسى بأن أكون أكثر حكمة ، وأن أكبح من جماح

شجاعتى .. فلا أتركها تنطلق بى كالحمار الجامح يشبع الناس رفساً وتلطيشاً ،

ولم يكن هناك بد والأمر كذلك — من مسايسة الباشجاويش ومداراته ، فرجوت الجندى الذى وضعنى فى الزنزانة أن يبلغ « سعادته » أنى أود أند أقول — لسعادته — بضع كلمات .

ووقفت مرة أخرى أمام الباشجاويش وبدأت أحدثه مستعينًا بجبنى القديم ، محاولا جهدى أن أكبح جماح شجاعتى خشية أن يقلت منى زمام نفسى فأبصق عليه وأصفعه على قفاه العريض .

وأخذت أعتذر لسعادة الباشجاويش .. حاشراً كلمة — سعادتك — بين كل كلمة وأخرى ، وأنبأته أن ضيق خلقى هو الذى دفعنى إلى ما فعلت . وأنى جد آسف وجد نادم .. ثم أفهمته بطريقة مسترة أننى رجل محترم ذو مكانة وحيثية .. وأنى أخشى على سعادته .. لو أصر على حبسى أن يصيبه ضرر .. وأنه لم يدفعنى إلى أن أطلب منه الإفراج عنى إلا خوفاً عليه .. وعلمى أنه صاحب أولاد .

وهكذا أمكنتنى أن أقنع الرجل بإطلاق سبيلى .. متبعاً فى إقناعه كل الطرق إلا الشجاعة .

وخرجت من مركز البوليس وسرت فى الطريق وأنا أحاول جهدى أن أسيطر على نفسى وأكبت شجاعتى .. وألا أكون محدث شجاعة .. فأثور لأقل سبب ، وأضيع وقتى فى الاشتباك مع الناس لأجل توافه الأمور ، وأشغل نفسى بذلك عن جلائل الأعمال .. التى يمكن أن أوجه إليها شجاعتى وأفعل بها ما لم تستطعه الأوائل .

وشرد بى الذهن فأخذت أفكر فى جلائل الأعمال التى يجب أن أستغل شجاعتى فى مباشرتها والإفادة منها .

وبدأت أستعيد الحوادث فى ذهنى وأستعرض المشكلات والمعضلات والأزمات والمصائب التى يمكن أن أستعين بشجاعتى على حلها .

وقفز إلى ذهنى .. من بين تلك المشكلات والمصائب .. مصيبة واحدة

يا أمة الخطب .

يا أمة التعاسة .. يا أمة الهزل .. يا أمة الجهل . « يا أمة ضحكت من جهلها
الأم » .

شرد إلى الذهن إلى فلسطين ، ومن غير فلسطين تستحق أن أوجه إليها
شجاعتى ؟!

وأحسست بفرحة شديدة .. إلى إذا استغللت شجاعتى من أجل فلسطين فلا
شك أنى أكون قد وضعت الشيء فى موضعه .

إنى أكون بذلك قد أرضيت نفسى .. وأكون بذلك قد صرفت شجاعتى
فيما يجب أن تصرف فيه .. لا فى تلك التفاهات والسخافات التى صرفتها فيها من
قبل .

وأخذت أفكر فى خير السبل التى أوجه فيها شجاعتى فى خدمة فلسطين ،
يجب أن أتطوع للقتال .. وأذهب فأحمل السلاح ، وأنخوض غمار المعركة .
هذا سبيل معقول ، أستطيع أن أظهر فيه شجاعتى .. وأبرز فيه جرأتى
واقدامى .. التطوع للقتال واجب .. وطريقة مثلى لإظهار الشجاعة . ولكن
حمل السلاح ، ونخوض غمار المعركة هو الذى يستدعى شيئاً من التفكير
ويتطلب شيئاً من الروية .

أى سلاح هذا الذى سأحمله ؟ وأية معركة تلك التى سأخوض غمارها ؟
لقد سمعت من صاحب لى عائد من فلسطين .. أنه ليس مع أهلها سلاح
يحمل ، وأن معظم المقاتلين هناك عزل بلا سلاح ولا ذخائر .. وأن المارك التى
بدأت فى أول الأمر ليس بها شيء مما نعرفه عن المارك الحربية ، بل هى أشبه
بمعركة بين شاة وقصاب .. قصاب يهودى قد شحذ سكينه ، وشاة عربية ...
لا حول لها ولا قوة .

القصاب يصل بسكينه ويمجول .. ويذبح ويقتل .. والشاة تستغيث ، وما
من مغيث ، وتستنجد وما من منجد .. إلا الأقوال والخطب .

استطاعت أن تبرز في ذلك الحين من كل ما حولها .. جلية واضحة .. فتصيح
يا لو كان لديك شجاعة ، فاهلم بها إلى !!
مشكلة واحدة هي التي كانت تلح وقتذاك في طلب شجاعتى .. وهى :
فلسطين !! فلسطين الجريحة .. التي يضمدون بالكلمات جراحها .
فلسطين الباكية .. التي يجفون بالخطب مدامعها .

يا أمة العرب .. يا أمة الخطب . يا أمة الحفلات والمآدب ، والله ما كانت
خطبكم إلا خطوبا .. وما كانت مآدبكم إلا مآرب ، والله ما كذب زياد بن أبيه
حين قال فيكم :

« إن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ، والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه
سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التي ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى
عنها الكبير .

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار
الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا
إليه من ترككم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوبة في النهار لا تنصر ، والعدد
غير قليل والجمع غير مفترق »

العدد غير القليل . يا أمة العرب .. فأنتم كالحصى .. والجمع غير مفترق ..
يا أمة العرب .. وهذه الجامعة قد وحدث كلمتكم .. وجعلت منكم عصابة
يخشى خطرها .. ومع ذلك فما دفعتم خطراً .. ولا أظهرتم بأساً ولا قوة .
إن العدو ينهش جسدكم .. فلا تفعلون شيئاً سوى الأنين والبكاء . إن الخطر
يدهم أبوابكم فلا تفعلون شيئاً سوى العويل والصراخ .. إن الأنذال يسبون
نساءكم ويذبحون أطفالكم ، وأنتم تجتمعون وتنفضون . وتحلون وترحلون ، ثم
تتشددون بعد ذلك بشجاعة العرب يا أشباه الرجال .. ولا رجال .

إن اليهود الذين فرقهم الله في الأرض شيعاً .. قد فرقكم شيعاً . إن اليهود
الضالين قد أضلوكم .. إن اليهود الجبناء قد جعلوا منكم جبناء . يا أمة العرب .

قال لى صاحبى أشياء لا يصدقها عقل .. أشياء لا يجسر القوم على الاعتراف بها . قال لى : إنه ليس لعرب فلسطين تشكيلات عسكرية .. بل هناك مسخرة عسكرية ، وتهرج حرى . وصف لى هجوم الأعراب .. بأن القوم قبل أن يهجموا يطلقون نصف ذخيرتهم فى الهواء على سبيل التفاريح .. كما يفعل أهل البلد فى الريف . وإن اليهود يلقونهم بمدافعهم الآلية فيحصدون صفوفهم المتراسة حصداً .. ويبيدونهم عن بكرة أبيهم .. قال لى : إن المواطنين العرب فى فلسطين يقاتلون — بالذراع — فلا تكتيك حرى ، ولا خطط موضوعة ، ولا قيادات منظمة .

سألت عن الطائرات والمدافع الثقيلة والمدركات ؟ فقال لى : إنها عند اليهود . قلت : والعرب ؟ فقال : لديهم العصى .. قلت : وأين طائراتهم ؟ قال : وعود فى الهواء . قلت : ومدركاتهم ؟ قال : كلام فى الأرض ، قلت : مدافعهم وقنابلهم ؟ قال : هباء فى هباء .

أجل .. إن عرب فلسطين لم ينظموا ، ولم يسلحوا ، ولم يحشد منهم جيش قوى يستطيع أن يذود عن ديارهم ويقاوم خصمهم الغاصب ، بدل أن يولوا منه فراراً ويتركوا له الديار غنيمة سهلة باردة .. إن الجامعة لم تفعل هذا ، وهو أول ما كان يجب عليها فعله .

ماذا يفيد إذا ذهبت إلى فلسطين فزدت جيوش العزل أعزل آخر ! ماذا تستفيد فلسطين من شجاعتى إذا زدت الشهداء شهيداً ؟ لا .. لا .. إن شجاعتى لن تغنى القوم شيئاً ، إذا ما ذهبت إليهم بنفسى .. مجرد فرد أعزل .

يجب على أن أستعمل شجاعتى بطريقة عملية .. أستطيع أن أنقذ بها فلسطين فعلاً .. يجب أن أحرك جيوشاً مسلحة قوية .. يجب أن توضع خطة منسقة ، وهجوم منظم لتعاون فيه القوات المقاتلة ، وتنقض على اليهود ، فلا تبقى منهم ولا تذر .

(أرض النفاق)

إن حيفا قد سقطت .. ومدافع اليهود الثقيلة قد بدأت تصلبى العرب نيراناً حامية ، ففروا من دورهم ، وهجروا أراضيتهم .. وأضحى عرب فلسطين كلها مهاجرين لاجئين ، عالة على غيرهم لا يكادون يحصلون على الكفاف .
صبح نومكم .. أيها النيام ، وأخطأ والله من سماكم عرباً .. لقد كان يجب عليكم أن تدعوا « نيام . نيام » .

ماذا كنتم تنتظرون ؟ .. هل تخيلتم أن اليهود سيأخذون عرب فلسطين — بالحضن — أم تخيلتم أن القوم العزل يستطيعون بخطبكم وتصفيقكم أن يتغلبوا على المدافع والطائرات ؟!

لقد سمعت زعيماً عربياً يقول عندما أعلن نبأ التقسيم : « إن القلم سيصمت وسيتكلم السيف » ، وأصابتنى إذا ذاك هزة .. وانتشيت من فرط الحماسة .. وتذكرت خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وتذكرت انتصارات العرب وغزواتهم ، ورثيت لليهود المساكين .. وانتظرت أن أسمع حديث السيف .
انتظرت .. وانتظرت ، وطال منى الانتظار ، لأسمع شيئاً ، حتى اتضح لى فى النهاية أن السيف لا بد أن يكون به خرس .

لقد تحرك النيام أخيراً .. وبدعوا يتمطون ويتشاءبون ، وبدأنا نسمع أن الجيوش المسلحة ستتحرك وتطبق على اليهود .

ولكن هل يعنى ذلك أنها إذا تحركت .. فهل ستفعل شيئاً حاسماً مجددياً ؟ .. إن القوم بطيئو التنفيذ .. شديديو البلادة ، وليس هناك من ينخسهم أو يستحثهم على السرعة .. بل الكل يطلبون لهم ويزمرون .. ويهللون لاجتماعاتهم ويكبرون .

ماذا علنى إذاً لو أكون أنا ذلك الناخس المستحث .. الدافع على العمل ، المنسق للخطط ، الخاضع على التسليح والتعاون .. إن خير ما أفعله .. هو أن أدفع العرب للعمل الحاسم الفعال المتناسق الموحد .

إن المسألة لا تخرج عن شيئين .. إما أن يكون اليهود قوماً غير ذوى خطر ..

فتركهم يفعلون ما يشاءون في فلسطين .. ولا نتعب أنفسنا بالاجتماعات والمشاورات والخطب والمقالات والهجوم الفردي غير الفعال ، وإما أنهم خطر داهم .. يهدد كيان كل أمة عربية .. وأن اشتراك أية أمة عربية في درء خطرهم عن فلسطين ، لا يعتبر مجرد مساعدة لفلسطين .. بل هو دفاع ، عن النفس .. وفي هذه الحالة يجب أن تشد القوى وتوحد الجهود ، وتوجه إلى اليهود ضربة قاضية لا تقوم لهم بعدها قائمة .

وهكذا استقرى الأمر على أن أستعين بشجاعتي ، لكي تجعل منى قوة موقظة دافعة للزعماء النيام .. وبدأت أفكر في الكيفية التي أستطيع أن أصل بواسطتها إلى ما أريد .

وكنت أعلم أن القوم سيجتمعون في دار الأمانة العامة للجامعة العربية .. فقلت لنفسي : إن أول ما يجب عليّ فعله هو أن أتوجه إلى هناك .. ولا شك أن الله سيوفقني إلى ما أفعله ، وسيهيئ لي من أمرى رشداً .. ويهديني إلى خير التدابير وأفضل الحلول .

وانتخدت طريقى متجهاً إلى مقر الجامعة .. فوصلتها بعد فترة من الوقت . ووقفت أتأمل البناء .. فلفتت نظري لافتة كتب عليها « الأمانة العامة » فتقدمت إلى اللافتة .. وأخذت في نزعها .. وتقدم إليّ أحد الحراس فسألتني عما أفعله ، فقلت : إني سأغير اللافتة .. ولم يناقشني الرجل فقد اعتقد أنني مكلف رسمياً بتغيير اللافتة .. وتجديدها .. ولم يمنعني من عملي .

وكنت قد قررت أن أضع مكان اللافتة لافتة أخرى كتبت عليها بالخط العريض « الخيانة العامة » ..

ولم أكد أنني من نزع اللافتة .. حتى سمعت ضجيجاً ورائي .. ورأيت موتوسيكلًا مندفعاً في ضجة وضوضاء حتى توقف أمام البواب ، وكانت تتبع الموتوسيكل عربية بها بضعة حراس مسلحين .. ثم عربية أخرى أنيقة فخمة ، وعربة ثالثة بها حشد آخر من الحراس .

وسمعت رجلاً بجانبى يهمس فى أذنى « الأمين العام » ، وتملكتنى الرهبة ..
وأحسست بخشية من الموكب ومظهره الفخم .. رغم تلك الشجاعة التى كانت
تملأ نفسى .. وسألت الرجل بجوارى :

— وما هذا الموكب الذى يتقدمه ويتبعه ١٩ ؟

— حراس .

— حراس ا. ولم ؟

— يحرسونه .

ورفعت حاجبى فى دهشة وعدت أتساءل :

حرسه الله وصانه ، وأبقى حياته .. ممن يحرسونه ؟ وممن يخشون عليه ؟

— من الصهيونيين .

— من الصهيونيين ١١ و .. وما للصهيونيين وماله ؟

— أيها الغبى .. قلت لك إنه الأمين العام .. ثم تسألنى بعد ذلك ما

للصهيونيين وماله ؟

وانتظر الرجل أن أقول « آه .. لقد تذكرت .. يالى من غبى » ولكنى لم أقل

له ذلك .. وعدت أسأل :

— وماذا يخشى على الأمين العام من الصهيونيين ؟

ونظر إلى الرجل نظرته إلى فلاح غبى لا يفهم من أمور السياسة وتذرع بالصبر

وعاد يجيبنى :

— يخشى أن يغتالوه .

وتصنعت الفرع وتراجعت للخلف ، وقلت للرجل :

— يغتالونه ؟ .. أبعد الله عنه الشر .. ولم يغتالونه ؟

وماذا فعل بهم ١٩ .. وأى مكروه أصابهم منه ؟ وأى أذى ألحقه بهم ١٩ ؟

رارتبك الرجل ، وأخذ يفكر فى قولى برهة .

ماذا فعل بهم ؟

وأى مكروه أصابهم منه ؟

وأى أذى ألحقه بهم ؟

هذا والله شيء محير .. فالصهيونيون كانوا حتى ذلك الوقت بخير وعافية ..
ما أصابهم مكروه ، وما مسهم ضرر... أما الذين أصابهم مكروه ، ومسهم الضرر
والأذى .. وأشبعوا ذبحًا وتقتيلاً .. وضربًا وتدميرًا ، فهم العرب .
أخذ الرجل يفكر .. وأعياء التفكير دون أن يجد ما يجيبني به .
وأخيرًا هز رأسه وقال في ثقة واعتداد :

— إن الرجل بيده مفتاح الموقف .. إنه هو الذى يحرك الجامعة .. إنه رجل
الأسرار .. إنه رجل خطير .

ووقع قول الرجل لأول وهلة في مسمعى موقفًا حسنًا .. فهو قول رنان فيه
تفخيم وتبجيل .. ولم أجد فيه كثير غرابة .. فهو لا يعدو أن يكون من جملة
الصفات التى طالما ألبستها أوهامنى للأمانة العامة .. فظهرتها لنا مفخمة مبجلة .
ولكننى أخذت في فحص القول وتمحيصه ، ومحاولة فهمه . قطعة قطعة . إن
الرجل بيده مفتاح الموقف !

أى مفتاح !! وأى موقف ؟!

إن الموقف كما نعلمه جميعًا .. « بهدلة .. فى بهدلة » . وهزل .. وسخرية فى
سخرية .

إنه هو الذى يحرك الجامعة !

ونحن أدرى بحركات الجامعة ، وما تتمخض عنه .. فكم من مرة تمخض
الجيل .. فولد فأراً .. بل فيرانا من التصريحات والأعمال المرتجلة .. سرعان ما
ابتلعها الجحور فكأنها ما كانت .

إنه رجل الأسرار !

لا تذكرونا بالأسرار ، بالله عليكم .. فكم اجتمعت الجامعة فى بلودان ، وفى
الزعران .. وقيل لنا وقتذاك .. هس .. إياكم أن تتكلموا .. لقد وضعت

الجامعة قرارات سرية خطيرة جدًا .. ستداع في حينها .. إذا ما دقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وأخذنا نضرب أحساسًا في أسداس .. ونقول : ماذا يا ترى قد قررت الجامعة ، وتوقعنا لليهود بمس المصير .

كم تحرك الأمين من القاهرة إلى شنطن ، وكم طار من وشنطن إلى لندن ، وكم نط من هنا إلى هناك كأنه « فرقع لوز » ، وكم صرّح بتصريحاته الغامضة « العائمة » التي تكتنفها الأسرار ، ويحيطها الإبهام ، وحاولنا أن نعرف إذ ذاك سبب الحل والترحال والنط في مشارق الأرض ومغاريها ، وحاولنا أن نفهم تصريحاته ، فحرنا ، وهزنا رعو سنا ، واتهمنا نفوسنا بالجهل . وقلنا : خير لنا أن ننتظر ، فسيظهر تأثير كل هذا بعد ذاك .

كنا نظن وقتذاك « تحت القبة شيخ » ، وأن الشيخ من نوع جواب رحال .. نوع يرى « أن العز في النقل » نوع قفاز نطاط لا يستقر تحت القبة قط .. تراه اليوم في نيويورك .. وتراه الغد في لندن .. قلنا أعانه الله وقواه . ودقت الساعة .. وأزفت الآزفة .. وانتظرنا أن يظهر الشيخ وتحل بركاته ، وأن تتفتق الأسرار فتبهط منها حممًا تحرق اليهود وتتركهم هشيماً تذروه الرياح .. انتظرنا سر الشيخ الباتع .. انتظرنا أن تتحرك من فلسطين الجيوش المنظمة ، والقيادات العليا والتكتيكات العنيفة .. انتظرنا أن نرى الفن الحربي فلقد قالوا لنا : إن الشيخ كان فيما مضى محاربًا قديمًا شجاعًا .

وطال بنا الانتظار ، ونحن لا نرى إلا دخان البخور في المجامر ، بدل دخان المدافع في المعارك .. ولا نرى إلا خططًا لمزيد من الاجتماعات ، بدل خطط للهجوم . وإذا بأهل الدار العزل قد غادروها هارين لاجئين .

رحم الله الشيخ .. لقد « استحل » المشيخة .. والجلوس في القبة .

ترى ماذا يمكن أن يخشى اليهود منه .. وقد كان عليهم بردًا وسلامًا ؟!

ماذا يخشون من الجواب الرحالة النطاط .. صاحب الاجتماعات والخطب

والبيانات والتصريحات ؟!

ماذا يخشون من جبل .. أقسم ألا يلد إلا فيرانا ؟!
ونظرت إلى حشد الحراس ، وقلت : هذه والله سخرية .. فما أظن
الصهيونيين قد بلغوا من الغباء بحيث يفكرون في اغتيال الرجل أو الاعتداء
عليه .. ولو كنت منهم لتطوّعت لحراسته ، ولدعوت له ليل نهار بدوام البقاء
وطول العمر . وأن يحفظه الله للأمانة العامة .. وللصهيونيين عامة .

ونظرت إلى الرجل بجوارى ، ولم أحاول أن أناقشه بل أمنت على قوله ، إذ لم
يكن المجال مجال نقاش . وما جئت إلى هنا للدخول في جدل عقيم ، بل جئت
لأحرك قادة العرب ، وأوقظ رعوسهم وأوحد خططهم ، وأنخسهم وأستحثهم
حتى ينسقوا جيوشهم المسلحة المنظمة لسحق اليهود .. وأنبهم أنى على استعداد
لأن أضع جسدى في الطليعة .

وبدأت أنا أصلح من هندامى ، ووضعت اللاقته بجوار الحائط ، ثم سرت في
خطا متدة تجاه الباب ، وهمت بالدخول .. واستوقفتنى الحارس وسألنى عما
أريد .

وابتسمت في ثقة وهمست في أذنه :

— سأخبرك عندما أنتهى من مهمتى .. ادع الله أن يمكّننى من إتمامها .

وبدت الدهشة على الحارس وأمسكنى من ذراعى .. قائلاً :

— وأية مهمة هذه التى ستنهيا .. ألم تقل إنك ستصلح اللاقته ؟!

واستمررت فى الهمس فى أذن الرجل :

— لاقته !! لا تكن أبله .. أنا أحضر إلى هنا لمجرد تغيير اللاقته ؟! إن مهمتى

أكثر من ذلك كثيراً . إن لى مهمة عظمت سيهتر لها الشرق .

ثم ربت على كتفيه برفق وأردفت قائلاً :

— عن إذذك .

ولكن الرجل لم يترك ساعدى ، بل ازدادت قبضته ضغطاً على كأفما يخشى

أن أفلت منه ، وعاد يقول :

— مهمتك سيهتز لها الشرق .. !!

وفجأة رأيت الرجل يهجم على فيطر حنى أرضا ويصيح بأعلى صوته :

— أيها المجرم الأثيم !

وتكأ كأ علينا بقية الحراس وهم يتصايحون من حولي ، وأنا غريق بينهم ، وسرعان ما أخبرهم الرجل بأنني صهيوني أثيم .. وأنني أخذت أحوم حول دار الأمانة ، وأفهمته أنني قد أتيت لإصلاح اللافتة .. ثم حاولت التسلل من الباب واعترفت أنني سأفعل فعلة يهتز لها الشرق .

وازداد الضجيج ، وعلا الصراخ ، وهبط كل من في البناء بعد أن نقل إليهم الخبر بأن صهيونيا مجرمًا يحاول نسف البناء والفتك بقيادة العرب .. كل هذا وأنا راقد على الأرض ، وقد تكأ كأ على الحراس .. أحاول أن أشرح لهم حسن نيتي وسلامة قصدي .. ولكنني لم أكن أستطيع حتى مجرد التنفس .

وبعد لحظات أوقفوني ووضعوا الأغلال في يدي وساقوني إلى عربة مقفلة .. وأنا أسمع الأقوال حول مختلطة متداخلة ، فمن قائل . إنه رآني منذ أسبوع أرسم مدخل الدار .. ومن قائل : إنه يعرف أنني على رأس عصابة صهيونية خطيرة . ولم أكن أصدق قط أن هذا قد حدث لي .. أنا الذي منذ لحظة كنت أنوي تحريك الجيوش وتحميس القواد .. أصبح في غمضة عين صهيونيا أثيمًا .. ورئيس عصابة خطيرة لاغتيال قادة العرب !

وألقى بي في السجن .. ومضت فترة ثم قادوني إلى النيابة لسماع أقوال .. وفي طريقني إلى النيابة ، وصل إلي أصوات باعة الجرائد .. « ملحق يا جدع . أكبر خيانة عرفها التاريخ . محاولة نسف الجامعة العربية وقتل زعماء العرب » . وقفت أمام وكيل النيابة ، ونظرت إليه فإذا به صديق لي عزيز وزميل قديم ، ونظر هو إلي في دهش ، وقال متسائلا :

— أنت ؟

وهزئت رأسي ببساطة وقلت له :

— نعم أنا .

ولم يستطيع أن يكتم ضحكته وقال :

— أنت صهيوني !! مالك وللصهيونية ؟!

— ليست الصهيونية هي السبب .

— ما السبب إذا ؟

— الشجاعة .. الشجاعة هي السبب .. أنا لست صهيونيًا .. ولكنى

شجاع .

وقصصت عليه ما كنت أنوى فعله .. دون أن أذكر له شيئاً عن جرعة

الشجاعة خشية أن يتهمنى بالجنون .

وانتهى الأمر بالإفراج عني .. وعدت إلى دارى ..

وقد أحسست أن قدمي لا تكادان تحملاني من فرط ما عانيت من جراء جرعة

الشجاعة .

(٤)

فى الطرىق

إن الإنسان .. هو الإنسان .. غشاش
مخادع .. كذاب منافق .. فى كل أمة .. فى
كل جيل .
لا تقولوا : رحم الله آباءنا وأجدادنا ..
لأنهم كانوا خيراً منا ، وأفضل خلقاً ..
لا تقولوا ذلك .. فما كانوا يقلون عنا ..
زداءة وسفالة .

وصلت إلى البيت فوجدت القوم قد رقدوا والصمت مخيماً فتسللت إلى
حجرتى ، وخلعت ملابسى فى سكون ، وركدت فى الفراش منهك القوى ،
محطم الأعصاب .

واستيقظت فى الصباح وتبينت من الضوء الذى انتشر فى الغرفة أنى قد
تأخرت عن موعدى الذى تعودت الذهاب فيه إلى عملى .. والذى لم أجرؤ مرة
واحدة على التأخر عنه .

أنا رجل شديد المواظبة .. وقد يكون فى مواظبتى هذه نوع من الجبن وخشية
العواقب ، فأنا أخاف أن يؤخذ علتى فى عملى أى مأخذ ، أو خطأ .. لا لى
للعمل .. بل لخوفى من الظهور بمظهر المتراخى المكسال .

ولو كنت فى يوم عادى — لم تفعل فيه جرعة الشجاعة بنفسى ما فعلت —
وأريت الضوء قد ملأ الغرفة كما رأيت عندئذ .. لقفزت من السرير كالملسوع

وارتديت ملابسى فى ثوان معدودات ثم خرجت أعدو فى الطريق ووصلت إلى عملى فى لمح البصر ، وأنا ألث من فرط التعب .

ولكنى .. وى من الشجاعة ما بى .. وجدتنى أنهض من الفراش ببطء وأذهب إلى الحمام فى تودة .. ومضت بى نصف ساعة ، وأنا أحلق ذقنى وأرتدى ملابسى بمنتهى التأنى كأنما أنا ذاهب إلى موعد غرام .. وجلست على مائدة الإفطار أتناوله فى شهية دون أن يدخلنى أى إحساس بقلق أو خشية .

ماذا يضربنى أو يضير العمل إذا تأخرت عن موعدى نصف ساعة أو حتى ساعة من ناحيتى أنا .. لا أظنه سيصيبنى أكثر من كلمة تأنيب من الرئيس .. سأعرف ولا شك كيف أردّها له .. أما ناحية العمل .. فلا أعتقد أن تأخيرى يضيره كثيرًا .. لأننى لو جمعت كمية العمل التى أعملها فعلا خلال ساعات العمل الست لما كانت أكثر من نصف ساعة .

وهكذا خرجت من الدار ، ناعم البال مطمئن النفس .. ليس لى من خوف ولا عجلة .. أو كما يقولون — فى بطنى بطيخة صيفى — ١١

ووقفت فى محطة الترام المزدهمة المكتظة بخليط عجيب من الناس ، وأقبل على « حسين . » بائع الجرائد ، وقد مد لى يده بكومة منها ، وقال بلهجة مليئة بالثقة والاهتمام :

— الحالة صعب .. اليهود كانوا حايئسفوا الجامعة . لولا ربنا ستر .
وتناولت منه بضعة جرائد ومجلات ، وطويتها تحت إبطى .. فقد كنت أعلم تمامًا كل ما بها .

وأخذت أقلب الطرف فيمن حولى ، ولفت نظرى رجل منتفخ الأوداج ، بادى التأثق ، قد مال طربوشه على أحد حاجبيه ، وعلق سبائنه وإبهامه بطرف شاربه يشبعه برماً ولفا ، وأمسك بيده الأخرى عصاً اتكأ بها على الأرض . ومال بجسده عليها ، وبدت عيناه حائرتين زائغتين .. بين نوافذ الدور المحيطة ، وبين الحريم الشارد فى الطريق ، والواقف على الأرصفة .

وأقبل الترام فاندفعنا إليه واستطعت أن أحشر جسدى بين الجمع الوقوف متعلقًا بإحدى الحلقات الجلدية المدلاة من سقف الترام .

وبعد هنية رأيت « الكمسارى » مقبلا يشق طريقه بين الأجساد المترصة وهو ينقر بقلمه على خشبة التذاكر ، ويصيح بين آونة وأخرى — ورق — فأخرجت من جيبي ثمن التذكرة وتناولت منه تذكرتى .

وتابع الرجل طريقه يبيع الورق لغيرى من الركاب .

والتفت حولى فوق بصرى على ذلك الرجل المتفخخ الأوداج ، المبروم الشارب ، الأرستقراطى المظهر ، ورأيت « الكمسارى » يشق طريقه إليه .. ولا شك أن الرجل قد أحس هو الآخر به فقد بدا عليه مظهر المطارد .

وهنا بدأت أرقب نوعًا عجيبًا من المطاردة الصامتة .. بين « الكمسارى » وبين الراكب المتأنق الأرستقراطى الذى يحاول أن يفلت من ثمن التذكرة ، دون أن تنهوى أرستقراطيته أو تحد من كبريائه .

كان أول ما فعله الرجل حين أبصر « الكمسارى » مقبلا عليه هو أنه استدار بشيء من العظمة وأعطى ظهره لبائع — الورق — ممسكًا شاربه يمينه .. مؤنيًا وجهه إلى خارج الترام . كأنه يستنشق النسيم .. أو كأن المناظر التى يمر بها الترام .. لم تقع عليها عيناه من قبل فهى تستلفت كل اهتمامه ، أو كأنه — سرحان — لا يحس بشيء من هذه الدنيا الصاخبة حوله .

ولقد بدا الرجل كذلك فعلا .. حتى كدت أخدع فيه ، فأظن حركته تلك التى أعطى بها « الكمسارى » ظهره .. حركة غير مقصودة .. وأنه فعلا شارد الذهن ، لا يحس بالكمسارى ولا يقصد التهرب منه .. لولا شيء واحد هو الذى جعلنى أكشف الرجل .. وهو استراقه البصر — من تحت — ونظرته إلى « الكمسارى » بنصف عينه .. ومراقبته له خفية.... وتتبعه له فى حركاته وسكناته كأن الاثنين فى مبارزة .

وقام « الكمسارى » .. بحركة تطويق واسعة النطاق .. قاداته مباشرة أمام

مواجهة خصمه .. وبدأ هجومه بلا رفق ولا هوادة .. وانطلقت منه أول قذائفه .. « ورق يا بيه ».

ولكن — البيه — تنحى بسرعة .. فأصابت القذيفة رجلاً بجواره .. سرعان ما مدّ يده بالنقود إلى « الكمسارى ».

ولقد كانت حركته في الدفاع حركة ماهرة .. دلتنى على أن الرجل متمرن في الزوغان . وأثبتت لى أنه كان في تمام اليقظة ، وأنه كان يتتبع جيداً حركات خصمه ، فلم يستطع أن يأخذه بطريقة المفاجأة .

إن الرجل لم يكذب بحس « بالكمسارى » حوله ويقترب منه حتى نظر إلى سقف الترام .. ثم بدا كأنه على وشك أن يعطس ورأيت يمد يده في جيبه باحثاً عن منديله .. ووضعه على أنفه وأخذ يعطس عطسات ، مكتومة ، وكان يلف عقب كل عطسة ربع لفة .. بطريقة غير مقصودة .. حتى انتهى الأمر به بعد بضغ عطسات إلى أن يعطى « للكمسارى » ظهرة مرة أخرى .

ولم يئس « الكمسارى » . بل أصر على أن يعاود الهجوم مرة أخرى .. وكان الرجل قد بدأ ينشر بين يديه جريدة تظاهر بأنه انهمك في قراءتها وأنها قد شغلته عن كل ما حوله ، فلم يعد يحس لا بكمسارى ولا بغيره .. ومع ذلك كنت أعرف تمامًا أن « الكمسارى » لم يفلت من مراقبته لحظة واحدة بدليل هذا الالتفاف البطيء حول نفسه .. والذي يجعل ظهرة دائماً « للكمسارى ».

ولست أشك في أن الرجل كان سيتنصر في النهاية .. وأنه كان سيفلت من ثمن التذكرة .. لولا أن حدث أمر جعل المعركة تنقلب في غير صالحه .. وجعله يسلم في النهاية .

لقد سقط الرجل بعد أن تكأكأ عليه خصومه .. وبعد أن استعملوا معه طريقة الكماشة التي لم يستطع أن يفلت منها .

لقد أخذ « الكمسارى » يطبق عليه كطرف من أطراف الكماشة .. أما الطرف الآخر .. فقد كان في هيئة مفتش .. يقول للرجل في أدب : « تذكرة

يابيه » ، وهنا رأيت الرجل يترغ ويمد يده في جيبه فيخرج « شلن » .. ويمد يده به إلى المفتش قائلاً : « هات الباقي » .

وتناول المفتش « الشلن » وناوله الكمسارى وأخذ منه تذكرة فمزق طرفها وسلمها للرجل .

وفجأة انقلب الحال .. وتطورت المطاردة .. بعد أن أخذ الكمسارى « الشلن » .. وزاغ بين الركاب دون أن يعطى الرجل بقية النقود .

لقد تبدل الأمر .. فإذا .. بالكمسارى هو الهارب الزائع .. وإذا به يحوم من بعيد حول الرجل .. دون أن يقترب منه قط .

لقد أخذ يكيل بنفس الكيل الذى كال له به .. ويادله استهبالا باستهبال ، واستعباطاً باستعباط .. والرجل قد انقلب حاله .. انقلاباً تاماً .. فتبدل شروده بيقظة .. وصهيته تحفزاً .. ونظرته للكمسارى من تحت لتحت .. أضحت بحلقة وذعراً .. وخشيته منه ، وتجنبه له .. قد أصبحت لهفة عليه ، ورغبة فى الوصول إليه .

وهكذا أخذ الترام يقطع المحطة تلو المحطة ، والرجل يزداد قلقاً وتحفزاً وعيناه تزدادان تعلقاً بالكمسارى .. حتى شغلنى عنه صوت امرأة أجنبية قد جلست على كرسي قريب .

وأخذت تنادى « الكمسارى » فى إلحاح .

وسمعت رجلاً بجوارى بـ يتصعب — بشفتيه ، ويهز رأسه فى أسف .. ويوجه الحديث إلى قائلاً .

— يا سلام .. على الأمانة .. يا خسارة على المصريين .. لو كانت مصرية !! كانت انتهرتها فرصة .. وصهنت عن التذكرة .

يا خسارة على ولاد العرب !

واستنتجت من حديثه .. أن المرأة الأجنبية تنادى « الكمسارى » بذلك الإلحاح لأنه قد نسى أن يأخذ منها ثمن التذكرة ، ولم أستطع سوى أن أؤمن على

قوله ، ولا سيما بعد ما رأيته من صاحبنا الأرستقراطى وتفننه فى الزوغان من « الكمسارى » .

وبدأ الركاب يشتركون فى إبداء آرائهم .. ويشيدون بأمانة السيدة خاصة والأجانب عامة .. ويرددون الأمثلة المختلفة .

ولم يعدم الأمر .. أن يكون بينهم من زار — بلاد بره — أو من يعرف بعض من زارها .. فأخذ يضرب الأمثلة بأمانة القوم هناك ، وأن بائع الجرائد يترك الجرائد على الطريق .. والناس يأخذون الجريدة التى يريدونها .. ويضعون القرش فى صندوق بجوار الجرائد .

واخذ البعض يعلقون على هذا المثل بقولهم : إنه لو حدث عندنا مثل هذا .. لما وجد البائع .. لا الجرائد ، ولا النقود .

وهكذا انهمك الركاب جميعاً فى الحديث .

وسمعت فصلاً كاملاً عن أمانة الأجانب ، وأن حرماننا من هذه الفضيلة .. هو سر تأخرنا .

ولست أنكر .. أننى قد ألقيت بدلوى فى الدلاء .. وأنى اشتركت كغيرى فى ضرب الأمثلة التى سمعتها عن الأمانة فى — بلاد بره — ا

وأخيراً .. وصل « الكمسارى » إلى المرأة .. فإذا بها تهتف به .

— أين النكلة الباقية من القرش الذى أعطيته لك ؟

وأحسنا جميعاً بخيبة أمل .. وكان دشاً بارداً هبط علينا .. بعد ما اتضح لنا .. أن صياح المرأة لا يمت للأمانة بصلة .. وأن هذا الإلحاح منها فى طلب « الكمسارى » لم يكن إلا من أجل « النكلة » الباقية من القرش الذى دفعته ثمتاً للتذكرة .

وشرد بى الذهن .. فتذكرت أنه ليس أسهل علينا من أن ندفع دائماً .. فنشيد بأخلاق الأجانب .. ومقدرة الأجانب .. وفضل الأجانب .. ونسلب أنفسنا من كل خلق .. ونحرمها من كل مقدرة وفضل . فتنسب النقائص لأنفسنا .. والفضائل لسوانا .. يدفعنا إلى ذلك مركب النقص الذى نحسه فى

أنفسنا ، ولو بحثنا عن الواقع لوجدناهم شرًا منا .
إن الإنسان هو الإنسان .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .
إلى لأذكر ذات مرة .. كنت أدرس فيها أنا ومصرى آخر فى إحدى مدارس
الجيش البريطانى ، وكان الطلبة معنا خليطاً من جميع الأجناس : إنجليز ،
وبولنديين ، وأستراليين ، وبضعة رجال من جنوب إفريقيا .
وعندما حل موعد الامتحان .. كنت أنا وصاحبى قد استوعبنا كل ما
درسناه جيداً .. فقد كنا نحس من الامتحان خشية ورهبة ، وكنا واثقين أن
الغش فى مثل هذه الامتحانات التى يراقبها الإنجليز أمر مستحيل .
فهم قوم أخلاقهم مثلى ، ويجب أن نعتمد نحن على أنفسنا ... فنضرب لهم
مثلاً .. إنهم ليسوا خيراً منا .

وبدأ الامتحان ، وانهمكت فى الكتابة .. معتمداً على نفسى ، ولكن لم
تمض برهة حتى وجدت صاحبى يمد يده إلى بورقة .. فتناولتها منه ، وبى ارتباك
شديد ، وقرأتها ، فإذا بها لإجابة لبعض الأسئلة .. فتملكنى الحق على صاحبى ،
لأنه سيفضحنا وسط الأجانب ، وأصابنى خوف شديد ، وأخفيت الورقة تحت
النشافة .. وأخذت أستعين بما فيها خفية .

ورأيت جارى الآخر ، وهو إنجليزى الجنس .. ينظر إلى بين آونة وأخرى ..
فازددت حرصاً على إخفاء الورقة ، خشية أن يتبين أنى أغش .

ومضى الوقت ، وأنا أرى جارى يزداد تلفتاً إلى ، ويدو عليه القلق .
وبعد فترة أخرى .. رأيت أن الأمر لم يعد يقتصر على جارى فقط بل سرى
بين بقية الطلبة ، وأنهم كلهم قد أخذوا يرمقوننى بغیظ ، ويدو عليهم قلق
شديد .

وأخيراً .. طفح بهم الكيل ، ولم يعودوا يطبقون صبراً على أن يروا جريمة
الغش ترتكب أمام أعينهم . فرأيت جارى قد نهض حائفاً وهجم على .. فانزع
الورقة من تحت النشافة ، وعاد إلى مقعده بهدوء ، وجلس ينقل منها بمنتهى

البساطة .

إي والله ، هذا ما حدث .. لقد كنت أتوقع عندما نزع منى الورقة أن يذهب بها إلى مراقب الامتحان .. ويخبره بجنابة الغش التى ارتكبها أحد المصريين .. ولكنى وجدت أن كل ما فعل هو .. أن أخذ الورقة ليغش منها .. ناظرًا إلى قائلا : « إني بليد جدًا » ..

اتضح لى فى النهاية أن الورقة كانت مكتوبة بمعرفة المراقب .. وأنها كانت تمر على كل طالب ليغش منها ما يريد ثم يسلمها إلى جاره .. وهكذا ثار الطلبة عندما حجزت الورقة عندى .. ولم ير جارى بدءًا من أن يهجم على لى لتزيعها منى .
واتضح لى كذلك أن مهمة المراقب الكبرى لم تكن فى مراقبتنا نحن بل فى مراقبة الباب حتى لا يطب علينا أحد من الخارج .

هؤلاء هم الإنجليز .. وغيرهم من الأجناس .. نحسن الظن بأخلاقهم ، ونربأ بهم عن الغش .

إن الإنسان .. هو الإنسان .. غشاش مخادع كذاب منافق .. فى كل أمة ، وفى كل جيل .

لا تقولوا : رحم الله آباءنا وأجدادنا .. لأنهم كانوا خيرًا منا ، وأفضل خلقًا .. لا تقولوا ذلك .. فما كانوا يقلون عنا .. رداة ..

لقد كانوا أنانيين مثلنا .. كذابين مثلنا .. أكمن مثلنا . إن هذه العصا من تلك العصية ، أو هذا النعل من ذاك الوطا .

لا تقولوا : إنكم رأيتم فى — بلاد بره — الأمانة والصدق والإخلاص .. فقد رأينا نحن — بلاد بره — عندما أتت إلى — بلاد جوه — وخبرنا جيدًا أهل « بلاد بره » .

أو قد نسيت جيوش الحلفاء .. وكيف كانوا يبيعون مهماتهم ، وأسلحتنا ، وعرباتها المسروقة بأبخس الأثمان ؟

هل نسيت .. أن اللصوص .. كانوا هم أنفسهم جنود الحليفة ، وضباط
(أرض النفاق)

الحليفة ؟!

سلوا كبار المتعهدين ؟ كيف كانوا يرشون — الصاجن — أو — الكابتن — حتى يسمح بقبول البضائع ، رغم أنها غير مطابقة للعينات .. فكانوا بذلك يسيبون خسائر لأمتهم التى هم أمناء على أموالها .. لقد كانوا الموصوفاً .. ومرتشين ، وغشاشين .. وخونة .. سرقوا من أمتهم ، وغشوا أمتهم ، وخانوا أمتهم .

هؤلاء : هم أهل — بلاد بره — الذين نرى فيهم مثلاً عالياً .. تتشدد دائماً .. بحسن خلقهم .. هل هناك أشد منهم انحطاطاً ، وأردأ خلقاً ؟ لا تحزنوا على أنفسكم .. فكلنا .. فى الهوى سوا .

لا تحطوا من قيمة أنفسكم .. فما كنا شراً منهم . ولا كانوا خيراً منا . وكان الترام قد وصل إلى المحطة التى أبغى النزول فيها .. فشقت طريقى بين الأجساد ، حتى استطعت أن أهبط من الترام .. ووصل إلى صوت الرجل الأرسقراطى يصيح بالكمسارى بعد أن فاض به :

— انت يا جدع انت .. فىن الباقي ؟

ولم تكن المسافة بين مقر عملى ومحطة الترام طويلة .. وكنت دائماً .. أقطعها مسرعاً فى بضعة لحظات .

ولكننى اليوم أحسست برغبة فى — التبختر — رغم علمى أنى قد تأخرت عن موعدى ، ما يقرب من الساعة .

وأخيراً ، وصلت إلى المكتب ، وجلست على مقعدى فى هدوء بعد أن ألقيت التحية على الزملاء الذين كانوا يحملقون فى وقد تملكهم الدهش .

كنت أعلم أن دهشهم لم يكن قد سببه تأخرى قدر ما سببته طريقتى فى الدخول .. فى الساعة التاسعة .

لقد كنت أتبع طريقة فى الدخول — فى المرات القلائل التى تأخرت فيها عن موعدى من قبل — لا تتناسب قط مع طريقتى التى دخلت بها اليوم .

كانت لى طرق ثلاث ، أتبعها دائماً عند التأخر .
أولها : هى أن أقبل عليهم بطريقة توهمهم أنى حضرت مبكراً جداً ،
وانهمكت فى العمل .. وأنى قد ذهبت لأقضى بعض المهام ، وأنى عائد منها فى
التو .

وكيفية تنفيذ هذه الطريقة : هى أن أمر على أى مكتب آخر قبل الذهاب إلى
مكتبى .. وليكن الأرشيف مثلاً .. فأحمل منه بضعة دوسيهات ، وأسير وأنا
أقلبها وأفحصها .. وقد بدا علىّ أبلغ آيات الانهماك .. وأدخل إلى المكتب ..
دافعاً الباب بقدمى .. وأنا مستمر على النظر فى الدوسيهات دون أن أكلم
أحدًا .. أو ألقت إلى أحد .. ثم أقذف بالدوسيهات إلى المكتب فى ضيق وتبرم ..
وأتمم ببعض كلمات يفهم منها من حولى .. أننى — قرفان — وأننى الوحيد
الذى أشتغل .. فإذا ما أنبأنى أحد أن — البيه — أى الرئيس — طلبنى حملت
الدوسيهات مرة أخرى .. ودخلت عليه .. وبدأته أنا بالحديث قبل أن يبدأنى
هو .. شاكيًا من أنه ليس هناك من يتعاون معى .. وأنه — ما من أحد أقبل على
الشغل — وأنى لن أستطيع أن أتحمل مسئولية ما قد حدث .. فلقد فعلت كل ما
فى وسعى .. وأخلت نفسى من المسئولية .

وتضرب لكمة مع — البيه — الرئيس ، وينسى ما ينوى أن يطلبه منى ..
وينسى بالطبع ، أنه قد طلبنى .. فلم يجدى .. وأنى تأخرت عن موعدى ..
و — يندب — معى فى الموضوع المرتبك الذى دخلت أعرضه عليه .. وليس
أسهل علىّ من أن أقدم موضوعًا مرتبكًا .. لأن كل الموضوعات عندى مرتبكة .
هذه طريقة للدخول فى حالة التأخر .

أما الطريقة الثانية . فهى أن أدخل حزينًا مكثبًا .. مدعيًا أننى لم أتم طوال
الليل .. لأن زوجتى .. أو حماتى .. كانت مريضة جدًا .. وأبدأ بوصف ليلة
سوداء .. قضيتها فى الجرى وراء الأطباء .

أما الطريقة الثالثة .. وهى فى نظرى بمثابة الحالة — ج — فهى أن أدعى أننى

أنا نفسى مريض ، وعلى وشك الهلاك .
وهكذا كان يدفعنى جنبى وخشيتى من العواقب إلى أن أجند مبررات
لتأخرى .. ولقد كانت تلك المبررات دائماً .. تضمن لى أجمل العواقب وخير
النتائج .

أما اليوم .. وقد انطوى الجبن فى نفسى .. وبرزت فيها الشجاعة .
ولم أعد أحس بأى خوف مما قد ينتج عن تأخرى فى الحضور .. فأبى لم أشعر
بماجتى إلى أن أتمس أى مبرر للتأخر .. بل دخلت إلى المكتب — علنا —
وصحيحاً معافى .. وضاحكاً مستبشراً .

ونظر لى الزملاء فى دهش ، وردوا على تحيتى الصاخبة . وهمس لى « بهجت
أفندى » بلهجة الناصح :

— البيه طلبك خمس مرات ، وعرف أنك ما جتش .
وكان فى قوله ما يكفى لأن أنهار وأتماذل .. وأن أندفع إلى « البيه » فأخترق
الأعذار لتأخرى .. وأطلب منه العفو .. ولكنى نظرت إلى « بهجت أفندى »
ببساطة ، وهزرت رأسى متسائلاً :

— ما قلش عايز إيه ؟
وتعجب صاحبى من برودى وهدوئى .. وأجابنى بأنه — طلبنى ليس إلا —
وقال على سبيل التحذير .. إن البيه هائج ناثر .

ويخيل لى .. أنه يجب على قبل أن أسترسل فى ذكر ما حدث أن أعطيكم
صورة واضحة لهذا « البيه » وأن أصفه لكم قطعة .. قطعة .

« البيه » هو إبراهيم أفندى عبد المتعال .. رئيس قلم .. فى وزارة .. يتراوح
عمره بين الأربعين والستين .

ولست أريد أن يؤخذ من قولى هذا دليل على غباوتى أو على عدم كفايتى فى
تقدير أعمار الناس ، لأن لى كل العذر فى أن أعطى للرجل عشرين سنة —
براحا — لكى يتراوح عمره فيها .

وماذا أقول ، وأنا أراه يومًا في الأربعين ، ويومًا في الستين ، وأخرى عجوزًا في أرذل العمر ؟

إنى أرى عمر الرجل يتوقف على العوامل الآتية :

حلاقة ذقنه .. صبغة شعره .. عراكه مع زوجته ، هزيمته أو انتصاره في الطاوله في الليلة السابقة .. كمية ما احتسأه من التبيذ والعرق .

فقد أدخل عليه يومًا فأجد وجهه برآقا لامعا .. وشعره أسود فاحمًا ، وعينيه ضاحكتين ، فلا أعطيه من العمر أكثر من أربعين عامًا ، وقد أدخل عليه يومًا آخر .. فأجده مغمض العينين .. أبيض الشعر .. أسود لحم الوجه ، تناثرت في ذقنه الشعيرات البيضاء ، فلا أعطيه من العمر أقل من ستين عامًا . ولولا أنه لم يذهب للمعاش بعد ، لاعطيته أكثر من ذلك .

أما وصف الرجل .. فقد كان ممتلئ الجسد .. أحمر الوجه .. ذا ثلاثة كروش : كرش في بطنه ، وكرش في ذقنه ، وكرش في قفاه .
أما الكرش الأولى ؛ وهى أكبرها حجمًا .. فقد كانت أبرز ما فيه تلك الكتينة الذهبية التى تتدلى عليه من جيب الصدرى .

وأما الثانية : فقد كانت تهدل أسفل ذقنه حتى تخفى ياقته ، وجزءًا من الكرافة .

وأما الثالثة : فقد كانت من نوع دهنى ، متحجر .. تقوم على قفاه .. كأنها سنام الجمل .

فإذا ما تركت هذه الظواهر الطبيعية الثلاث ، وجدنا الرجل فى حد ذاته معقولا كأي آدمى من أبناء آدم .. وعلى عينيه وضع تينكم القطعتين من الزجاج اللتين تميزان ابن آدم عن بقية الحيوان .

أما شاربه فهو لا يستقر على حال .. يومًا مبرم ويومًا مهتل .. ويومًا حليق ، ويومًا مسترسل .

وكانت علاقتى بالرجل على خير ما يرام ، وقد لا أكون مبالغًا إذا ما قلت :

إننى كنت أحب الموظفين إليه .. لا لقدركى فى العمل أو لتفوق على غيرى من الزملاء .. بل لأنى استطعت أن أفهمه .

والواقع أنى لا أرى فضلاً يمكن أن ينعم به الله على عبده قدر أن يعينه على أن يعينه على أن يفهم رئيسه ، ويعرف يروضه ويسوسه ، ولا شك فى أن أسعد الناس فى الحياة ، هم أقدرهم على فهم الناس .

كان « إبراهيم أفندى » .. أو — البيه — كما تعودت ألسنتنا أن تنطق به ، من أكسل خلق الله وأبلدهم .. ولم يكن يفعل شيئاً أكثر من — الإمضاء — وحتى هذه الإمضاء التى كان يصممها على الأوراق ، كان غالباً ما يضيق بها ذرعاً .

كنت أدخل عليه بالدوسيهات ، وكانت إمضاءاته دائماً تتوقف على حالته النفسية .. لا على فهمه للموضوع ، ولا على استحقاق المسألة للقبول أو للرفض .. وكنت كما سبق القول أقدر الناس على ترويضه ، وعلى أن أحول غضبه رضا ، وكنت أحس حينذاك ، أن الرجل على كبره لا يزيد عن أن يكون فى قرارته طفلاً صغيراً .

كنت إذا ما رأيت الرجل غاضباً ، تركت الدوسيهات جانباً ، وأقبلت عليه أحبيه فى أدب واحترام ، وسرعان ما أسوقه إلى أحد الموضوعات الثلاثة التى لا يمل أبداً من تكرارها والحديث فيها .

ولم تكن هذه الموضوعات إلا مفاخر يشيد فيها الرجل بنفسه ، وأشاركه أنا فى هذه الإشادة حتى أجعله يشعر بمنتهى الرضا والسعادة .

كانت أول هذه الموضوعات .. حكاية قصها الرجل على ما يقرب من سبعمائة مرة .. وكنت فى كل مرة أسمعها أدهش منها وأبدى تعجباً كأننى لم أسمعها من قبل .. ثم أعلق عليها بما استطعت من كلمات التقدير والإعجاب .

خلاصة الحكاية .. أن الرجل — كما يزعم — كان فيما مضى من كبار « الفتوات » وبطلا من أبطال حمل الأنقال .. ممن تخشى سطوتهم ويهاب غضبهم ، وكان له صديق — غلبان كده زى حالانك (كذا كان يقول الرجل

فى كل مرة .. وكنت أنا أبتمم موافقا على قوله (وكان يجب فتاة لا تكاد تشعر به .. ففى ذات يوم ذهب إليه ، وقد بدا عليه الهم وملأه الاكتئاب وسأله أن يصنع فيه معروفا لن ينساه مدى العمر .. واستفسر منه عما يطلب . فإذا به يرجوه أن يشتبك معه أمام الفتاة التى يحبها .

. ويرفع الرجل منظاره فيضعه على المكتب ويتم قصته قائلا :

— أجل لقد وجدته يرجونى أن أشتبك معه أمام — البنت — وأتهجم عليه ، ولكنى لا أضربه ، بل يثور هو فى وجهى ويناولنى بوكسا خفيفا .. فأصرخ أنا وأفر هارباً ، وهكذا يبدو هو فى نظر الفتاة بطلا .. ويستطيع بذلك أن يكتسب حبها .

وفكرت فى الأمر جيذاً ، وهممت بأن أرفض .. فقد كان كثيراً على أن أضرب من فتى هزيل كصاحبى .. ولكن دافع الصداقة والإخلاص دفعنى للقبول ، واتفقنا على الموعد ، وتركت له تدبير المسألة .

ودهبنا إلى المكان المتفق عليه ، وهو مقهى أمام دار الفتاة ، وانتظرنا حتى أطلت من النافذة ، فبدأنا نتبادل السباب ، ونهضت من مكانى متهجماً على صاحبى ، ونهض هو مندفعاً لىّى وناولنى — البوكس — المتفق عليه .

ولكن الظاهر أن صاحبى كانت قد أخذته الجلالة .. وتملكته النشوة ، وحمى بعض الشيء ، فجاءت لكتمته أقوى مما كنت أتصور ... وأحسست منها بألم شديد جعلنى أستشيط غضبا ، وأنسى كل ما اتفقنا عليه ، وأمسك بصاحبنا الهزيل .. وعينك ما تشوف إلا النور .. لقد حملوه من المقهى إلى الإسعاف .. ويسكت « إبراهيم أفندى » .. فأسأله أنا ذلك السؤال الذى أعرف أنه ينتظر أن أسأله إياه :

— والبنت يا سعادة البيه ... عملت إيه ؟

ويضحك إبراهيم أفندى فى تخابث .. وينظر لىّى نظرة ؛ يفهم منها أنها قد أحبته ، ثم يقول ضاحكا :

— يا واد عيب .. دا كان زمان .

وهنا أندفع في عاصفة من التقريظ ، وينساب من فمى سيل من المدح وأقول كل ما أستطيع قوله من أكاذيب أَرْضِي بها الرجل .

وقد تكون قصة الرجل على شىء من الطرافة ، وقد يحتمل الإنسان سماعها مرة ، ومرتين وثلاثًا .. أما أن تقص على سبعمئة مرة — بلا مبالغة — (فقد كان يقصها على بمعدل يوم بعد يوم) فذلك ما لا يحتمل .. ولكنى مع ذلك استطعت احتمالها في سبيل أن أَرْضِي الرجل ، ولم أمل من التعليق عليها والإفاضة في مديحه وتقريظه ، وهذا هو ما كنت أراه فضلا في .. وقوة احتمال للمكارة . أما الموضوع الثانى فقد كان موضوع الترقية ، وكيف أنه رغم كفايته وقدرته لم يحظ بمثل ما حظى به من هم أقل منه كفاية وقدرة .. وذلك لأنه صريح شجاع لا يحب 'التلق ولا المداينة — ووافقته أنا على ذلك مع علمى أنه أكبر مداهن متملق رعديد — ثم يقص على كيف كان « فلان باشا » زميله في المدرسة ، وكيف كان « فلان بك » معه في مكتب واحد ثم أضحى وكيل وزارة ، ولم يزل هو رئيس قلم .

وهكذا يندفع الرجل في ذكر فضائله ومزاياه ، وأنه ليس هناك من يقدر تلك المزايا والمواهب .. وأندفع أنا في موافقته على طول الخط . أما الموضوع الثالث فقد كان موضوعًا داخليًا .. أعنى خاصًا بحياته الداخلية .. وعلى وجه الدقة .. خاصًا بعلاقته مع الست « أم على » حرمه المصون .

كانت شكوى الرجل من امرأته ، وفضفضته بما تفعله فيه هو خير ما يروح به عن نفسه ، وكان يبدأ الفضفضة عادة بسؤاله — أنت متزوج يا « فلان أفندى ؟ فأجيبه بالنفى ، فينفخ بشدة كمن يزيح عن صدره كابوسًا يطبق عليه ويقول : يا بختك !

وأنتظر أنا عليه برهة حتى يشم نفسه ثم أسأله عن الموضوع فيبدأ بوصفه

قائلا :

— الوليّه .. حاتجيب خبرى ، يا أنخى المحكوم عليه بالسجن المؤبد يخرج بعد عشرين سنة ، وإذا كانت أخلاقه حسنة ييشيلوا عنه ستين ، وأنا بقالى خمسًا وعشرين سنة مع الوليّة مش قادر افلت أبداً منها .

— إيه اللى حصل يا سعادة البيه ؟

— موريانى المر .. سودت عيشتى .. انبارح طول الليل تدق بالهون .. آل إيه بتشبشب علشان فيه ناس عاملين لها عمل ، ومسنكرة الشيايبك علشان ما بصبصش للجيران .. قل لى أعمل إيه ؟

وأجابه أنا بمنتهى البساطة :

— طلقها ؟

ثم أبداً فى إقناعه أنه ما زال شاباً ، وفى أوج قوته ، وأظل أنفخ فيه مدحاً وتقريظاً حتى يحس بالرضا التام .

وهكذا كنت أستعمل مع صاحبنا كل ما وهبه الله لى من قدرة فى النفاق والرياء والمداينة ، وكنت بهذه الطريقة أريح نفسى من شرّه وأتقى غضبه .. ما ذكرت مرة واحدة أنى عارضت له رغبة ، أو خالفت له رأياً .

وكنت بين آونة وأخرى أقدم له بعض الهدايا.. بضمن صورى زاعماً أنى حصلت عليها لقطة، وأذكر أنى قدمت له مرة صندوقاً من الشوكولاته يقدر ثمنه بثلاثة جنيهات. وسألنى عن ثمنه ، فقلت له ابتعته لقطة بخمسة قروش ، ولم يدهش الرجل بل نظر لى ببساطة ، وقال لى :

— اوعى يكون أغلى من كده ؟!

لقد كنت أستعين على الرجل بالجبن والنفاق والرياء .. أما الآن ، وقد تناولت جرعة الشجاعة ، وتطايير عنى الجبن وتبدد النفاق والرياء ، ترى كيف أستطيع أن أتعامل معه .. وهل أستطيع أن أحتمل غباوته وجمقه وسخافته وسلطة لسانه ؟! لقد غادرت مكنتى ودفعت بابه ، وأنا أقول فى نفسى :

— اللهم رفقاً لى .. وبه .

(٥)

اللعبة الكبرى

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما
يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات وأحزاب
وسياسة ، هي شر ما ابتليت به مصر !!
إنها العقبة الكئود ، والأغلال الثقيلة ،
التي تعرقل سير الأمة وتثقل كاهلها .

دفعت الباب .. واقتحمت الحجرة وأنا أحس بجرأة لم أعودها قط من نفسي
عندما أتجاوز باب الرئيس .. ووجدت الرجل جالساً على مكتبه .. وقد بدت
عليه بوادر الشر ، وكأنه يتحفظ للانقضاء .

ولم أشك عندئذ أن الرجل في أسوأ حالاته النفسية .. التي لا تنتج إلا أثر
معركة حامية — على الريق — بينه وبين حرمه المصون .. وكان يجب على
والأمر كذلك .. أن أبدأ بالترفيه عنه ، والتسرية عن نفسه .. وفرفشته ونعششته
بشتى أحاديث النفاق والرياء والمداهنة .. ولكنني شعرت أني لم أعد أجيد هذه
الطرق ، وأن نفسي قد بدأت تعافها .. وأن الشجاعة الكامنة في جوفي تأبى أن
تنزل بي إلى هذا الدرك .

ونظرت إلى الرجل وأشارت له بالسلام وسألته :

— هل طلبتني ؟

ونظر إلي الرجل مكشراً عن أنيابه وسألني في غضب :

— أين كنت ؟

ولم يكن لدى أى شك فى أنه على استعداد لقبول أى عذر أعلل به تأخيرى ،
وأنه فى أشد الحاجة إلى أن يسرى عن نفسه بالفضفضة والشكوى ، ولكنى أجبتة
فى غير اكتراث :

— لقد تأخرت بعض الشيء .

وهز رأسه متسائلا :

— ولم تأخرت ؟

— لأنى تأخرت فى الاستيقاظ .

وبدأ صبره ينفد ، وحملنى فى بعينه وقال مزجرا :

— ولم تأخرت فى الاستيقاظ ؟

— لأنى قد تأخرت فى النوم .

— ولم تأخرت فى النوم ؟

فأجبتة ببرود :

— هذا ليس من شأنك .

ذهل الرجل فما كان يتوقع منى هذه الجرأة فى الرد .. وأخذ يرمقنى شررا
وتوقعت أن ينفجر ، فبدأت أتحفز للرد عليه وأصررت على أن أكيل له الصاع
صاعين .. ولكنى — لشدة دهشتى — رأيته قد كظم غيظه وأشار إلى
بالاقتراب والجلوس .

وجلست أمامه متأقفا .. فقد أدركت أنه ينوى أن يلى على الأسطوانة
إياها .. أسطوانة الشكوى والفضفضة .. ويقص على ما تفعله به امرأته ..
ويستشيرنى عما يفعله بها ، وأن على بعد ذلك أن أملى عليه الأسطوانة المقابلة ..
التي أشير عليه فيها أول ما أشير بطلاق امرأته ، ثم آخذ بعد ذلك فى امتداحه والثناء
عليه .

وبدأ الرجل حديثه ، وهو ينفخ ويزفر قائلا :

— إن الحياة مع هذه المرأة لم تعد تطاق .. ذهبت بالأمس إلى مقهى النيوبار

وجلست ألعب عشرة مع « عبد الحميد بك » ، وفي الساعة الثامنة طلبت واحد زبيب ، ثم تركت المقهى إلى ..

وبدأت أنا أتململ .. فقد كنت أعرف كل ما سينوى قوله ، ولم أكن أحس في نفسى كثير صبر على احتمال سماعه ، وساءلت نفسى كيف استطعت أن أحتمله كل تلك المرات السابقة .. ولم أجد بدا من مقاطعة الرجل متممًا حديثه قائلاً فى سخرية :

— تركت المقهى إلى كازينو الشرق ، وقضيت وقتًا بريئًا مع كيكسى الراقصة ، ثم ذهبت إلى البيت ترنخ من السكر .. فقابلتك زوجتك بخناقة .. لرب السما .. هل عندك أكثر من هذا ؟ ما ذنبى أنا ؟ تثقل على كل يوم بما فعلت وفعلت زوجتك .. لعنة الله عليك وعليها ، ثم كيف تبيع لنفسك وأنت فى هذه السن وهذا المركز التلكؤ على المقاهى والتسكع على البارات مع الراقصات ، ثم تذهب إلى البيت سكران طينة ، وتشكو مع ذلك مما تفعله بك زوجتك . ثم رفعت بصرى وحملت فى وجه مليا وأردفت قائلاً :

— لقد فضفضت أنت عن نفسك كثيرًا فيما مضى .. هل تسمح لى بلحظات أفضفض أنا فيها عن نفسى ، وأزيج بها العلة التى وضعتها على قلبى . أولاً .. هل تستطيع أن تذكر لى ما فائدة ذلك — الهباب — الذى تضعه على رأسك .. هذه الصبغة التى تلوث بها شعرك .. هل خدعت بها أحدًا سوى نفسك ؟ .. هل تعتقد أن هناك حمارًا — سواك — يتوهم أن هذا لون شعرك الحقيقى ؟ هل تظن الناس قد أصابهم العمى وقلة التمييز .. بحيث يكفى هذا السواد الذى تضعه على رأسك ، لإقناعهم أنك ما زلت فى شرخ الشباب ؟ هل يعقل أن يكون رجل مثلك .. فى وجهه مثل ما فى وجهك من تجاعيد له مثل هذا الشعر الخالك السواد ؟!

ثم هب أنك معجزة عصرك ، وأن الله قد أنعم عليك بملكة فى الشعر أبدية ، بم تفسر للناس هذا السواد الذى يبدو فى أرضية رأسك ؟ ماذا تخشى من بياض

الشعر ، وماذا تبغى من تسويده . مزيدًا من جمال ؟ وإيهامًا بفتوة ؟
إن لكل سن مميزات ، ومميزات الشباب جماله وقوته ، ومميزات الكهولة
وقارها وهبتها ، وأنت بصبغة شعرك قد قلبت سنن الطبيعة ومسخت نفسك
فأضعت وقارك وهيتك دون أن تكسب جمالًا ولا فتوة .

إني ما رأيت أتفه منك مخلوقًا ، تضع ثلثة أرباع يومك في أحاديث تافهة ،
ومصالح الناس معطلة .. لا هم لك إلا الشكوى من امرأتك ومن حالتك : فلان
باشا كان زميلك ، وفلان يبه أضحي وكيل وزارة ، وأنت ما زلت رئيس قلم ..
احمد الله لأنك أصبحت رئيس قلم ، تور الله في برسيمه ، ماذا كنت تريد أن
تكون أكثر من ذلك ؟

ورأيت الرجل قد اصفر وجهه وفغراه من فرط الدهش ، وأصبح من فرط
الذهول لا يكاد ينطق ببيت شفة ، وكأنه على حد قولهم « قد نزل عليه سهم
الله » فهضت ببساطة وغادرت الحجرة في سكون كأننى لم أفعل شيئًا .
جلست إلى مكتبى ونظر إلى جارى ليسألنى عن حالة البيه .. فأجبتة
مبتسما : أحسن .

وبدأت أقلب في الدوسيهات المحتشدة على مكتبى ، دوسيهات مكتظة
بالأوراق .. مليئة بالتعقيد والحشو واللغو .. وكلها مصالح معطلة .. تنسكع في
دروب الروتين الحكومى وحواريه .. تظل تلف وتدور حتى ينهكها التعب فترقد
في ملفاتها .

ونظرت إلى ركن الغرفة ، فوجدت أكوامًا من الملفات قد خيمت عليها
العناكب وعلتها الأتربة .. كلها مصالح أناس قد أنهكها الروتين الحكومى
فرقدت في غيبوبة .

ولأول مرة أحسست بمرارة ، وتملكنى هم وأسى ..

وهذا والله هو الداء المستعصى والعلة المستحكمة . هذا هو السرطان الذى لا أمل
للأمة في الشفاء منه .

هذا البطء المميت فى الأعمال الحكومية ، وفى قضاء مصالح الشعب الذى يتناول الموظفون أجرهم من قوته .

إن أكثر ما يحز فى النفس هو أن العلة لا علاج لها ولا أمل فى البرء منها ، لقد قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعيت من يداويها

ولكنى أعتقد أن الشاعر لو عاش فى زمننا هذا لا سبديل بالحماسة الحكومة وقال :

« إلا الحكومة أعيت من يداويها » .

إن الآلة الحكومية ، تسير كالسليخة تسكع وتتهادى وتغفو وترقد .

آلة خربة عتيقة ، محطمة مهشمة ، مركبة على قاعدة من السخافات والتعقيدات ، يديرها أناس كأنهم تنابلة السلطان ليس لهم فى العمل رغبة ولا دافع ، كأنهم فى سخرة .. ليس هناك منهم من يحس بحقيقة واجبه . هذا هو أحد الملفات الراقدة أمامى ، لننظر ما به .

إنه ملف « السيدة زهرة عبد الحميد » زوجة المرحوم « إبراهيم أفندى عبد الواحد » الموظف بوزارة الأوقاف .

هذه المرأة تطلب تنازل الحكومة عن نصيبها فى معاش زوجها الراحل لأن كل ما سيبقى لها من المعاش هو أربعة جنيهات ، ولم يترك لها الرجل أى ريع تعيش منه سوى معاشه .

الملف منتفخ ، حاشد بالأوراق ، مكتظ بالتأشيرات والإمضاءات ، وكيف لا ينتفخ وقد مضى على طلب المرأة سنتان ، والدوسيه يتهدى بين أروقة الوزارة ويغفو فى الأدراج ويرقد على المكاتب ، وفتحت الملف وقرأت آخر — تأشيرة — أنعم عليه بها فكانت كما يلى « يرفض الطلب لأن ميزانية الدولة لا تتحمل كل هذه الأعباء » ..

يرافق ، هذا والله منتهى الإخلاص لميزانية الدولة ، ترى ماذا كانت تفعل ميزانية الدولة لو لم يتح لها الله مثل هذا الحارس الأمين الذى يخشى أن يرهقها بالجنبيين اللذين كانا على وشك أن ينتزعا منها ويتركاها خربة خاوية ؟! هذا الحارس الأمين الذى رفض أن يسمح بالجنبيين لأرملة « إبراهيم أفندى » ، لكى تستعين بهما على الحياة — يفرض أنها ما زالت على قيد الحياة —

ترى أين ذهبت هذه الأمانة وهذه الشفقة بميزانية الدولة عندما وافق منذ بضعة أيام على صرف ألفين من الجنهيات لأرملة المرحوم فلان باشا !!!
أغلب الظن أن ميزانية الدولة لا توجعها إلا الجنهيات القلائل ولا ترهقها إلا المبالغ التافهة ، أما هذه الآلاف التى تندفق فهى أحمال خفيفة لا تثقل كاهلها ، ولا تنقض ظهرها .

ولقد تركت أنا الملف يأخذ غفوته النهائية على مكتبى ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟

أجل .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل ، قبل أن أتناول جرعة الشجاعة ؟
لا شيء ، ليذهب الملف وصاحبه إلى حيث ألفت .

أما الآن ، وقد أضحيت رجلا شجاعا ، فقد أحسست أن الأمر يختلف تمام الاختلاف ، وأنه يجب على أن أفعل شيئا .

ولم يطل التفكير حتى فتحت الملف وبدأت أكتب مذكرة جديدة بالموضوع لرفعها إلى صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر .

وانتهيت من كتابة المذكرة وأعدت قراءتها لنفسى راضيا مسرورا ، وكان بها ما يلى :

مذكرة

« مرفوعة إلى حضرة صاحب السعادة الوكيل لإعادة النظر فى موضوع تنازل الحكومة عن نصيبها الذى تستحقه من معاش أرملة المرحوم إبراهيم أفندى عبد الواحد » .

« رفضتم سعادتكم طلب الأرملة المذكورة لأنكم لا ترغبون في إرهاب ميزانية الدولة ولا نشك أن التأشيرة قد حدثت خطأ ، أو هي نوع من السهو أو زلة القلم لأن المعروف عن سعادتكم ، أنكم من غواة إرهاب الميزانية ، وأنكم تتحينون الفرصة — للبعثرة — في أموال الدولة ، وليس أدل على قولنا هذا مما يأتي :

١ — سعادتكم ، أول عبء يرهق ميزانية الدولة. ، فأنتم ولا شك تعرفون مدى جهلكم بالشئون المالية ، وتعرفون أدوار الاستثناءات التي مررت بها ، وتعرفون أنكم لم توضعوا في مركزكم إلا لعلاقتكم بمن تعرفون .
والتي لولاها لكنتم ما زلتم تغطون في الدرجة السادسة كغيركم من عباد الله الموظفين .

٢ — سعادتكم تجيدون — البقششة — من أموال الدولة ، والإغداق على الأقارب والمحاسيب .

٣ — سعادتكم تحبون جدًا صنع المعروف في بعض الجهات ولبعض الناس بشرط أن يكون هذا المعروف من ميزانية الدولة ، وبشرط أن يكون مرهقًا لها .
وعلى ذلك فقد أدهشتنا جدًا تأشيرة سعادتكم التي تقولون إنكم لا تحبون أن ترهقوا الميزانية ، ولهذا أعدناه إلى سعادتكم للتكريم بإعادة النظر عسى أن يكون ما زال لديكم بقية حياء .»

ثم وضعت الملف جانبًا ، عازمًا أن أرفعه بنفسى إلى سعادة الوكيل المذكور .. وأسكت بملف آخر ، لم يكن أقل من الآخر انتفاخًا ، وبدأت أقلب فيه . فلم أتمالك نفسى من الضحك .

هذا الملف قد وصل هو الآخر إلى حالة اليأس ، وأضحت وقفته في مكتبى وقفة شتريه .

ماذا به ؟ مسألة هينة جدًا ، في غاية التفاهة ، ومع ذلك فالقواعد الحكومية ؛ لا يمكن أن تتجاوز عنها .

الملف لأرملة أخرى ، لكنها لا تطالب باستثناء ولا تنازل ، بل تطلب حقًا لها . يجب أن تأخذه .. إنها تطلب المكافأة القانونية التي يجب أن تصرفها الحكومة بمجرد وفاة زوجها ، حتى تتمكن بواسطتها من العيش ، هي — ولا شك — فقيرة وفي أشد الحاجة لهذا المبلغ من المال . ومع ذلك فقد مضت سنة ونصف على وفاة زوجها دون أن تقبض شيئاً .

لماذا ؟ الأمر بسيط جدًا ، وسخيف جدًا .
لأن الأوراق التي كان ينقصها بعض الاستيفاء ، تمت كلها ما عدا أمرًا واحدًا ، وهو اسم المأذون الذي عقد قران الأرملة المذكورة على زوجها المرحوم منذ ثلاثين عامًا على الأقل .

أى والله هذا هو السبب !!
ولقد استمر الملف راقداً .. سنة ونصفًا ، وسيرقد إلى ما شاء الله حتى يعرف اسم المأذون !؟

يا للسخف ! إني والله مخلوق سخيف جبان .. أو هكذا كنت ؟
وفتحت الملف وأمسكت القلم وكتبت في إحدى الأوراق ، اسم المأذون أحمد إبراهيم على .

أى اسم !! ماذا يضرني لو كتبت من زمن مضى وأنتهت المسألة ، وساعدت المرأة المسكينة على صرف النقود .. من الذى سيناقشني في اسم المأذون ؟
وهكذا شمرت عن ساعد الجد وعزمت أن أكون شجاعًا في عملي ، وعلى أن أنهى كل هذه المسائل المعطلة وأدفع بمصالح الناس الراقدة على المكاتب وفي الأروقة .

وأخذت أعمل بمجد ونشاط حتى خطر لى فجأة خاطر أوقفنى عن العمل .
ما قيمة أن أنجز هذه المصالح ثم تتعطل بعد ذلك عند الرؤساء ، وحتى لو تجاوزت هؤلاء الرؤساء فلا شك أنها ستأخذ نومة طويلة في مكتب الوزير .
أجل .. إن معظم هذه المسائل ستعرض على الوزير ، ومن يدري ربما حوّلت (أرض النفاق)

على مجلس الوزراء ؟

وشرد ذهنى بين الوزير وبين مجلس الوزراء أو ما يسمونه الهيئة الحاكمة .
هذه فى مصر هى اللعبة الكبرى ، واللاعبون فيها هم السياسة .. أما الجمهور
المتفرج فهو الشعب التعس .

هذه اللعبة ، لعبة الحكم والحكام ، وما يتبع ذلك من انتخابات وبرلمانات
وأحزاب سياسية ، هى شر ما ابتليت به مصر !!
إنها العقبة الكئود ، والأغلال الثقيلة ، التى تعرقل سير الأمة وتثقل كاهلها .
ما هى السياسة فى مصر ، وما هى الأحزاب ؟ هل جنت مصر منها شيئاً أم
جنت هى على مصر ؟ .

السياسة فى مصر .. هى الحرفة التى توصل إلى الحكم ، والأحزاب هى فرق
تتبارى وتتسابق فى الوصول إلى الحكم ، والحكم مفروض فيه أن يكون الوسيلة
لقيادة البلد والنهوض به والعمل على رخاء الشعب ، ولكن الحكم فى هذا البلد
ليس وسيلة لشيء ، اللهم إلا رخاء هذه الفرق السياسية المسماة الأحزاب ، أما
رخاء الشعب وقيادته وإصلاحه والنهوض به فتلك أشياء ، قد لا تأتى فى أذهان
الحاكمين إلا عرضاً ، أو لا تأتى أبداً .

هذا البلد لا يحتاج إلى شيء كحاجته إلى الاستقرار .. استقرار وهدوء توضع
فيه المشروعات التى تؤدى إلى رخاء الشعب .. ثم تنفذ فى صمت وسكون وفى
عقل وحكمة .. بلا تهريج ولا ضوضاء ولا شغب .. ولا دعاية ولا حفلات ولا
زينات .. بل تحدد الأهداف التى سنصل إليها ، والطريق الذى سيوصلنا ،
والزمن الذى يستغرقه الوصول . ثم نسير فى طريقنا قدماً .. بلا تلكؤ ، ولا هزل ،
ولا عث .

ولكن كيف يمكن الوصول إلى ذلك الاستقرار ، وفى بلادنا فرق تتبارى فى
لعبة الحكم الكبرى ، واللعبة تحتاج إلى تصفيق وصفير .. وتنطيط وشقلبة !!
كيف يمكن الاستقرار .. وهذا الفريق ينقض ما أبرم ذاك .. ويحل ما ربط ،

ويربط ما حل .. ويؤخر ما قدم ويقدم ما أخر !! وهكذا نجد أنفسنا دائماً بفضل جهود الأحزاب السياسية التي تتوالى على الحكم كأننا « يا بدر لا رحنا ولا جينا ». كيف يمكن الإفادة من المشروعات .. إذا كان غرضها الأساسي .. هو الدعاية والمحافظة على كراسي الحكم ، والحصول على هتاف الشعب لا على فائدته ؟

كيف يمكن الوصول إلى الاستقرار إذا كانت اللعبة الكبرى قد تحكمت فينا ، وسيطرت على عقولنا ؟!

تبدأ اللعبة الكبرى .. بتلك المهزلة المسماة بالانتخابات .. والتي لم تحدث قط في أى عهد من العهود .. منذ بدأنا حياتنا النيابية .. أن سلمت من أن ترمى بالتزوير والغش .

ومهزلة الانتخابات عندنا شيء ظريف يبعث التسلية في نفوس الجماهير ، والفرق خلالها تنشر أفرادها بين الجماهير ، ويلقون اليفط كأنهم أصحاب سيرك .. ثم يخطبون في الجماهير .. قائلين كلاماً « يموت من الضحك » يتلخص في أنهم .. أى أفراد الأتيام (سيجعلون السماء تمطر ذهباً وفضة) . وهكذا يروح الشعب كأنه في مولد .. وهو شعب « هليلي » يجب التفاريح ، ثم يحين وقت الانتخابات فيجرى رجال الإدارة بمعرفتهم .. بصرف النظر عن رغبة الجماهير .

وتظهر نتيجة الانتخابات فإذا تيم من الأتيام قد نال كل الأصوات والباقي لم ينل شيئاً .

وتتم بعد ذلك بقية اللعبة .. فيبدأ مجلس النواب .. في الظهور واللعب ، ويتكوّن معظمه من أفراد تيم واحد بينهم بضعة أفراد من الأتيام الأخرى . إما أن يشتموا ويقاطعوا من أغلبية المجلس وإما أن ينسحبوا .

وعمل مجلس النواب الأساسي هو التصفيق بحماسة لكبار أفراد التيم ، أو كما يسمون التيم الأول ، وهم الوزراء وعلى رأسهم صاحب الدولة كابتن التيم .

مجلس النواب ليس عليه سوى التصفيق بشدة . والموافقة على طول الخط .. والإعجاب والتقدير لأى عمل ، وكذلك الإعجاب والتقدير للعمل الذى يناقض هذا العمل بدون أى خجل ولا استحياء .. ما دام الكاتبين يريد ذلك .. وماذا يضيرهم من الإعجاب والتقدير ؟ ما دام فى هذا الإعجاب والتقدير ضمان لبقائهم ، وبقاء تيمهم .

فإذا ما تركنا « السكندتم » فى تصفيقه وتهليله وانتقاله إلى جدول الأعمال ، ثم التفتنا إلى « الفرست تيم » ، وقد انهمك فى اللعب .. لعب الحكم .. راعنا ما رأينا .

التيم حائر قلق .. يخشى على نفسه من الأتيام الأخرى التى أخذت تضع له العقبات و « الخوازيق » وتهتف بسقوطه ، وأفراده منهمكون فى قضاء مصالحهم والعمل على رخاء أنفسهم والأقربين إليهم ، ثم يفرعون فجأة على صوت ضجيج الشعب الساخط فيتظاهرون بالعمل لمصلحته محدثين فى مظاهرهم أكبر ضجة وأكبر دعاية ، محاولين استرضاءه بوسائلهم الجوفاء .. ومشاريعهم الشبيهة بالطليل .

والشعب بين الأتيام ضائع حائر .. منصرف بكليته إلى مشاهدة اللعبة .. متلهف على التغيير والانقلاب .. يجب أن يسقط هذا ، ويرتفع ذاك .. ثم يسقط ذاك ويرتفع هذا .. لمجرد التسلية .. والمشاهدة .. يشاهد أحد الأتيام فى اللعب .. فيسخط عليه ويكرهه ويطلب إخراجه من الميدان . فإذا ما بدأ التيم الآخر فى اللعب .. عاد إلى سخطه وطلب الأول .. ونسى كل ما كان من أمره ، هو شعب طيب ، سهل الخداع ، سريع النسيان ، حائر بين هذا وذاك .. لأن هذا شهاب الدين .. وذاك أخوه .

كيف يمكن الاستقرار إذاً .. وهذه اللعبة تسيطر على العقول وتشغل الأذهان ؟ .. كيف يمكن الاستقرار ، ومحترفو السياسة مغفلون فى البلد مسيطرون على دفة أمورها ؟

وأخذت أجهد الفكر في طريقة تخلص البلد من ساستها ، ومن أتيامها ، ومن لعبتها الكبرى .. من حكم وانتخابات ونواب .. إلخ .
وخطر لي فجأة خاطر عجيب .. وفكرة مدهشة .
لِمَ لا نحاول أن نفصل لعبة الحكم عن الحكم فعلا ؟

إن السياسيين والأثيام والجماهير لا غنى لها أبداً عن لعبة الحكم . لا بد من أحزاب وقيام وزارات وسقوط وزارات وكل ما ينتج عن ذلك من ضجيج وتهريج وإشاعات ودعايات .. هذا كله لا يمكن أن يستغنى عنه البلد .. فلك أشياء مسلية جداً وحرام أن نحرّم الشعب مشاهدتها .

ولكن ما الداعي لأن نربط بينها وبين مصلحة البلد ؟
لِمَ لا نجعل التسلية شيئاً والمصلحة شيئاً آخر ؟ لِمَ نحاول أن نربط بينهما ..
فتضيع مصلحة البلد ؟

أجل .. والله إنها لفكرة هائلة .

نبقى الأحزاب كما هي .. والبرلمان كما هو .. وكل شيء كما هو ، ولكننا نجعل عملهم مجرد لعب ولهو وتسلية . فلتجر الانتخابات ولتؤلف الوزارات ولتعقد البرلمانات .. ولتستمر لعبة الحكم كما هي .. على ألا تكون أية صلة بينها وبين الحكم فعلا .

دعوا هؤلاء في لعبهم ولهوهم وتهريجهم وخطبهم .. دعوهم يتسابقون إلى الحكم .. دعوهم يتشائمون ويتخاصمون ، ويتبادلون التهم والسباب . دعوهم يفعلون كل شيء .. إلا شيئاً واحداً ، وهو الحكم .

يجب أن نضع في الحكم فعلا رجالا لم تلوثهم الأثيام ، ولم تلقنهم أصول التهريج ، ونفرض عليهم تنفيذ مشروعات معينة ، في مدة معينة .. على أن يقوموا في كل عام بتنفيذ الجزء الذي يجب تنفيذه خلال هذا العام .. ويقودوا نهضة البلاد في جميع الشئون : اقتصادية وزراعية وصناعية وعسكرية .. يعملون في صمت وسكون ، ويدعون الصياح والضجيج للأثيام المنهمكة في لعبة

الحكم .

واستحكمت في رأسي الفكرة وملأني منها إعجاب شديد ، ووجدت فيها الحل الأكبر لصلاح هذا البلد فهي تضمن مصلحة الشعب دون أن تضر بمصلحة محترفي الحكم والسياسة .. وسرعان ما أخرجت من أحد الأدراج ورقة بيضاء .. وبدأت أسطر فيها ملخص الفكرة .. عازما أن أعرضها على أولى الأمر . ومضت برهة ، وأنا أكتب وأشطب حتى انتهى بي الأمر إلى أن أصوغ المشروع في صيغة مرضية .. وتلوته بضع مرات ، ثم أخذت في تبليغه ، وانتهى بي الأمر إلى أن أصر على عرضه على الوزير مباشرة !

وماذا في ذلك ؟ .. إنه لا شك سيقدر الظروف التي دعنتني إلى التفكير في هذا المشروع .. « مشروع فصل الحكم عن لعبة الحكم » ، وهو لا شك سيقدر أن حاجة البلد تستدعي إخراج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ ، ثم إنه لن يضيره منه شيء .. فهو سيبقى وزيرا كما هو ، وسيبقى له الجاه والمظهر ، والعربة والسعاة ، وسيذهب إلى مجلس النواب ويتحدث بما تعود أن يتحدث به من سقط الكلام ، وسيبقى كما هو صاحب معالي . فماذا يريد أكثر من ذلك ؟

وهكذا اختمرت الفكرة في رأسي ، وسرعان ما نهضت من مكتبي حاملا ورقة المشروع متجهاً إلى مكتب الوزير .

وكان مكتب الوزير هذا يعتبر عندي من المناطق المحرمة التي لا أجسر قط على الاقتراب منها . فقد كنت أحس للوزير بهيبة وخشية .. لشدة ما وجدتها تنطير من نفسي ، وأنا أتجه إليه حاملا في يدي المشروع الخطير .

ودفعت باب المكتب ببساطة ودلفت إلى الداخل وتقدمت إلى صاحب المعالي ووضعت أمامه الورقة في سكون ثم أدت له ظهرى وغادرت المكتب عائداً إلى مكتبي كأني لم أفعل شيئاً .

وجلست على المكتب وانهمكت في إنهاء بقية الملفات المتأخرة ، ولكن لم تمض لحظة حتى وجدت البية « الرئيس » مندفعاً من حجرته كأنه الزوبعة وهجم

على يهزنى من كفتى صارخًا :

— أيها المجنون .. أنت الذى كتبت هذا ؟

ودفعته جانبًا مظهرًا فرط الشتم ترازى من غضبه وثورته ووقع بصرى على الورقة التى كتبت فيها المشروع إياه ، والتى تركتها منذ لحظات على مكتب معالى الوزير ولحت عليها تأشيرة بمضاء الوزير جاء فيها ما يأتى :

« يكشف على قواه العقلية » .

وعاد الرجل النائر يصيح بى :

أنت الذى كتبت هذا ؟

وأجبتة ببرود :

— أجل .. أنا الذى كتبت .. ماذا به ؟ .. كفر ١٢

— لا شك أنك جنتت .

واندفع الرجل عائداً إلى حجرته ، آمراً إياى بالانتظار حتى يتخذ معى الإجراء اللازم ، ولكنى لم أر من الصواب أن أنتظر حتى أرى هذا اللازم الذى بنوى إجراؤه معى وقلت : إن من الخير لى أن أغادر المكتب .. إذ لم يعد لى مقام بين هؤلاء المنافقين المداهنين .

ولم تمض برهة حتى كنت أنطلق فى الطريق عائداً إلى البيت ، ولكنى لم أكد أسير بضعة خطوات حتى التقيت بمظاهرة كبيرة حشد فيها جمع خفير من الطلبة يهتفون بضعة هتافات مختلطة .

ونظرت إلى الصبية وساءلت نفسى : ماذا يريد هؤلاء الحمقى !! وماذا يمكن أن يفيدوا أو تستفيد البلد من هذا العبث ؟ . وهممت بأن أوجه القول إليهم ناصحاً .. عندما أبصرت بحجر قد ارتفع واستقر على أحد فوانيس النور فحطمه ، ثم أبصرت بجمع من الرعاع قد اندفعوا إلى واجهة حانوت فحطموها وأخذوا يهبون البضائع التى بها .

وأبصرت بصاحبه الكهل ، وقد تكأكتوا عليه وأخذ هو فى الصراخ

والاستنجاد ، فاندفعت لنجدته وأمسكت بواحد منهم فألقيت به على الأرض .
وهنا أحسست باللكمات والضربات تنال على كالطر ، وصدق على المثل
« الكثرة تغلب الشجاعة » . فلقد تلقيت علقه .. لم أتناول مثلها في حياتي .
وأخيرًا تمكنت من الهروب .. عظم الأعضاء .. لا تكاد تخلو بقعه في
جسدي من كدم أو خدش .

ووصلت إلى البيت ، وأنا ألث من فرط الإعياء ، وقد ورمت إحدى عيني ،
حتى أحسست أني لا أكاد أبصر بها .
وتلقاني أخي عند الباب مرتاعًا وسألني :
— ماذا أصابك ؟

— الحقني .

وارتميت على الفراش ، وأنا أشير بأصبعي إلى فمي .
وعاد أخي يسألني في دهش وذهول :
— ماذا تريد . ماء ؟

فهزرت رأسي ، فعاد يسأل :
— أسبرين ؟

فأشرت بالنفي ، واستمررت على الإشارة بيدي إلى فمي ، ولم يفهم أخي
ماذا أريد .. فصاح بي وقد تملكه الذعر :

— تكلم .. ماذا بك ؟ ، ماذا تريد ؟

وأخيرًا استطعت أن أتكلم فقلت له لاهثًا :
— الحقني بشوية ..

— شوية إيه ؟

— شوية جبن .

(٦)

فضيلة الجبن

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره ..
إن أفضل خلق الله أجبنهم .

نظر إلى أخى فاغراً من الدهش فاه وهز رأسه متسائلاً :

— شوية جبن ؟

فأجبت بصوت خافت ضعيف :

— أجل .. إني لم أعد أحتمل هذه الشجاعة التى ستؤدى بى إلى التهلكة ..
لشد ما صدق الرجل قال إنها بضاعة خاسرة .. يوم واحد منها قد فعل بى
ما فعل .. فما بالك بالتسعة الباقية ؟ .. لا .. لا .. هذا كثير .. كثير جداً .. إني
لا أتصور ماذا يمكن أن يحدث لى فى بقية المدة لو انطلقت بين الناس على هذه
الحال ؟

وصمت برهة ثم أردفت متوسلاً :

— أرجوك .. أدركنى بجرعة جبن .. اذهب إليه وصف له حالى ..
استعطفه واسترحمه وقل له إني راقد على الفراش أشلاء محطمة وأعضاء مهشمة .
قل له إني على وشك أن أفصل من عملى .. وأن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على
قواى العقلية .. قل له ارحم المسكين التعس الذى دفعت به إلى بئس المصير
بفضل جرعة الشجاعة .. لا كنت ولا كانت الشجاعة .. قل له أن يبحث فى
قاع الأدراج وفى الشوالات الفارغة عله يجد بقايا جبن تذهب عنى الشجاعة

وتنفذنى من شرورها .. استعمل معه كل ما استطعت من وسائل الوعيد والتهديد .. قل له إنه سيكون مسئولاً عن كل ما يحدث لى خلال الأيام التسعة الباقية وأنى سأكون ضحيته .. وأنى سأبلغ النياية .. افعل معه كل ما يمكنك . اضربه .. أو توسل إليه .. ولكن ائتنى منه بمجردة جبن تذهب عنى شجاعتى وتعيدنى إلى ما كنت عليه .

ومضت فترة سكون .. لم ينس أخى خلالها بينت شفة فقد ارتج عليه من فرط الدهش وأخذ ينظر إلى نظرتة إلى أبله ذى جنة .. وبدأ لى أنه لم يستقر فى ذهنه غير قولى : إن الوزير طلب منهم أن يكشفوا على قواى العقلية وأنه لم يعد يشك فى أن بعقلى لوثة ، وأن كل ما قلته عن جرعة الشجاعة والجبن ليس إلا هذيان مخبول .. وأن ما بى من كدمات وضربات ناتج عن اشتباكى مع الناس وأنا فى حالة هياج . وهكذا أقنع أخى نفسه بأنه أمام مجنون خطر ..

ووجدته يتسم لى ابتسامة زائفة ستر بها ما اعتمل فى نفسه من الفزع والخوف على ، وأخذ يربت على برفق ويقول لى مهدئاً :

— نم .. نم .. استرح ، هدى من روعك .. سأحضر لك ما تريد من شوالاى الجبن ، فأنا معك أن هذه الشجاعة شىء خطر .. وأنها لا بد مؤدية بك إلى التهلكة .. اطمئن .. سأحضر لك الجبن بأية وسيلة .. فقط اهدأ .. واسترح .

ولم يكن فى قول أخى شىء يعث على الغضب ، فقد كان هو الرد الطبيعى على ما سألتة إياه .

لقد طلبت منه أن يحضر لى شيئاً من الجبن .. فأنبأنى أنه سيحضره ووافقنى على أن الشجاعة شىء خطر ، ومع ذلك استفزنى قوله ، أو على الأصح استفزتنى اللهجة التى أسر بها إلى قوله ، لهجة اللين المفرط والرقة المتناهية ، لهجة جعلتنى لأشك فى أنه يعاملنى كمجنون وأنه — على حد قولهم — (واخذنى على قد عقلى) .. وليس أدل على ذلك من أنه لم يحاول أن يتفاهم معى فيسألنى من أين

سيأتى بالجبن ؟ ..

ولا حاول أن يستفسر عن كيفية حصولي على جرعة الشجاعة كأن المسألة طبيعية جدًا .. وكأن حوانيت الأخلاق تملأ الميادين والطرق .. أو كأن الشجاعة يسرح بها الباعة على العربات .

ونظرت إليه في ضيق وحنق وسألته متهمًا :

— هل تعرف من أين ستأتى بالجبن ؟

— أجل .. أجل .. أعرف تمامًا .. لا تتعب نفسك كثيرًا .. إنها مسألة هينة .

وزاد في الخنق من هذا الأبله الذى يصبر على معاملتى كمجنون واستمرت على تهكمى منه قائلاً له :

— أنا أعرف أنها مسألة هينة ، ولكنى أريد فقط أن أتأكد من معرفتك لخانوت الرجل .

— يا أخى لا تتعب نفسك كثيرًا .. إن الجبن ملء الطرقات والأسواق وسأعرف كيف أحصل لك عليه .. وأخلصك من هذه الشجاعة التى مستودى بك .. ؟

وهنا غلى مرجلى ولم أعد أحتمل فصحت به غاضبًا :

— أيها الغبى السخيف . أية أسواق هذه المليئة بالجبن ؟ هل تظننى مجنونًا أخرف بما لا أعى ؟ كف عن هذه الموافقة الحمقاء على كل ما أقول .. واعلم أننى فى كامل عقلى ، وأنى فى حال طبيعية جدًا .. لم يطرأ على أى تغيير .. عدا ما أحدثته فى نفسى جرعة الشجاعة .. فأنا والأمر كذلك لست بمجنون .. قد تكون نتيجة الحاليتين واحدة .. وقد تتساوى الشجاعة فى هذا الزمن مع الجنون ، ولكنى أؤكد لك أنى أبعد ما أكون بمن الجنون

وكان أخى يهز رأسه موافقًا على كل ما أقول دون أن يحاول أن يفسد بنت شفة خشية أن أعود إلى حالة الهياج — كما كان يتصور — فأمسكت حديتى قائلاً :

— وهكذا ترى أن علاجى كائن فى جرعة جين .. لست أدرى إذا كنت ستجد منه عند التاجر شيئاً أم لا .. فقد أنبأنى أنه ليس لديه من هذا النوع من الأخلاق الرديئة ذرة واحدة .. ولكن من يدرى .. ربما كان لديه بعض منه وسط — الكناسة — القديمة . أو ربما كان لديه شوال منسى أخفى تحت بقية الشوالات ، على أية حال اذهب إليه .. وقل له : إن أخى — فلان الفلانى — الذى أخذ منك بالأمس شجاعة عشرة أيام ، قد جعلته فى يوم واحد راقداً بلا حراك .. وارم العين .. مشجوج الرأس ، تعارك — فى أربع وعشرين ساعة — مع حماته ، ومع سائق الأتوبيس ، ومع باشجاويش القسم ، ومع رجل يضرب امرأته . ثم قبض عليه بتهمة الصهيونية . واعتدى على رئيسه بالإهانة والسب . وتقدم إلى الوزير بمشروع كانت نتيجته أن طلب الكشف على قواه العقلية .. ثم تعارك مع بعض الرعاع فأكل منهم — علقه — لم يذق مثلها فى حياته .. كل هذا فى أربع وعشرين ساعة ، وهو راقداً الآن فى انتظار نجدة من الجبن — يا تلحقه يا متلحقوش — إن جانوت الرجل كائن فى آخر الطريق على يدك اليمنى .. بالقرب من شجرة الجميز الكبيرة . وهو رجل طيب جداً .. ولا شك أنه سيرق لى .. وسيرسل إلّى النجدة .

أما إذا لم تجد عنده للجبن أثراً .. فستكون — واقعة سودة — وسأضطر أن أحبس نفسى فى الحجرة حتى تنقضى العشرة أيام .. دون أن أتصل بأحد . كل ذلك وأخى يهز رأسه موافقاً ، على طول الخط .. وأخيراً قال فى لهجة مؤكدة :

— لا .. لا .. اطمئن ، إن شاء الله سأجد عنده مطلبنا ، إذ ليس من المعقول أن يكون قد نفذ .. لا بد أن يكون هناك — على حد قولك — شيء منه فى الكناسة .. أو فى قعور الأدراج أو الشوالات .. اطمئن واعتمد على كل الاعتماد .

وأخذ أخى ينسحب من الحجرة بانتظام حتى وصل إلى الباب فخرج فى

سكون وأغلق الباب خلفه ، وبعد لحظة سمعت صوت الباب يغلِق بالمفتاح .
يا للخائن .. الخادع .. لقد أغلق الباب علىّ إنه ما زال يعتقد أنى مجنون ،
ولقد وافقنى على ما قلت وتظاهر بتصديقى حتى يهرب ويسجننى فى الغرفة .
ووجدت أن المسألة ستزداد حرجاً .. وستطور تطوراً لن ينتهى بأية حال
إلا إلى أسوأ الأمور ، وأننى سأتهم بالجنون وسيحاولون معاملتى كأننى مجنون ،
ولا أظن هناك أبعث إلى جنون العاقل سوى أن يتهمه الناس بالجنون وأن يؤولوا
كل أفعاله وأقواله إلى أنها صادرة من مجنون ، ولن يعدموا بعض ما يبرر لهم
ظنونهم .. فلا أظن هناك فارقاً كبيراً بين الإنسان فى حالة الجنون أو فى حالة العقل ..
ولا أظن هناك حدوداً معروفة فاصلة بين الجنون وحالة العقل .. إذ ليس هناك
مقاييس للعقل تجعلها مستوى للمقارنة .. فالمسألة .. كلها مسألة نسبية ،
والعاقل فى قوم مجانين يتساوى مع المجنون فى قوم عقلاء ، ومن منتهى العقل منتهى
الجنون .. فأعقل الناس أشدهم نبوغاً ، وأشدهم نبوغاً أكثرهم جنوناً .
وهكذا سأجد نفسى متهماً بالجنون .. ويزيد الطين بلة هذه الشجاعة التى
تملأ نفسى .. فلو كنت على حالتى الأولى من الجبن .. لاستطعت بسهولة أن
أثبت لهم صحة عقلى ، بمختلف أنواع النفاق والرياء .. ولاستطعت أن أداريهم
وأسايرهم وأتبع معهم اللين ، والسياسة ، والمكر ، والدهاء ، أما وأنا على ما فى
من شجاعة وجرأة وصراحة ، فالله وحده يعلم ما سينتهى به أمرى معهم .
وأخذت أفكر فى حل ينقذنى مما أنا فيه ومما أوشك أن أقع فيه .

أين المخرج ؟ كيف النجاة ؟

هذا الأحق الذى أغلق الباب علىّ ، ولم يعد لى فيه أى أمل لكى يذهب إلى
الرجل ويحضر لى جرعة الجبن .. فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أننى مجنون ، وعلى
ذلك لم يبق أمامى سوى الاعتماد على نفسى .. و « ما حك جلدك مثل
ظفرك » .

أجل يجب أن أسرع بالفرار قبل أن يسرى فى الدار نبأ جنونى .. وقبل أن يطبق

علّى القوم .. ويضيّقوا علّى الخناق يجب علّى أن أتحمّل على نفسى وأسرع إلى الرجل .. وأريه ما قد وصلت إليه .. وأقنعه بأنّى لم أعد أحتمل أيام الشجاعة الباقية ، وأتوسّل إليه أن يعيدنى إلى ما كنت عليه من الجبن .
وكان من العبث أن أحاول الخروج من الباب .. فقد أحكم أخى غلقه ، وكانت أية محاولة أبذلها ستثير ضجة تنبه أهل الدار .. وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى النزول من الدارة .
النزول من النافذة؟! .. أنا أفكر فى النزول من نافذة الحجرة الكائنة فى الدور الثانى ؟.

ولم لا ؟ .. هذا شيء كان يتعذر علّى عمله فيما مضى . أما الآن .. وأنا الرجل الشجاع .. فلا أظنه بالمتعذر علّى النزول من نافذة الدور التاسع .
وهكذا لم تكّد تمضى برهة قصيرة على خروج أخى حتى كنت قد امتطيت النافذة .. كأنى « طرزان » وبدأت أهبط متسلّقا عمود الشرفة أسفل الحجرة متكئا بيدي على كورنيش يحيط بالعمود ، ولم أكن أشك أن المسألة ستنتهى على خير حال ، وأنى سأصل إلى الأرض سليما .. حتى بدأ الكورنيش يتهاوى تحت يدي فإذا بيدي تفلت ، وإذا بى أقطع بقية الطريق إلى الأرض فى لمح البصر .
سقطت على الأرض ، وكانت السقطة — سليمة — بإذن الله ، ولم يحدث لى منها إلا التواء بسيط .. فى القدم ، سبب لى بعض العرج .. وخرجت من الدار متسللا وأنا — أذك — بقدمى .

ولم أكّد أعادر الباب .. حتى وجدتها؟! ..
من ؟ هى .. هى بعينها أو بعينها وشفتها ونهديها .. وساقها ؟ هى جارتى ..
أو جارة الوادى .. أو جارة السوء ، التى طالما أقضت مضجعى وأهبت عواطفى وأهاجت مشاعرى .

جارتى التى لا ترحم .. جارتى التى طالما هفت بها : يا جارتى لو تعلمين بحالى .. جارتى التى أعلنتها علّى حربا شعواء .. ونصبت لى من عينها مدفعى

برن .. سريعى الطلقات .. لا أكاد أقف فى النافذة حتى ينهال علىّ منها وابل من النظرات شديدة الفتك محكمة التصويب لا ترضى بغير القلب هدفها .. أما شفتاها فقد جعلت لى منهما قاذفات للهب .. شفتان حارتان ملتہتان .. يحس لہبہما من بعد .. ما نظرت لہبہما إلا وأحسست بلسعة ، وكأنى بہما لو مستہما قطرة ماء — لطشطشت — وتبخرت أو مستہما شفاه أخرى — لبقبت — واحتترقت .

أما صدرها فقد ركبت به قنابلها الشديدة الانفجار .. قبلتين قد رفعت عنہما طابة الأمان .. فہما عرضة للانفجار فى أى لحظة لا باللمس .. بل بمجرد النظر .

أما الساقان فقد كانتا من نوع ذرى لم يكشف عنه بعد ، ولا جرب أثره ، ولكن مجرد التلويح به .. كان كافياً للانہيار والتسليم .

لقد وجدتها أمامى .. جارقى المسلحة .. التى طال هجومها علىّ .. واشتد حصارها حولى وأنا صاغد أمامها .. لم ينهد لى حصن .. ولا دكت لى قلاع .. أدافع وأقاوم وأصد الهجمة تلو الهجمة .. مستعيناً فى دفاعى بشيء واحد هو الذى أعاننى على المقاومة ، وهى ألى الدفاع .. شيء واحد هو الذى صد عنى كل تلك الغارات والهجمات .

أى شيء .. ذلك الذى أعاننى وهى ألى المقاومة ؟ الضمير ؟ أبداً .. فالضمير شيء لا يستيقظ إلا بعد أن تقع الواقعة وتم الهزيمة .. فيبدأ وخزه وتأنيبه الذى لا جدوى فيه ولا فائدة منه .

حب الفضيلة ؟ لا تكونوا سخفاء .. فتذكروا أشياء وهمة لا وجود لها فى عالم الحقيقة .. واذكروا قول الشاعر :

مررت على الفضيلة وهى تبكى

فقلت علام تنتحب الفتاة ؟

قالت كيف لا أبكى وأهلى

جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

إذن أى شىء ذلك الذى أعانى على المقاومة ؟ والدفاع ؟ حتى لا أسقط
متداعياً أمام جارتى المسلحة .

إنه الجبن !!

أى والله الجبن !!.. لا تدهشوا ، ولا تنكروا علىّ قولى .. فكلنا ذلك
الرجل .

حيا الله الجبن .. فما رفع منار الفضيلة غيره .. إن أفضل خلق الله أجبنهم .
كيف ؟.. الناس من حيث رغبتهم فى النساء نوعان .. نوع زاهد فاضل ،

ونوع مستهتر مهتك .

والنوع الفاضل نوعان .. نوع فاضل حقاً ، ونوع مخادع يعرف كيف يستر
آثامه فيبدو أمام الناس فاضلاً .. وهذا النوع الأخير يستوى مع المستهتر
المتهتك .. بقى أمامنا النوع الزاهد الفاضل حقاً .. ما هى علة زهده وفضيلته ؟.
أمر واحد .. هو جبنه وخوفه من أن يفتضح أمره .. أترى لو أتيتحت لأحد من
هؤلاء الزاهدين الأفاضل فرصة أن يتمتع نفسه بإحدى حوريات الجنان وسهلت
له المسألة بحيث لا يفضح أمره ولا يعود عليه منها أى ضرر أو عاقبة .. هل تراه
يقاوم أو يتورع ؟!

لقد كانت جارتى العزيزة التى يجرى فى عروقها ماء الشياطين تهاجمنى بلا رفق
ولا هوادة .. وكنت دائماً أتقى هجومها بدرع حصينة من الجبن .
أقف فى النافذة .. فأجدها على أهبة الهجوم ، ويبدأ هجومها دائماً بخلع
الفستان .. ثم يستمر بعد ذلك بطريقتين : الطريقة الأولى الجمباز ، والثانية
طريقة القراءة ..

أما الأولى .. فالجارية العزيزة اللذيذة .. لا تكاد تخلع الفستان .. حتى
تتوارى وراء « برفان » قصير لا يبدو منه سوى رأسها وكتفها .. ثم تنهك فى

خلع بقية ملابسها وهى تنعم على بين آونة وأخرى بابتسامة تبل حرارتي وتهدي من نائرتي .

وبعد لحظات تخرج إلي وقد ارتدت — شورت — وبلوزة حرير .
وتبدأ الجارة بعد ذلك في اللعب والقفز والانحناء والالتواء .. مسلطة على ما لديها من أسلحة وقنابل ومدافع .

أما الطريقة الثانية .. طريقة القراءة .. فهى لا تكاد تخلع فستانها حتى تستلقى على الفراش وتأخذ في القراءة ، وهى فى قراءتها لا تقرأ كبقية عباد الله .. بل تتقلب وتتولى وتثنى وتمطى ، ثم تلقى بالكتاب فترة تمسك بقطعة صغيرة تحتضنها وتقبلها .

ولا أجد أنا فى النهاية خيراً من الانسحاب من النافذة عائداً إلى قواعدى سالماً أو غير سالم .

كانت الجارة ولا شك تستدعيني ، ولم يكن هناك أحب إلي من أن أسلم إليها نفسى رافعاً الراية البيضاء ، ولو لم يكن بنفسى رغبة فيها وتشوق إليها لأغلقت النافذة وكفيت نفسى شر القتال ، ولما تركت رابضاً وراء النافذة أصلى نيران العيون وهب الشفاه .

كنت أقاوم بالجبن .. كنت أقول لنفسى : إن هذه مسألة خطيرة ، وإننى رجل متزوج ، وإن من العبث أن أعلق نفسى بمتعة تحيطها الأشواك ، وأنه قد يرائى فى رفقة الجارة أحد معارف السوء — وما أكثرهم فى مثل هذه الظروف — فتبلغ زوجتى ، أو قد يرائنا أحد الجيران فينشر أمرنا ثم ما النهاية ؟ إما متعة زائلة ، تنتهى بالملل ، وإما علاقة دائمة وفيها شر مستطير .. لا .. لا .. إن من الخير .. أن أتقى شرها وأنأى بنفسى عنها .

وهكذا كان الجبن .. وخشية العواقب تلبسنى درعاً من الفضيلة .
أما اليوم ، فقد ذهب الجبن ، وتبددت من نفسى خشية العواقب ، وهملوت تلك الدرع الزائفة من الفضيلة ، فماذا أفعل !!؟

(أرض النفاق)

كانت تقف أمامي في الشرفة وقد ارتدت ثوبًا من الحرير الأبيض ذا كم جابونيز كشف عن ذراعها وعن جزء كبيره حوله ، وقد تهدل شعرها وانساب على كتفها وبرز صدرها حتى فسرت كل قطعة به .

ونظرت إليّ الجارة الفاتنة وابتسمت ، وسرعان ما تحولت ابتسامتها إلى قهقهة عندما رأته — أذك — بقدمي ثم أشارت إليّ بقبلة من أطراف أصابعها . ولو كنت في حالي الطبيعية لهرولت في مشيتي هاربًا خشية عيون الجيران وألستهم .. ولكني ، والشجاعة تملأ نفسي ، لم يسعني إلا أن أرد على تحيتها بأحسن منها ، وأرسلت لها قبلة طرقت في الهواء .

ودهشت الحسنة من تلك الشجاعة التي حطت عليّ فجأة وهزت رأسها متسائلة كأنها تسألني : « إيه جراك » ؟ فأشرت بسبابتي إلى رأسي ، وهزرت أصابعي بحركة مستديرة قاصدًا أن أقول لها : « جنتيني » ! وانطلقت منها ضحكة أخرى نزلت عليّ بردًا وسلامًا .. وأشارت بيدها كأنها تقول « تفضل » .

مرة واحدة !! .. ترى كيف أستطيع أن أرفض دعوة الحسنة بالفضل ! ورفعت لها يدي إلى رأسي بمعنى « متشكر » .. ولكنها كررت الدعوة . فرفعت سبابتي وإبهامي — كأني أبرم بهما شواربي — وهزرت رأسي متسائلًا : هل يوجد لديك رجل ؟ .. فهزت رأسها بالنفي .

وملاغتي النشوة .. ورأيتني أندفع نحو دارها ، لا يقف في طريقي جبن ولا تقدير عاقبة ولا خشية نتيجة .. لقد استسلمت سريعًا أمام هجوم المرأة .. وانهارت مقاومتي .. فرفعت الراية البيضاء . لقد هزمتني شجاعتي شر هزيمة .

واندفعت إلى دار الحسنة .. أعرج الساق .. وارم العين ممزق الثياب ، غير آبه لما أنا عليه من — بهدلة — و — قلة قيمة — ولو كان لي بعض الجبن لتريث طويلا قبل الاندفاع فما كنت أجسر قط أن أبدو أمام حسنة ، بهذه الهيئة المشينة

والشكل المزرى .

ولكن اشتياقي إلى الحسناء مضافاً إلى الجرأة المستحكمة في نفسي لم يتركألى
الفرصة أن أفكر فى شكلى أو فى ساقى العرجاء أو فى عيني الوارمة ، بل كان كل
همى هو اقتناص اللذة العابرة والفرصة السانحة متمثلاً بقول الشاعر :

وانهب من اللذات جهدك واعلمن .

أن القبور عديمة اللذات
علام الزهد والتقى والورع ؟ أزهد على ظهر الأرض وفى باطنها ؟ أتقى فى
الحياة وفى الممات ؟

لا تضق همًا بأمس وغد
أمس ولى وغد لم يولد
· ويلنا إن ضاع يومى من يدى
عاطلاً من زينة اللهو وما
صقلت أطرافه شمس المدام
وهكذا ازدحمت فى رأسى كل فلسفة الخيام ، ووجدتني بعد لحظة .. أصعد
سلم الدار .. وأقف أمام الحسناء وجهًا لوجه .
من يصدق هذا ؟ .. أنا الرجل الفاضل الزاهد .. الجبان .. الرعيد ، أقتحم
دار الحسناء ، وأجلس وإياها فى حجرة واحدة ، وقد كان أقصى ما أستطيع فعله
هو استراق النظر من النافذة !

وجلست وإياها وقد تلاصق جسداًنا ونرى منهما تيار أشبه بالتيار
الكهربائى ... وبدأت أملئ البصر منها من قرب ، وأحقق فى الأسلحة التى طالما
صوبتها لى وأصلتني بنيرانها .
ورأيتني مغالياً فى خشيتي منها ، ووجدت البعد والحرمان قد بالغاً فى تأثيرها ،
وأضفيا عليها روعة .

لا جدال فى أن المرأة كانت جميلة ، ولكنها ليست بذلك الإفراط الذى كنت أتوقعه منها .

إن شفتيها أو قاذفات اللهب .. لم يكونا كما خيل لى من السخونة والحرارة .. أو على الأصح كانت سخونتهما مبعثها لإصبع الأحمر الذى رسمهما بإتقان ، وهى سخونة .. باردة زائفة .. الفرق بينها وبين سخونة الشفاه الحقة .. كالفرق بين صورة اللهب ، واللهب نفسه .

وأبصرت مدفعى « البرن » من قرب .. فإذا بطلقاتهما « فشتك » مجرد طرقة فى الهواء ، ولا إصابة .. وإذا بالريميل يبدو واضحاً فى جفونهما .

لقد وجدت المرأة المسلحة .. أسلحتها بعيدة المرمى .. إلا على بعد ، ولكنى لا أنكر أنى كنت أتحرّق شوقاً إليها ورغبة فيها ، فهى كما قلت امرأة حسناء .. عارية الأذرع ، متهدلة الشعر ، ناضجة الجسد ، وأهم من هذا كله .. ليست زوجتى .

قد جمعتنى وإياها حجرة واحدة .. ولم يكن الشيطان ثالثاً .. لأنه كان أحدها .

وبدأنا الحديث ناعماً رقيقاً ، وكانت الشيطانة — خفيفة الدم — فسرعان ما رفعت الكلفة بيننا .. وأحطت الحسناء بذراعى ، وضممتها إلى صدرى .. وأحسست بجسدها ليناً دافئاً ، وتملكتنى نشوة جارفة .. وعجبت لنفسى كيف استطعت الصبر طوال تلك المدة التى طالما استدعتنى الفاتنة خلالها ، وكيف وقف الجبن امامى سداً منيعاً يصدنى عنها ؟

ولم تمض لحظة حتى التقت منا الشفاه ، ووصل إلى أذنى همساتها الرقيقة ، وأصوات أخرى آتية من بعيد .

أصوات ما أبعداها عن همسات .. أصوات جعلتها إلى أذنى نافذة الحجرة المقابلة .. حجرتى أنا .

أجل . لقد عاد أهل الدار إلى حجرتى ليطمئنوا على بعد أن أنبأهم الأخ العزيز بخبر جنونى ، فوجدوا أننى قد هربت من النافذة .

وأصخت السمع .. مرهقًا أذنى ، وكانت شفتاى ما زالتا على شفتى الحسنة ، واستطعت أن أميز بين الأصوات بكاء امرأتى ، وصراخ حماى ، وهى تنبئهم أنها أول من اكتشف مسألة جنونى عندما تهجمت عليها وهى تضرب الخادمة .

ومر بذهنى خاطر طارئ .. خاطر بسيط جدًا .. ومع ذلك جعلنى أرتجف رغم كل ما فى من شجاعة !!

ترى ماذا يحدث لو فتحت نافذة الحجرة التى أجلس فيها والتى تواجه نافذتى مباشرة ؟ ماذا يحدث لو أزيل هذا الحاجز الخشبي الرقيق .. فوق بصر أهل الدار على ، وقد احتضنت الجارة العزيزة .. وألصقت شفتى بشفتيها ، ورحت وإياها فى نشوة من الهوى ؟

أنا رجل شجاع .. ومفعول جرعة الشجاعة أكيد فعال .. ولست أشك أنى أستطيع بفضلله أن أجوز أحى المعارك ، والأقى أشد الأحوال .. ولكن شيئًا واحدًا هو الذى لا أستطيع مواجهته ولا حتى تصوره .. وهو أن يقع على بصر امرأتى وحماى .. وأنا فى هذا الوضع العجيب .

أجل .. لقد نزلت على أصواتهم كالصواعق . وأحسست منها برودة سرت فى جسدى .. أضاعت كل ما أكسبتنى الحسنة من حرارة ونشوة .. وجدتنى — ألع — شفتى على شفتيها كأنى ألعها على ضريح أحد الأولياء .. وأحسست منى الحسنة شرويًا وبرودًا .. فهمست متسائلة : « مالك ؟ » وأجبته ببساطة ، وأنا أسحب شفتى من شفتيها .
— لا شيء .

ثم بدأت أسحب جسدى ببطء وأبتعد عنها شيئًا فشيئًا .. وهمست إليها :
— عن إذنك .. خمسة .

وهزت رأسها متسائلة فى دهش :
— إلى أين ؟

ورفعت يدي إلى فمي وعدت أهمس :

— أشرب .

— سأحضر لك كوبًا من الماء .

ولكنني هزوت رأسي بالنفي .. فتضاحكت .. وقالت مازحة :

— ويسكى صودا ؟

— لا .

— ويسكى سك ؟

— لا .. أريد جبن سك .. جبن مركز .

ثم أدت ظهري وانطلقت أعدو بساق العرجاء .. وجاوزت الباب ،
وهبطت الدرج كأني قذيفة مندفعة ، تاركًا الحساء تضرب كفاً بكف .

وقد تملكها مني ذهول شديد .

وانطلقت في الطريق غير ملتفت يمين ولا يسرة ، وقد استقر في الرأي على أمر
واحد .. وهو الوصول إلى تاجر النحاس بأقصى سرعة .. قبل أن يصادفني
إنسان وقبل أن تقودني شجاعتى إلى ما لا قبل لى به .

وهكذا أخذت أعدو حاملًا شجاعتى ، حتى وصلت أخيرًا إلى الحانوت
المنشود ، حانوت الأخلاق .. فوجدت التاجر الكهل ما زال في جلسته كما هو
حتى ، لكأني لم أفارقه لحظة ، وارتميت أمامه على أحد الشوالات مبهور
الأنفاس ، منهوك الأعضاء ، وهتفت به :

— أغثنى .. أدركنى .

وقطب الرجل جبينه وتملكته دهشة وهز رأسه متسائلًا :

— ما بك ؟

— شجاعة .. ضحية من ضحايا الشجاعة .

— ولكنه لم يمض عليك سوى يوم واحد ، وما زال أمامك تسعة أيام :

— هذه هي المصيبة .. تصوّر يا سيدى .. يوم واحد من الشجاعة قد فعل لى

ما ترى .. عرج وعور وجنون ورفث من الشغل .. ومن يدرى ربما رفت من البيت أيضًا ؟ فقد يكون أحد من أهل الخير رآنى وأنا أدخل دار الحسنة فيبلغ امرأتى .. تصورى يا سيدى .. هذا ما فعله يوم واحد . فما بالك بالتسعة الباقية ؟ أرجوك يا سيدى .. أغثنى .

ورأيت الرجل يهز رأسه أسفا :

— هذا ما كنت أتوقعه .. لقد نصحتك فلم تقبل النصيح .. وأيت إلا أن تركب رأسك فتجرب الشجاعة .. ما ذنبى أنا وقد حذرتك فضربت بتحذيرى عرض الحائط .. إني لست مسئولاً عما حدث لك .. إن كل المسؤولية واقعة على عاتقك .

— لا يهمنى كثيراً أن تكون أنت المسئول أم أنا .. إن كل ما أريد هو علاج سريع لهذه الشجاعة .. إني أتوسل إليك .. إني أرجوك . وماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

— جرعة جبن .. تكفى للتسعة الأيام التالية .. جرعة جبن تتعادل مع الشجاعة فتجعل منى إنساناً طبيعياً أرجوك .. أنا فى عرضك .

— ولكنى قلت إن هذا النوع من البضاعة قد نفذ ، ولم يبق لدى منه ذرة واحدة .. لا جبن ولا نفاق ولا كذب ولا رياء ، ولا لؤم ولا خسة ، هذه أصناف قد استنفدت كلها .. فماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

— ابحث يا سيدى .. ابحث .. نقب وراء الشوالات وخلف الأدراج ، اكس أرض الحانوت فقد يكون بها أثر جبن من بقايا الماضى .. من يدرى ؟ ابحث يا سيدى أرجوك إنها مسألة حياة أو موت .

وبدا صبر الرجل ينفذ ، وقال فى شىء من الحدة :

— قلت لك إنه ليس لدى منه ذرة واحدة ، وأنا لا أقول إلا ما أعنى قوله .. أنا أعرف حانوتى .. شبرا .. شبرا وأعرف كل ما به ، فوفر على نفسك مشقة الرجاء الذى لا طائل تحته .

وتملكنى من قول الرجل يأس شديد ، وأطرقت في حزن واستسلام ..
وسادت فترة صمت طويلة ، رفعت رأسي وقلت للرجل مستعطفًا .

— إذا لم يكن لى علاج عندك لهذه الشجاعة .. هل تسمح لى أن أمكث
عندك التسعة الأيام الباقية .. حتى تنتهى بسلام ؟

— على الرحب والسعة .. إن الحانوت حانوتك .

وصمت الرجل برهة ثم رفع حاجبيه وأردف قائلاً :

— لقد خطرت لى فكرة .. فيها لك نوع من العلاج .

وسألته بلهفة :

— ما هى ؟

— إننا نستطيع شفاء الشجاعة التى بك ، ولكنه ليس شفاء بمعنى الكلمة ،
بل هو استبدال الشجاعة بشىء آخر .. فإنك تستطيع أن تختار لك نوعًا آخر من
الأخلاق .. فتأخذ منه جرعة تسعة أيام .. فيحل فى نفسك محل الشجاعة ..
ما رأيك ؟

وأخذت أفكر فى المسألة ، وأستعرض جميع الأنواع البائرة التى حواها
الханوت .. الإخلاص والصدق والوفاء والأمانة والمروءة والكرم .

إن فكرة الرجل صائبة .. فلا أظن هناك أخطر من الشجاعة ولا أشد أثرًا ،
ولا شك أنى أستطيع أن أنتقى من بين هذه الأصناف صنفًا محتملاً .. يستطيع

المرء أن يصبر على مكارهه ويحتمل أضراره خلال التسعة الأيام الباقية ..
وأحسست كأنما قد انزاح عن كاهلى عبء ثَقِيل وقلت للرجل :

— هذه فكرة صائبة .. إن أى شىء يمكن احتماله .. غير الشجاعة .

وألقيت نظرة أخيرة على الشوالات .. وأخذت أقلب البصر فيها حتى استقر

على واحد منها .. خيل لى أنه أخفها ضررًا .. فقلت للرجل :

— أعطنى جرعة من هذا .

— تقصد شوال المروءة ؟

— أجل .. ما رأيك ؟

— لا بأس بها ..

وبدأ الرجل يعبئ لى فى قرطاس مروءة تسعة أيام .

ثم أعطانى إياه ومد يده مودعًا ، ولكننى عدت أقول له مستعطفًا :

— لى رجاء أخير .

— ما هو ؟

— هل تسمح لى بتناول جرعة المروءة هنا .. إنى أخشى على نفسى من

العودة ، وأنا رجل شجاع .. إنى أخشى أن ألقى أهل الدار وما زال لى أثر من

شجاعة .. ثم من يدرى .. ربما تدفعنى شجاعتى فى الطريق إلى أن ألقى قرطاس

المروءة فى الأرض ، وأعود إلى الدار رجلاً شجاعًا .

وهز الرجل رأسه بالموافقة .. ثم مد يده فأخرج كوبًا وجرعة ماء وأذاب فيه

قرطاس المروءة ثم أعطانى الكوب فتناولت الجرعة .

وهكذا شفيت من الشجاعة لأصاب بالمروءة .

ترى أكنت مستجيرًا من الرمضاء بالنار ؟

من يدرى !!؟

(٧)

ذو مروءة

يا أهل القذارة .. رحاكم .. إن النظافة من
الإيمان .. وهي نوع من الإيمان لا يكلفكم
كثيراً ولا قليلاً .. لا يكلفكم أكثر من أن
تعودوا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتأسوا
قليلاً فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم
فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا
قذرين .. ولكن بقدر .

لم تكد جرعة المروءة تستقر في جوفى حتى أحسست بعضلاتي التي شدتها
جرعة الشجاعة تتراخى وتنكمش ، وخيل إلي أن جسدى قد رق ، وأن نفسى
تسامى ومشاعرى ترهف .

لقد أشاعت جرعة المروءة في نفسى إحساساً عجيباً بالحب والحنان والرقّة
والعطف ، وملأت قلبى برغبة جارفة في مواساة الناس وتخفيف أحزانهم
وتضميد جراحهم .

فكان أول ما فعلت هو أن نظرت إلى التاجر المسكين فأحسست بالرتاء له
والعطف عليه .. يا للرجل البائس الشقى ! يا لطول ما أضتته الوحدة وآلمته
الوحشة والفراغ ! .. يا لطول ما قبع وسط بضاعته الخاسرة الكاسدة .. بضاعته
الطيبة في عصر ملأ أسواقه الفساد !! بضاعته الخيرة في زمن غداء أهله الشر
والسوء .

إيه يا تاجر الحق في أرض النفاق ! يا بائع الصدق في دنيا الرياء يا مُهدى
الشجاعة لمعشر الجبناء ! والإخلاص لجمع ضاع بينهم الحق وعز الوفاء !! لشد
ما آلمتنى فجيعتك وأوجعتنى خسارتك .

واقتربت من الكهل الطيب فضمته إليّ في عطف وحنان وقلت له في لهجة تفيض ألماً وحزناً :

— لشد ما عانيت من وحدتك يا سيدى وقاسيت ، إني لا أطيق أن أتركك هكذا وحيداً محزوناً ، سأجعل من نفسى رفيقاً لك يؤنس وحشتك ويشاركك في ضرائك .. أجل يا سيدى لقد عزمت أن أقضى معك بقية عمرى .
ونظر إليّ الرجل بطرف عينية وقال في هدوء :

— أشكر لك مروءتك الطارئة ، ولكننى لست في حاجة إلى من يعينى فالعون من عند الله ، ولقد تعودت طول الوحشة حتى ألفتها ، ولم أعد أحس منها بضيق أو ملل .

وصمت برهة ، ثم أردف قائلاً :

— خير لى أن أذكرك بشيء يجب أن تضعه نصب عينيك ، إياك أن تعطي وعداً يربطك بقية العمر ، فلا لزوم لأن تعدنى مثلاً بأنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمرك ، بل الأضمن أن تقول : إنك عزمت على أن تقضى معى بقية عمر مروءتك ، البالغة تسعة أيام ، هذا هو المدى الذى تستطيع أن تلقى فيه الوعود .. تسعة أيام فقط ، أما بعد ذلك ، بعد أن تتبدد من نفسك المروءة ، وتصبح كما كنت خلواً منها فلا ترتبط بوعد أبداً لأنك لا شك حانث به .
وهممت بأن أجادل الرجل وأخبره أن هذه المروءة طبيعية ، وأنها ستستمر فى نفسى إلى آخر العمر ، وأنى سأتى إليه إذا ما تبددت لأتناول منها جرعة أخرى لأعيدها إلى نفسى ، لأنى ما أحسست قط بلذة كلذة المروءة ، لذّة صفاء النفس والرغبة فى فعل الخير .

ولكن الرجل أسكننى بإشارة من يده وقاطعنى قائلاً :

— أعرف كل ما ستقول ، لقد جربت أثرها وأحسست بكل ما أحسست

به .. اذهب يا بنى ، أعانك الله عليها !

ونظرت إلى الرجل فى دهش وساءنى منه أن يرفض العون الذى عرضته

عليه ، وأنه يأبى أن أبقى إلى جواره لأعينه على احتمال وحدته ، ولم أجد بداً من الانصراف ، ولكنى قبل أن أنصرف خطر لى أنى أستطيع أن أعين الرجل بطريقة خفية ، لا تمكنه من رفضها .

إن الرجل لا شك فى حاجة إلى المال فهو على ما يبدو رقيق الحال لا يملك غير تلك الشوالات المكتظة بالبضاعة البائرة ، ويعلم الله كيف يحصل على معاشه فهو لا يقبل لبضاعته ثمنًا ، بل يؤجل الحساب ليوم الحساب ، وعلى ذلك فإن أى مبلغ أدسه له خفية بين الشوالات لا شك سيسر له حاله ويعينه على قضاء حاجته .
وانتهزت فرصة غفلة من الرجل فأسرت بإخراج محفظتى وأخرجت كل ما بها من نقود فدسستها بين الشوالات بحيث تظهر أطرافها ويسهل على الرجل رؤيتها ، ثم شددت يد الرجل شاكراً وانصرفت فى طريقي عائداً إلى الدار .

وهكذا كان أول ما فعلته بعد أن أصبحت رجلاً ذا مروءة ، هو أن تركت للرجل المسكين كل ما كان معى من نقود وسرت فى الطريق خاوى الوفاض لا أحمل مالا ولا همًا ولا حقًا ولا ضغينة .. لا شىء أبداً إلا أكداماً من المروءة تشع من نفسى وتضىء جوانحى كأنها الفوسفور فى الظلمة الحالكة .

سرت فى الطريق متجهاً إلى البيت ، ولم أكد أقترب من الباب حتى صادفت كلباً قد تمدد على الأرض وتدل لسانه وأخذ يلهث من فرط العطش .

أى عالم هذا الذى نعيش فيه ؟ عالم القسوة والغلظة والجمود !! هذا الكلب المسكين يكاد يموت من فرط العطش ، والناس تمر به دون أن يفكر واحد منهم فى أن يمد يده إليه بمجرعة ماء .

أيها العزيز ، أبشر . لقد صادفت ذا مروءة ، سيروى غلتك بعد طول ظمأ .

واقتربت من الكلب وربت عليه برفق وأشرت إليه أن يتبعنى .

ودخلت الدار والكلب معى ، ولم يكد أنخى يلمحنى من النافذة حتى صاح فرحاً وهتف بمن فى الدار :

— لقد عاد .

ثم أطل عليّ من النافذة قائلاً في رفق :

— أين كنت ؟ لقد كدنا نحن خوفاً عليك .

ولم أجب بل أشرت إليه رافعاً يدي إلى فمي حتى يحضر للكلب جرعة ماء ..

ولكن الغيبى لم يفهم .. وسمعتة يجيب بمتى الأدب والرقّة :

— أجل .. أجل .. لقد أحضرته لك من أفخر الأنواع وأشدّها تأثيراً ، لقد

صدق ظنك ، إذ رفض الرجل في بادئ الأمر أن يعطيني إياه زاعماً أنه قد نفذ ،

ولكنني عرفت كيف أؤثر عليه وأنتزعه منه .

ولم أعرف ماذا يعنى أخى بهذه — الخطرقة — فهزّزت له رأسى مستفهماً عما

يقول ، فأجاب :

— لقد قال لى إن لديه عينة من نوع جديد ، نوع مركز جداً ، تكفى جرعة

منه لأن تجعل عنترة بن شداد أجبن خلق الله .. إنه أحسن أنواع الجبن الموجودة

فى السوق .

وفهمت ما يعنيه الأخ الغيبى .. وأدركت أنه ما زال يعتقد أنى مجنون .. وأنه

يرى أن يقنعنى بأنه قد أحضر لى جرعة الجبن التى طلبتها .. حتى يهدئ من

روعى ويطيّب خاطرى .

وصحت به ضاحكاً :

— أى جبن هذا الذى أحضرته أيها الحمار ؟ لا شك أن بعقلك لوثة .. لى

أريد جرعة ماء أسقى بها هذا الكلب الظمآن .

وبدت الدهشة على وجهه وأجاب مرتبكاً :

— حالا .. سأحضر لك الماء .

واختفى من النافذة وسمعتة يقول لمن بالداخل :

— الظاهر أنه قد شفى .. لقد كان ما به نوبة طارئة .

وبعد لحظة وجدته قد هبط لى حاملاً فى يده كوزاً مملوءاً بالماء وتقدم به لى

الكلب الذى أخذ يعب ما به عبا .
وارتوى الكلب .. ومد فمه ففعل بأخى .. ما فعل الثعبان بصاحبه حين
أحس بالدفء والشبع .. أجل .. لقد عض أخى .
كان الكلب مسعورًا ، وانطلق فى الدار يشبع أهلها نهشًا وعضًا حتى استطعنا
أخيرًا أن نوقفه ، ولكن — بعد خراب مالطة — فلقد عض ما لا يقل عن سبعة
أشخاص .

ولم تمض لحظة .. حتى كان الأهل جميعًا نزلًا مستشفى الكلب !!
لم ينج منهم إلا واحد .. هو أنا .. صاحب المصيبة وصاحب المروءة .
وتملكنى الحزن ، وملأنى التشاؤم ، فقد كرهت أن يكون أول قصيدتى
كفرًا ، وأن أبدأ مروءتى بإرسال أهلى جميعًا إلى مستشفى الكلب ، ولكنى
أخذت أعزى النفس بأن كل ما حدث لم يعد أن يكون من فعل القضاء والقدر ،
وأنى لو لم أحضر أنا الكلب ، لاستضاف هو نفسه ، وحضر إلى الدار دون
حاجة إلى دعوة ، وأن الله ما دام قد كتب على الأهل رحلة إلى مستشفى الكلب
فلن ينف فى طريقهم مخلوق ، ولو لم يعضهم الكلب لعضوا أنفسهم .
وهكذا سريت عن نفسى وأقنعتها بأن المروءة لا دخل لها فى كل ما حدث ،
وعزمت أن أحتمل لوم الأهل وتقريعهم بصدور رحب وحلم شديد ، ولم
يغضبني قط أن أسمع من حماتى — أنى طول عمرى جلاب المصايب — وأنها لم
تر من ورائى إلا كل النوازل والكوارث . وأنى لا شك قد — سلطت — الكلب
عليها و « انشك » كل الأهل الأجزاء حقنة كلب « على الماشى » وهم يستنزلون
على غضب الله ويستمطرونه اللعنات .
ولم أجد خيرًا من أن أترك الدار وأناى بنفسى عن أهلى برهة حتى تخف حدة
غضبهم .

وغيرت ثيابى ، واغتسلت ، وتسليت من البيت .. بعد أن أعدت ملء
الحفظة الخاوية بالنقود .

سرت فى طريقى ، وقد تملكنى إحساس جارف بالعطف على الناس والراثاء

لهم بلا أدنى سبب ، وتمنيت لو وهب لى الله عدة أجساد أنشرها بينهم .. أحمل عنهم أعباءهم وأخفف مصائبهم .. وضايقنى أن أجد نفسى عاجزاً عما أود فعله لهم ، فقد كانت قدرتى — كإنسان — محدودة .
ولكنى هدأت نفسى وطيبت خاطرى قائلاً : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وأنه ليس على إلا أن أفعل كل ما فى طاقتى .

وبدأت أفكر فى أنجع الوسائل لتخفيف ويلات الناس ، فاستقر الرأى على أن أذهب فوراً إلى أحد الأحياء البلدية . فلاشك أنى واجد فيها مرتعاً لمروعى ، وأنى سأحصل على مورد خصيب للهموم والبلايا ، فى أزقتها وحواريها وحول أضرحة الأولياء فيها .

وبدأت أستعرض لنفسى الأحياء إياها .. الزاخرة بالمصائب .. الراضحة تحت عبء الأمراض والأقذار . بولاق ، القللى ، زينهم ، الحسينية ، عرش الترجمان ، السيدة ، الحسين .

ولم أجد هناك معنى للمقارنة فقد كانت كلها فى الهوى سوا .. وأخيراً اخترت « القللى » .. فقد وجدت أنى أستطيع الوصول إليه بسهولة وكنت قريب العهد بزيارته ، فقد ذهبت إلى إحدى ورش التجارة هناك ، وما زالت صورته مطبوعة فى ذاكرتى .

لم يكن الوصول إلى القللى بالأمر الشاق ، فقد كان فى قلب القاهرة ، ولم يكن على إلا أن أركب أى ترام أو أتوبيس يمر بشارع الملكة ، ثم أنزل قرب الإسعاف عند الكنيسة ثم أعبر الشارع الجديد المسمى بشارع « الجلاء » ، وأدخل فى أحد الجحور المفضية إليه فأجد نفسى فى القللى ، وما أدراك ما القللى ١٢

شارع ترامت فيه الخضرة ذات اليمين وذات اليسار ، ولست أقصد بالخضرة خضرة الأشجار .. بل خضرة عروق الملوخية .
خطر لى وأنا أجول فى الشارع أن الأسماء التى يكنى بها عن مصر .. كأرض

الفراعنة وبلاد الأهرام ، ينقصها اسم قد يكون أصدقها وأدقها تعبيرًا ، وهو أمة الملوخية .

أجل والله إنها أمة الملوخية ، على جوانب الطريق أكوام من القمامات أظهر ما فيها عروق الملوخية ، والعربات المتجولة متشرة على الطريق أظهر ما فيها — ورق العنب يا ملوخية — وفي كل دار لا يصل إلى أنفك إلا رائحة واحدة .. تقليد الملوخية ومن كل نافذة لا تصب على رعوس المارة إلا حلال الملوخية ، حيا الله الملوخية ، وأمة الملوخية .

سرت في القللى على قدمى طبعًا .. فالطريق أو السرداب لا يكاد يسمح بالمرور إلا على القدمين فهو طريق بينه وبين المدنية مائة عام .. طريق أغلب الظن أنه يتمتع باستقلال تام ، وفي الوقت نفسه بالموت الزؤام .

أما عن تمتعه بالاستقلال التام .. فأمر لا يحتاج إلى مناقشة فلا أظن للحكومة سلطانًا على المكان أو أهل المكان ، وكيف يكون لها سلطان على شيء لا تكاد تحس بوجوده .. ما للحكومة ولهذه الأمكنة العفنة المنتنة ؟! ما لها ولهذه القاذورات المتراكمة ! ما لها ولهذه السرايب الضيقة التى لا تتسع لمرور عرباتها الفخمة الطويلة العريضة ! ما لها تقض مضجعها وتشغل بالها بهؤلاء — الرعاع الحوش — ومساكنهم وطرقاتهم ! ماذا يعنىها من القللى ما دام طريق الملكة بفخامته وأهنته قد ستر أطلاله وأخفى خرائبه ، فما عاد منظرها الكريه يؤذى العيون القريرة ، وما عادت رائحتها التنتنة تزكم الأنوف التى تعودت على الاتكسون ، والسوار دى بارى ؟! ما لوزير الأشغال ومدير التنظيم ومدير النظافة و .. و .. و .. ! ما لكل هؤلاء ولهذه الجحور المظلمة والكهوف الخربة ، ما دامت — بوابير الزلط — والعمال .. دائبين مجدين فى تنسيق الزعفران وتبليط الخليفة المأمون والدقى والزمالك !! ما لهم وللجحور التى لا تبصرها إلا عين هؤلاء التعسين المساكين !! ما لهم وللجحور التى ما دار بخلدكم قط أنها كائنة منهم على قيد خطوات وهم يطوون بعرباتهم الطرقات الفخمة

الواسعة !

ترى لو أننا حكمنا على أحد هؤلاء بالسكنى فى جمحور القللى أو بولاق أو
زينهم أو الماوردى .. ماذا كان يصيب الحى التعس ؟!
تصوروا معى لو أننا أمسكنا بوزير الأشغال وأجبرناه إجباراً على السكنى فى
القللى . ماذا يمكن أن يحدث ؟!

أول ما يحدث هو أن يستدعى الوزير الوكيل ومدير التنظيم وغيرهما من
المسؤولين ويسألهم فى حنق ودهش كيف يبقى حى كالقللى فى قلب القاهرة وهو
على حالته تلك من القذارة والتتانة ؟!

كأنه — لافض فوه — لم يكن يعيش فى القاهرة من قبل ، ولم يكن يعلم أن
القللى .. وغيره من أمثاله .. كائنه فى قلب القاهرة .

وهنا يأمر الوزير المصلح فوراً بإصلاح الحى رفقا بأهله ، وخرصا على
صحتهم وراحتهم ، ولا تكاد تمر بضعة أيام حتى تجد العمل والإصلاح والهدم
والإنشاء قد قام على قدم وساق ، وإذا بالقللى قد مسته يد ساحر ، كما مست من
قبل أرضاً بوراً يملكها واحد من أصحاب السلطان فشقت فيها الترع والمصارف
وأفاضت على ما حولها خيراً عميماً .

مرت بذهنى كل هذه الخواطر وأنا أسير فى السرداب الضيق .. أشق طريقى
وسط كراسى الخوص التى فاضت بها المقاهى القائمة على الجانبين فرصت فى
عرض الطريق .

وكان أول ما لفت نظرى فى الحى وأهله هو ما تجلى فيه من روعة الفن .. فن
القذارة الرائع .

إن الحكومة لا شك مقصرة فى أمر هؤلاء التعسين ، ولا شك أيضاً أن ما بهم
مرجعه الأول إلى الفقر الذى يكبلهم بأغلاله ، ولكن ما ضرهم لو ضغطوا على
أنفسهم ، فحاولوا أن يكونوا من تلقاء أنفسهم أكثر نظافة ! ما ضرهم لو طلقوا

بالثلاثة فن القذارة ؟!

(أرض النفاق)

ولا تظنوا بقولى» فن القذارة « سخرية أو مبالغة .. فأبى والله جاد فى قولى كل الجد .. إذ لا شك فى أن المسألة فن .. وأن أى إنسان غير هؤلاء المتبحرين فى فن القذارة لا يمكنه أن يفعل مثل ما فعلوا ، ولا يمكنه أن يصل به الحال إلى مثل ما وصل حالهم ؟

وكيف لا تكون القذارة فناً .. وأنا أبصر هذه المرأة الفنانة وقد جلست على قارعة الطريق بجوار الجدار .. لا فارق هناك بين لون وجهها وملابسها والأرض .. فهى مثل لصدق قول أبى العلاء « أديم الأرض من هذه الأجساد » أو هذه الأجساد من أديم الأرض .. وفى حجرها تمدد وليدها .. أو قطعة أخرى من أديم الأرض ، وقد رمدت عيناه .. وحط الذباب على وجهه زرافات ووحدانا ، وأمامها قفص قد رصت عليه بضع قطع من « نبوت الغفير » (وإن كنت أشك كثيراً فى أن نبوت الغفير يمثل هذه القذارة) وبضع قطع أخرى من الحلوى المختلفة الأحجام والألوان والتي قد وجد الذباب فيها مرتعاً آخر غير عيني الطفل ، وبجوار المرأة طفل آخر يحب على قوائمه الأربع فيستقر به المقام على كوم من القمامة .. هو خليط من قشور الخضر والأتربة والماء العطن .. « والبطيخ البابت » ، ويفزع الذباب من وصول الصبى فيطير عن كوم القمامة ، ولكنه يتبين أن القادم صديق .. أو هو جزء حى من القمامة ، فيحط رحاله مرة أخرى مرحباً بالطفل .

هذه المرأة .. لا شك فقيرة .. ولكن ما دخل فقرها ، فى هذا التفنن فى القذارة ؟! ماذا يكلفها أن تغتسل وتغسل طفلها ؟! ماذا يكلفها أن تبعد نفسها عن كوم القذارة ؟! ماذا يكلفها لو غطت حلواها (إذا كان لا بد لها من بيع الحلوى) بقطعة قماش نظيفة ؟! ماذا يكلفها لو أمسكت فى يدها منشة رخيصة من القش تذب بها الذباب عن وجهها وعن طفلها ؟!

لن يكلفها كل ذلك إلا أمراً واحداً .. وهو إتلاف تابلوه القذارة الذى تفننت فى عمله بالاشتراك مع زرافات الذباب وأكوام القمامة .. هذا التابلوه الحى

المتحرك .. سيذهب برونقه نظافتها ونظافة أولادها .. وتلك المنشة التى ستمسكها ستخرق المحالفة القائمة بينها وبين الذباب .. فلا يعود إلى معاونتها في إبراز فنها .

وتابلوه آخر .. ذلك الرجل الذى وقف على ناصية أحد الأزقة وقد وضع أمامه « طبلية » رصت عليها « شقق البطيخ » وبدأت « الطبلية » كأنها مصيدة ذباب ، وكأن شقق البطيخ ورق ذباب ، والرجل نفسه — أجاركم الله — تمثال للقذارة .. يتمخط ويصق بين ثانية وأخرى .. وقد لوثت يده بماء البطيخ الأسود — بعد خلطه بما تيسر من الأتربة — وحوله قد تناثر قشر البطيخ واللب .. وعلى مقربة منه جدار يقضى الناس حاجتهم بجواره فهو بمثابة (مبولة) تفوح منها رائحة الصنان .. وجواره نافذة تسكب منها امرأة من سطل في يدها ماء أسود قذرًا .

أليس هذا والله فئًا ؟ ماذا يكون فن القذارة أكثر من ذلك !!

يا أهل القذارة .. رحاكم .. إن النظافة من الإيمان .. وهى نوع من الإيمان لا يكلفكم كثيرًا ولا قليلًا .. لا يكلفكم أكثر من أن تتعودوه .. لا يكلفكم أكثر من أن تتناسوا قليلًا فن القذارة .. وتكفوا عن غلوائكم فيه .. إذا كنتم لا تطيقون النظافة ، فكونوا قذرين ، ولكن بقدر . لنجعلوا لكم يومًا في الأسبوع تمتعون فيه أنفسكم بالقذارة . تتمرغون في التراب ، وتطلقون أطفالكم في أكوام القمامات ، وتسكبون من النوافذ ما شتم من الماء الآسن .. وتحفلون فيه بتكريم الذباب والبق وكل أنواع الحشرات التى تعاونكم على التمتع بالقذارة . أما في باقى الأيام فاغتسلوا واغسلوا أطفالكم ودوركم ونظفوا أزقتكم وادفئوا القمامة ، وحاربوا الذباب وغيره من حلفاء القذارة .. افعلوا ذلك .. جربوا النظافة .. فأنى أؤكد لكم .. أنها لن تكلفكم شيئًا ، وأنكم « ستستحلونها » وتطلقون القذارة .. بلا رجعة .

فإذا لم تفعلوا .. فأنى أهيب بالحكام .. أن يفرضوا عقوبة الجلد على عشاق

القذارة وفنائها .. وأن يجلدوكم حتى تستقيم قناتكم .. أو تموتوا .
فخير لكم .. أن يموت منكم البعض جلدًا من أن تموتوا كلكم من جرائم
القذارة .

سرت في الطريق .. أنقل البصر بين تابلوهات : القذارة ، والفقر ..
والمرض .. ونفسي تفيض عطفًا على أهل الحى .
وبودى أن أفعل شيئًا لأرفع عنهم ذلك البؤس الذى حط عليهم على أجد مخرجًا
للمروءة التى تصطخب فى نفسى .. حتى وقع بصرى على شحاذ قد انكمش
أسفل جدار .. ومد يده فى صمت وسكون .. وبدت عليه المذلة والحاجة .
نظرت إلى الرجل .. فأحسست برثاء له شديد .
كان الرجل .. مقطوع الساق والذراع ، ولم يكدرانى ، حتى تطلع إلى
ببصر متلهف .

وهمت بأن أضع يدى فى جيبى لأعطيه شيئًا من النقود .
ولكننى تذكرت أن هؤلاء الشحاذين فئة مخادعة ، وأنهم يتخذون الشحاذة
حرفة .

وكان تذكرى .. ما قرأته فى بعض الصحف عن الثروات التى يخلفها بعض
هؤلاء عقب موتهم .. يجعلنى دائمًا أحجم عن مد يد المساعدة إلى أى شحاذ .
ولكننى .. فى هذه المرة — والمروءة تملأ جوانحى — وجدت نفسى أترى
أمام الرجل ، وأنعم الفكر برهة .
أليس من المحتمل .. أن يكون هذا الرجل بائسًا فقيرًا ، محتاجًا إلى المساعدة ،
وأنه ليس مخادعًا ، ولا محتالًا ؟

وهل يعنى ، مجرد أن يخلف بعض الشحاذين ثروة .. أنهم جميعًا .. من
أصحاب الثروات ، وأنهم جميعًا محتالون ؟ وإلى من نقدم يد الإحسان إذا كنا
سنمنعها عن كل سائل ؟

لا .. لا .. هذا فرض خاطئ .. يجب ألا نأخذ الكثرة بالقلة .

يجب ألا نأخذ البريء بذنب المجرم .
يجب أن أمد يد المعونة إلى الرجل ، مهما كان الأمر .
واقتربت من الرجل ، فوجدته يقول لى بلهجة المتوسل :
« لئننى لم أذق طعامًا منذ يومين !! »
ووجدتنى أهتف بنفسى « فرجت » .
أجل .. والله .. إنها « فرجت » !
لقد حل الرجل المشكل ، وأنقذنى من حيرتى وترددى .
إن الرجل قد وضع حاجته بما لا يقبل الشك .
إنه جائع .. لم يأكل منذ يومين ، وهكذا أستطيع أن أقدم له مساعدة عملية
« مضمونة الأثر » وذلك بإطعامه فعلا !! فأكون بذلك قد أسدبت إليه
معروفًا ، وأنا ضامن أنه لم يخدعنى .
وهكذا استقرى رأى على أن أطعم الرجل .. أطعمه بنفسى .. لا .. أن
أعطيه نقودًا لكى يشتري بها طعامًا . حتى لا أعطيه الفرصة للاحتيال وحتى
أضدّن — إذا كان جائعًا حقًا — أن يأكل أكلة دسمة محترمة .
هذا هو المعروف ، وتلك هى المروءة .. معروف فى موضعه ، ومروءة
نتيجتها مضمونة مائة فى المائة .
ووقفت أمام الرجل ألقى عليه التحية :
— السلام عليكم يا حاج .
وأجاب الرجل بصوت متوسل ، ولهجة منكسرة :
— وعليكم السلام يا بنى ورحمة الله .
— أحقًا .. لم تأكل منذ يومين ؟
— من امبارح الصبح .. وأنا لم أذق لقمة .. أعطنى قرشًا لله .. أشتري به
شقة حاف .
— لا .. لا .. شقة حاف .. لا تنفع .. ولا تسمن .. ولا تغنى من

جوع !.. لا بد لك من غذاء كامل .. يرى عليك .. ويعوضك الأكلات التي ضاعت منك .

ونظر إليّ الرجل في ذلك متوهمًا أني أسخر منه ، وأجاب :

— يا سيدى .. شقة كفاية .. ربنا يعمر بيتك .

— ما رأيك في أن تتناول الغداء معى .. إني لم أتناول الغداء حتى الآن ويمكننا أن نتغدى سويا .

ورأيت الرجل يرمقني بطرف عينيه بنظرة فاحصة .

وبدا له أني إما أبله مجنون .. أو ساخر متهمك .

وأخيرًا أجابني :

— يا سيدى أنا رجل مسكين .. حرام عليك !!

— حرام عليّ ! إني لا أسخر ، ولا أمزح .. إني أتكلم جادًا .. وإني أصبر على

دعوتك للغداء معى .. وماذا في ذلك ؟ هل هناك فارق بين عبيد الله ؟

وهكذا استطعت أن أقنع الرجل بصدق رغبتي . في أن يتناول الغداء معى ، وحاول الرجل التهرب ، ولكنى أصبرت .

وأخيرًا .. نهض يتوكأ على عكازه ، وسار بجوارى .

وأخذت أفكر في أنسب الأماكن ، لتناول الغداء مع الشحاذ المحترم ، وكان

أول ما خطر ببالي .. هو : أن أصطحبه إلى الدار . فقد كان التناقض بين منظرنا

سيثير الدهشة واللفظ في أى مطعم أطرقة وإياه .. فما تعود الناس .. أن ييصروا

« أفنديا » محترما مثل يدعو « شحاذًا » لتناول الغداء معه .

ولكن قليلًا من التفكير جعلنى أستبعد نهائيًا فكرة الذهاب إلى البيت .. ترى

ماذا يمكن أن يلقانى به الأهل لو ذهبت إليهم مصطحبًا هذا الذى ينضح قذارة ..

وطلبت منهم أن يجهزوا لنا الغداء ؟

ماذا يمكن أن يحدث لى منهم ؟ وعضة الكلب المسعور الذى استضيفته من قبل

ما زالت تحز في أجسادهم ،

لا .. لا .. إن من الحمق أن أحاول اصطحابه إلى الدار .. فلا أظن الأهل يستطيعون الصبر على هذه المرة !

أين نذهب ؟ .. كيف نأكل ؟ .

نبتاغ سنلوتش بالطعمية والقول .. ونأكله ونحن سائران ؟

وفجأة لاحت لى لافقة ، وجدت فيها خير حل للمشكلة لافقة كتب عليها :

« المصمت الوطنى الوحيد » لصاحبه « الحاج عبد القادر عيد » .

وجدتها أخيراً .. حمداً لله !

هذا « المصمت » هو خير ما نتناول فيه الغداء .. فإن دخولنا فيه لن يثير

الدهشة ، فهو جامع حاو لكل من هبّ ودب .

عمم .. ولبد .. وطواقى .. وطرايش .. من كل صنف .. ومن كل نوع .

وأهم من هذا وذاك .. لقد كنت متشوقاً لأن آكل فة كوارع بالشوم ..

وهكذا أستطيع أن أرضى نفسى ، وأرضى الرجل .. دون أن أخشى لومة لائم .

وسحبت الرجل من ذراعه السليمة .. ودلفت به إلى الداخل .. واحتلنا

منضدة فى أحد الأركان .

وصفقت ييدى منادياً المعلم .

ومضت برهة قبل أن يجيبنى أحد ، فقد كان المكان يعج بالزبائن ، وكان

صبيان المحل فى حركة دائمة .

وجلست أنظر إلى ناحية « القزان » الذى قام مواجهها الباب ، وقد وقف

أمامه من لم أشك قط فى أنه « الحاج عبد القادر عيد » نفسه .. فقد كان بشواربه

المبرومة ، و « لاسته » الملفوفة بعناية حول رأسه .. و « الكبشة » فى يده يقلب

بها القزان .. كأنه قائد يتوسط أرض المعركة .. وقد أمسك فى يده عصا

المرشالية .

وكانت الأبنجرة تتصاعد حول المعلم « عيد » كأنها دخان المدافع .. وقد

رصت أمامه ، عشرات السلاطين ، المليئة بالعيش المكسر ، أو « الفقة الجافة » ..

وهو يسكب في كل منها بكبشة من الشورية ، التى ملئ بماء القزان ، ثم يتركها برهة حتى (تبوش) .. وحتى (تشرب ميتا) .. ثم يبدأ بتغطيتها بطبقة رقيقة من الأرز . الموضوع في قزان آخر .

فإذا انتهى من عملية التغطية بالأرز .. كشف عن حلة (الصلصة) .. وأخذ ينقل منها بكبشة صغيرة .. بمقادير محدودة .. يزين بها سطح السلاطين . وتبدأ بعد ذلك عملية تقطيع الكرشة .. فيخرج من القزان .. كرشة كبيرة .. تتصاعد منها الأبخرة ويأخذ في تقطيعها على رخامة البنك ، ثم توزيعها على السلاطين .

وهنا يهجم الصبيان فيحمل كل منهم نصيبه من السلاطين ، وينطلقون بين المناضد لتوزيعها على الزبائن .

ويأخذ المعلم (عيد) بين آونة وأخرى في تجهيز الرعوس ، وتوضيها ، وفصل اللسان والجوهره ، وإخراج المخ .. ثم يقذف بالعظام إلى القسط الملتفة حوله .

وأعدت التصفيق .. فحضر إلّى أحد الصبية الذى علمت بعد ذاك أنه يعمل مناديا فى (المصمت) .. إذ لم أكد أطلب منه ما أريد .. حتى وجدته قد رفع يده إلى فمه ، كمن يهم بالغناء .. ثم جعد وجهه .. وأغلق عينيه .. وصاح بصوت ملحن ، ملؤه النغمات والآهات :

« اتنين بالصلصة والكرشة .. وجوز عجالى .. وحتتين لسان .. مع التحايش » .

وهكذا بلغ النداء إلى الحاج « عيد » دون حاجة منه إلى الانتقال إليه .. ولم يصعب على أن أدرك أن « التحايش » معناها أن يكون الطلب معتنى به . ومضت فترة قبل أن يحضر إلينا الطعام .. فأخذت أتشغل بالحديث مع صديقى ! وعلمت منه أنه يدعى « الشحات » أى إنه اسم على مسمى .. وأخذ يقص على ما يعاينه من شظف العيش والبؤس ، حتى أقسمت فى نفسى أن أتولى

أمره بصفة دائمة أو أحاول أن أجده له عملاً لا يحتاج للحركة .
وأخيراً أحضر الصبى الطعام وبدأنا تناوله .
وأنتهينا من الطعام وحضر إلّى المعلم « عيد » نفسه لتناول الحساب ، ونويت
أن أكون كريماً معه حتى يعرف أنني ابن ناس .. وحتى لا يكون اصطحابى
للسحاذ سبباً فى إضاعة مركزى أمامه .. وحتى يعرف أن طعامى مع السائل ليس
إلا من باب التواضع والمروءة والإنسانية .
وفرك المعلم يديه وبدأ يسرد لى قائمة الحساب .. فإذا كل ما تناولناه لا يزيد
ثمنه على الريال .

(٨)

في مجمع الشحاذين

إن هناك الملايين .. ممن يستحقون العون ،
ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال ..
أولئك الذين فقدوا كل شيء .. إلا ماء
وجوهم .. والذين أضاعوا كل ما يملكون .
إلا كرامتهم .

ومددت يدي لأخرج المحفظة .
ومضت فترة وأنا أنقل يدي من جيب لجيب دون أن أجِد للمحفظة أثرًا ..
وأحسست بالعرق يتصبب من جبينى من فرط الخجل .. ماذا أفعل أمام
الشحات وأمام الحاج « عيد » أنا الأفندى المحترم الذى أريد أن أظهر بمظهر
« الفنجرى » ، فإذا بى لا أجِد ثمن ما تناولته من طعام .
ورأيت الشحات ينظر إلى نظرة فاحصة بطرف عينه ، ووجدت القلق قد بدا
على وجه الحاج « عيد » والحق قد بدأ يسرى فى ملامحه .. فأسقط فى يدي ،
وأحسست كأننى قد غرقت فى جوف بحر ، وأنه ليس لى مخرج من ذلك المأزق
الذى وضعت فيه نفسى .
وفجأة رأيت المخرج .. فقد هبط على منقذ من السماء .. منقذ لم أكن أتوقعه
قط ، فقد رأيت الشحات يرفع بصره إلى المعلم « عيد » ويقول له ببساطة :
— معلمش يا معلم .. الظاهر إن الأفندى نسى المحفظة .. خلى الأكل على
حسابى المرة دى .

ونظر المعلم « عيد » إلى نظرة ملؤها الازدراء .. ثم أولانى ظهره وانصرف ، وأحسست بالعرق يقطر من جسدى بعد أن تناولت الغداء على حساب الشحات .

تملكنى الذهول وأحسست أنى أكاد أجن مما حدث .

من يصدق هذا ؟ .. أنا الرجل — الفنجري — المحترم الذى يفيض مروءة ، وكرماً ، وأريحية .. الرجل الذى قطع كل تلك المسافة من داره إلى حى القللى ، ليغدق على البؤساء من فيض كرمه ويعطيهم مما أعطاه الله ، ويهب لهم من إحسانه ما يثلج به صدورهم ، ويقضى حوائجهم .. ينتهى به الأمر إلى أن يتناول غداءه على حساب أحد الشحاذين !
هذا والله منتهى السخرية ؟

أيجسن على شحاذ ؟ ولم يمض على تناولى جرعة المروءة بضعة ساعات ؟
أيطعمنى سائل جائع أكنع كسيح ؟ .. وأنا صاحب الفضل والإحسان !!
والله ما كنت أقبلها قبل أن أتناول الجرعة .. فما بالكم وأنا أحس بالمروءة تثقل أوعاى ؟

ثم .. المحفظة !! أين المحفظة ؟

إنها السبب فى كل ما حدث .. إنها هى التى وضعتنى فى هذا المأزق الحرج .. إنها هى التى سببت لى كل ذلك الخذلان والخيبة .

أين ذهبت ؟ لقد بحثت عنها فى كل جيوبى دون أن أجدها أثراً ، مع أنى واثق أنى قد وضعتها فى جيوبى قبل أن أترك الدار .

ومضت برهة وأنا جالس على المائدة التى تائثرت عليها بقايا الطعام .. شارد الذهن غارب البال .. ما زالت يدي تنقب فى جيوبى باحثه عن المحفظة .. والشحات جالس أمامى يمسح فمه بطرف كفه المهلهل القدر .. وأسند عكازه الأسود على طرف المنضدة .. وأخذ يوجه لى من آن لآخر نظرات مسترقة من طرف عينيه .. خيل لى أن فيها لمحة سخرية خفيفة .

ولم تكن حالة الحرج والخجل التى أنا فيها قد تركت لى الفرصة كى أفكر فى أن هذا الشحات لا بد أن يكون مخادعًا محتالًا ، وإلا فكيف يدعى أنه لم يذق الطعام منذ يومين مع أن له فى المصمت حسابًا جاريًا ؟
إن المعلم لم يحاول مناقشته عندما طلب منه أن يجعل الطعام على حسابه بل انصرف دون أن يتيسر بينت شقة .. فلا شك أنه مطمئن إلى الرجل .. وأنه يجد فيه « زبون سقع » .

وبدأت أوجه إلى الشحات نظرات الشك ، ولكنه لم يباه لنظراتى ونهض فى سكون متناولًا عكازه واتجه إلى خارج المصمت وأنا سائر خلفه مطأطئ الرأس وقد تملكنى خجل شديد ، إذ أحسست أن كل من فى المصمت يحملون فى بأعينهم وأنهم يشيرون إلى بأصبعهم قائلين : هذا هو الأفندى .. الذى أطعمه الشحات .

وسرت والشحات فى الطريق الضيق وكلانا مطرق صامت يسترق النظرات إلى صاحبه بين آونة وأخرى .. وأنا حائر لا أدرى كيف أتصرف معه .. هل أشكره على كرمه وأريحيته لأنه أطعمنى من جوع .. أم أزجره وأؤنبه لأنه خدعنى وسخر منى !
وأخيرا قلت له :

— ما الذى أجبرك على البقاء يومين بدون طعام .. إذا كان لك حساب جار فى المصمت ؟

ونظر إلى الشحات رافعًا حاجبيه فى شىء من الدهش وأعجاب :
— الظاهر أنك على نياتك قوى .

— على أية حال .. إذا كنت قد خدعتنى .. فأنا لا شك معذور ، فهذه الحال التى أنت عليها تجزم بأنك لم تذق الطعام لا منذ يومين .. بل منذ ستين ، والواقع أنك لم تخدعنى لأنى أؤكد لك أنك بائس تعس .. ماذا يجديك ما اخترنته من النقود .. إذا كان أثرها لم يظهر عليك .. إن قيمة النقود ليست فى النقود بل فيما

تفعله النقود ؛ هبك جمعت أموال العالم وخزنتها في حفرة في أرض غرفتك .. واستمررت على ما أنت عليه من السؤال والعري ، هل هناك فارق بينك وبين الفقير المحروم الذى لا يملك شروى نقيير ! إنك أشبه بالحمار الذى يحمل قرب الماء وهو يلهث من العطش .. ولكنك معذور فلست وحدك تفعل هذا .. ولا أظنك تختلف كثيرًا عن معظم أثريائنا .. الذين يخزنون أموالهم ويحرمون أنفسهم ويضيعون أعمارهم سدى ، ويخيل لى أن خير ما يمكن عمله هؤلاء هو أن تسحب نقودهم من خزائنها وتصرف عليهم حتى يتنعموا بالحياة ويزكوا عن أنفسهم دون أن يعلموا أن هذه هى نقودهم .. بل يستمر إيهامهم أن نقودهم ما زالت مخزونة حتى تظل نفوسهم قريبة راضية فالمسألة لا تزيد عن مجرد وهم ، وليست متعتهم بالنقود المخزونة سوى متعة وهمية ، وإلا فقل لى بريك هل هناك فارق بين خزنك النقود وخزنك أكوامًا من الزلط .. ما دامت النقود ستبقى فى خزائنها دون أن ينتفع بها أحد ؟

ونظر إلّى الشحات من أسفل إلى أعلى ، وأجابنى ببساطة :
— الظاهر أنك متفلسف :

— متفلسف أو غير متفلسف .. إنك رجل تعس شقى ما فى ذالك شك ، ومهما كان من أمر فليس لى إلا أن أشكر لك أنك أطعمتنى ، وأعدك بأنى سأعود إليك لأرد لك ثمن الأكلة .. لأنى كما ترى قد نسيت المحفظة .

وابتسم الرجل وأجاب فى سخرية :

— لا داعى لأن تعود ثانية .. إنك لم تنس محفظتك .

ثم مد أصابعه وأخرج من صدره .. المحفظة !!

— إى والله ! محفظتى بعينها فقد نسلها منى الرجل ونحن فى طريقنا إلى

المصمت وعاد يسألنى .

— أما زلت تصر على أنك لست « على نياتك » !

وتناولت منه المحفظة وقد تملكنى الدهش وازداد لى الإحساس بالحيرة

والخجل .. ودفعت يدي في المحفظة فأخرجت منها بعض النقود وقلت للرجل :
— خذ الريال .. ثمن الأكلة وشلن بقشيش لك .

وأخذ الرجل الخمسة والعشرين قرشًا فدهسها في جيبه .
وهنا لمحت سائلا آخر قد عصب عينيه ووقف على ناصية أحد الأزقة ماذا
يده ، فاندفعت إليه في حركة غير إرادية لأهب له بعض النقود ، ولكن
« الشحات » جذبني من ذراعي ونظر إليّ نظرتة إلى ذى جنة وسألني متعجبا :

— إيه يا سيدنا .. إيه حكايته .. مغرم شحاتين . وإلا غاوى إحسان !
— أبدا .. أبدا .. مسألة مروءة ليس إلا .. أنا ذو مروءة أو مصاب
بالمروءة .. ليس الذنب ذنبي إنما ذنب الجرعة التي تناولتها .
— ذنب الجرعة .. أية جرعة !؟

— جرعة المروءة .

— ألللمروءة جرعة ؟

— طبعا .

— ومن أين حصلت عليها ؟

— عند تاجر الأخلاق ١ .

— وماذا أجبرك على تناولها ؟

— مكره أخوك لا بطل .

— لا أفهم .. من الذى أكرهك على تناول جرعة المروءة ؟

— أنا أكرهت نفسى .

— ولم ١٢؟

— لأستعين بها على إزالة الشجاعة .

ثم أخذت أقص على الرجل القصة باختصار . وسردت له كل ما حدث من
جاء الشجاعة ، وكيف استجرت من الشجاعة بالمروءة .. وهنا هز رأسه ،
وقال في سخرية :

— تمامًا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

— لا أظن .. ليس هناك شر من الشجاعة .

وهنا لمحت سحاذًا آخر وقد وقف أمامه رجل بادى الطيبة بهم بأن يعطيه قرشًا ، فأثار المنظر نخوتي وهجمت على الشحاذ حتى أشارك الرجل الطيب فى الإحسان إليه ، ولكننى وجدت الشحات جذبنى إليه مرة أخرى وحال بينى وبين التقدم إليه ، وهتف لى :

— ماذا تريد أن تفعل ؟

— أعطى الرجل حسنة .

— أى رجل ؟

— الشحاذ طبعًا .

— الظاهر أنك غير مؤمن .

— حاشا لله .. ماذا دعاك إلى اتهامى بهذه التهمة الباطلة ؟

— المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .. وأنت تأبى إلا أن تلدغ من الحجر عشرات مرات .. ما دخل المروءة بهؤلاء ؟ يجب أن تضع المروءة فى موضعها وتعطى الإحسان لمن يستحقونه .. ما دمت تتلهف على فعل الخير والمروءة .. فخير لك أن تتقدم بالإحسان إلى الرجل الآخر .

— أى رجل ؟

— الرجل المحسن .. الذى يمد يده بالنقود إلى الشحاذ .

— ماذا تقول ؟. أأترك السائل .. وأمد يدى بالإحسان إلى المحسن ؟

— أجل .. وإذا أمكنتك أن تنتزع كل ما مع الشحاذ فتعطيه المحسن فلا شك أنك تكون قد فعلت خير المعروف وأعظم المروءة .

وهزئت رأسى مستنكرًا .. إن « الشحات » لا شك يريد أن يزج لى فى مأزق ، أو هو رجل أحمق شاذ . فليس أدل على ذلك من تبرعه بإطعامى على حسابه وإنقاذى من المعركة التى كانت توشك أن تقع بينى وبين المعلم « عيد » صاحب

(المصمت) .. ثم تطوعه لإعادة المحفظة إلى بعد أن أطمأنت في جيبه واستقر بها المقام .

كيف يريد الرجل أن أتقدم بالنقود إلى الرجل المحسن ؟
إن الرجل يبدو « مستورا » وليس به من حاجة إلى الإحسان ، ولست أشك
في أن إحسانى إليه سيخدش كرامته ويثير غضبه علتى .

وعدت أسائل الشحات وأستجوبه :
— أى قول هذا الذى تقول ؟ وأى عمل أحقق تدفعنى إلى فعله ؟ وأى ورطة
هذه التى تريد أن تزج بى فيها ؟

وتوقف الرجل ونظر إلى نظرة فاحصة . ثم أطرق وأجاب :
— أنت رجل طيب .. وذو مروءة حقًا .. وحرام أن تذهب مروءتك أدراج
الرياح .. سألقك درسًا تنتفع به وسأحيطك بما لم تحط به علمًا .. هيا بنا ؟
— إلى أين ؟!

— إلى المجمع .

— المجمع اللغوى ؟!

— لا .. إلى مجمع الشحاذين .. سأدفع بك بين الكواليس لتبصرهم عن
قرب .. سأريك هؤلاء الذين استدروا دمعتك على خشبة المسرح وأطلعك على
خفاياهم .. حتى تعرف بعد ذلك كيف توجه مروءتك ، ولين تلقى بإحسانك
ومعروفك .

وسرت والشحات الأكبر قاصدين مجمع الشحاذين .. وظل الرجل يدفعنى
من زقاق إلى زقاق ، ومن جحر إلى جحر بين أكداس القمامة والعفونة حتى
دلف فى النهاية إلى حارة مسدودة قد شاعت فى أركانها ظلمة حالكه ، ثم توقف أمام
باب فى نهايتها وطرق الباب بعكازه .. ولم تقض لحظة حتى فتح الباب وأطلت منه
عجوز شمطاء سوداء عجفاء لم تكدر لى حتى بدا عليها الدهش ورفعت حاجبها
الأشيب متسائلة عمن أكون .

وأشار لها صاحبي مطمئنًا مفهمًا إياها أنى لست بذى خطر .. وأنى رجل طيب « على نياق » .. وأنى ضيف عنده .

ودخلنا فى ممر مظلم ، وعرفنى الشحات بالعجوز قائلاً :

— الحاجة نودق (بفتح الدال) رئيسة المجمع .. وشيخة الشحاذين .

وسمعت العجوز ترحب بى قائلة بصوتها الرفيع من خلال فكها المتداعين :

— أهلا وسهلا .

وانتهى بنا الممر الضيق الذى اجتزنناه إلى حجرة رحبة تسلل إليها الضوء من خلال نوافذ عالية ذات قضبان حديدية كنت ألمح أقدامًا تمر بها من آن لآخر .. فأدركت أن الحجرة هى بدروم يعلوه أحد الأزقة .

وبدت لى الحجرة أشبه بمحجرات النوادى الرياضية التى يستعملها اللاعبون فى

خلع ملابسهم .. مع فارق القذارة المتناهية .

كانت أرض الحجرة غير مبلطة ولا مسفلتة ، بل أرض طبيعية قد فرش عليها هنا وهناك بعض زكايب وحصر .. أغلب الظن أنها تستعمل للنوم، ووضعت بجوار الحائط بعض الدكك والمقاعد الخشبية المتداعية ، ودق فى الحائط مشاجب ومسامير علقت عليها ملابس قديمة وأربطة قدرة ، وفى ركن من أركان الحجرة وضع جردل ماء وبجواره قلة . وعلى أحد الجدران علقت مرآة مكسورة سوداء ، وفى وسط الحجرة قامت بضعة دواليب وصناديق .

وتلفت حولى فلم أجد فى كل ما رأيت شيئًا يستحق المشاهدة أو يستحق ذلك المشوار الذى قطعته مع الرجل بين الأزقة والحوارى .. وقلت الطرف بين صاحبي وبين مظاهر الفقر المدقع القائمة حولى وسألت فى استياء :

— أهذا كل ما تريد أن ترىنى إياه ؟ .. هل هذا هو ما تود أن تحيطنى به علمًا ؟

أهذا هو الدرس الذى ستعلمنى به كيف أوجه مروءتى ؟! أهذه هى الكواليس التى تحدثت عنها ؟! لا .. لا .. إلى لن أستمع إليك ، وسأعطى « نودق » كل ما لدى من النقود لتفك بها ضيقها .. وضيق « الغلابة » الذين (أرض النفاق)

يعيشون معها .

— صبرًا .. ولا تكن أحمق عجولا .

وكانت « نودق » قد اختفت عن أعيننا في أحد السرايب فرفع الرجل عقيرته منادياً :

— نودق .. فكيني .

ودهشت بعض الشيء ، ولم أفهم معنى قول الرجل « فكيني » !!
فقد كان مطلق السراح ليس هناك ما يقيده .. وأخذت أخمن كيف تنوى المرأة أن تفكه ..

وأخيراً حضرت العجوز ، وتناولت من الرجل عكازه وأخذت تساعد على نزع « الملاهيل » التي كسا بها جسده .. وهنا فقط عرفت ماذا عنى بقوله :
« فكيني » .

أجل لقد أخذت العجوز في فكه .. ولم تمض فترة قصيرة حتى وجدت الرجل واقفاً على قدميه سليم الذراعين .

كان الرجل قد شد ذراعه على جسده بشدة وثنى ساقه من الركبة بطريقة لا أظن أى بهلوان يستطيع أن يفعلها ثم شدها إلى فخذه بالأربطة بحيث لم يعد يشك الناظر إليه في أنه مقطوع الذراع والساق .

ونظر الشحات وقد وقف سليماً معافى وقال باسمًا :

— ما رأيك ؟... هذا بعض ما وراء الكواليس .

ثم نظر إلى باب الحجرة وأزدف قائلاً :

— وهذه عينة أخرى مما وراء الكواليس .

ونظرت إلى حيث أشار فوجدت امرأة ضريرة قد أقبلت علينا يقودها طفل يكاد يكون عارى الجسد ، لا يستر جسده سوى قميص ممزق قدر ، وبدا على الاثنين أبلغ آيات البؤس والتعاسة .

ووصلت إلينا تحية المرأة :

— العواف .

وأجبتها في نفس واحد :

— الله يعافيك .

ولم أر الله يستجيب دعاء بمثل ما استجاب دعاءنا هذه المرة .. إذا لم تمض لحظة .. حتى كانت المرأة قد عوفيت ... وأضحت عينها الضريتان — كالفناجيل — ولم يتطلب فتحهما من الحاجة سوى كوز مياه من الجردل الملقى في آخر الغرفة أزالته به آثار النشا الذي ألصق به جفنا المرأة . ودخل علينا رجل بعد ذلك .. يحمل على كتفه حجراً ويتقدم به إلى الحجرة وهو شبه عار ، وهمست للشحات :

— إيه حكاية الحجر ؟

— يضرب به صدره .

— ولم ؟

— هي طريقة قديمة .. ولكنه تعوّدها .. فقد ورثها عن أبيه ، وكل ما عليه هو أن يسير في الطرقات فيرفع الحجر بين يديه ، ويهوى به على صدره ، قائلاً : يا عشاق النبي .. وعلى المحسنين من عشاق النبي .. الباقي . وهكذا توالى علينا العينات المختلفة من جميع أصناف الشحاتين .. ذوى العاهات المثقنة الصنع .. ما بين عرج وعمى وعور وكساح وخرس وجنون . وسحبني الرجل من يدى إلى حجرة أخرى أنبأنى أنها مخصصة للدراسة فن الشحاذة .. لأن على كل شحاذ أن يحفظ ما يناسبه من أقوال وأفعال . وكانت الحجرة مشغولة ببضعة شحاذين يتلقون محاضرة عن الشحاذة في رمضان .

ووجدتهم يكررون مع المحاضر « من فطر صائم له أجر دائم عند الله » وأنبأني الشحات أن لديهم مؤلفين لتأليف أغاني التسول ، وملحنين لوضع الألحان لها . وأكد لي أن المسألة ليست سهلة كما أظن .. بل إنه يستطيع أن يجزم أن التسول

هو الشيء الوحيد الذى يقوم فى مصر على أساس متين لا ارتجال فيه .. وأنه من أنجح المشروعات المصرية كافة .

ودلف بى بعد ذلك إلى حجرة الخزن المليئة بجميع الأنواع التى يحصل عليها الشحاذون عن طريق التسول من كسرات خبز وملابس قديمة وأطعمة ، وأفهمنى أن لديهم هيئة مسئولة عن بيع هذه الأشياء .

وانتقلت بعد ذلك إلى حجرة أخرى فهمت منه أنها بمثابة روضة أطفال يتولون فيها تدريب الأطفال على المهنة .

وظل الرجل ينتقل بى من غرفة إلى غرفة وهو يشرح لى كل ما يتعلق بمجمع الشحاذين حتى عدنا إلى الحجرة الأولى ، وطلب منى الجلوس على أحد المقاعد وجلس أمامى مفترشاً الأرض وسألنى وهو يفرك كفيه :

— ما رأيك ؟

— شيء عجيب !! لم يكن يخطر لى على بال قط .

— أما زلت تعتبر المروءة هى تفريق النقود على الشحاذين ؟

— لا .. لا أظن .. إن من الخطأ أن نسميهم شحاذين لأنهم شركة مساهمة .

وأطرقت وأخذت أفكر ثم سألته بعد برهة :

— إذا كيف يستطيع الإنسان أن يفعل المروءة ؟

— يفعلها فيمن يستحقها .

— ومن الذى يستحقها ؟

— كثيرون .

— اضرب لى مثلاً .

— ذلك الرجل الذى شاهدته يمد يده بالإحسان إلى الشحاذ الذى منعتك

عنه .

— أهذا يستحق المروءة ؟

— أجل .

— وكيف ؟ .. كيف يستحق المروءة ، وهو يحسن إلى غيره ١٢ ألم يكن من الخير لو وفر إحسانه ليستعين به لنفسه !
— صدقت .. ولكنه لا يستطيع .. لأنه تعود الإحسان .. لأن الرجل الكريم المحسن لا يمكن أن يمتنع عن كرمه وإحسانه .. مهما أخنى عليه الدهر .. هذا الرجل كان من كبار التجار ، رجل تقى ورع يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة .
وهب له الله بسطة في العيش ووفرة في النعم .. وأغدق عليه من زينة الحياة الدنيا — المال والبنين — الشيء الكثير . وكان مثلاً لامرئٍ قرير العين ناعم البال تفيض نفسه بشكر الله وحمده .
واستمرت الأقدار تصعد بالرجل إلى أوج سعادته .. تجارة رابحة وثروة واسعة وأبناء ناجحون وأحفاد يلتفون حوله يغدقون عليه من بسماتهم وضحكاتهم ما يقر به عيناً .
ومرة واحدة بدأ الرجل يهبط من القمة .. قمة السعادة .. وإذا بالقدر قد تخلى عنه وتركه يهوى إلى حضيض الشقاء .
كيف ؟

لقد بدأ الأمر بأن توفي زوج ابنته .. وترك ابنته وأولاده بلا عائل ولا مال .. وحمد الرجل ربه — الذى لا يحمد على مكروه سواه — أن وهب له بسطة في الرزق حتى يستطيع أن يتكفل بابنته وأولادها بعد أن توفي زوجها وقرر أن ييذل جهده لتعويض ابنته الشكلى وأحفاده اليتامى عن أبيهم وعلى أن يضمهم تحت كنفه .

وهكذا أصيب الرجل أول ما أصيب في ابنته ، ولكنه تلقى الإصابة في ثبات وتصبر وتجلد فما فرع وما جزع .. أما الإصابة الثانية التى وجهها إليه القدر فقد كانت في ابنه الأصغر .. إبراهيم المهندس .
ماذا حدث له ؟

لقد جن ١١ خاتنه امرأته — بنت الحلال — فقتلها ثم جن .

وهكذا زاد العبء على الرجل .. فضم أولاد ابنه الذين قتلت أمهم وجن أبوهم إلى أولاد ابنته اليتامى وأصبح عليه أن يعول الأولاد الستة وابنته وابنه الذى أضحى نزيل مستشفى المجاذيب .

تلك كانت هى الإصابة الثانية .. لقد حطمت أعصاب الرجل وهدت قواه ، إذ لم يكن من السهل على مثله وهو الرجل الهادئ الطيب أن يرى نفسه وقد أحيط بتلك الزوابع العاتية .. خيانة زوجية .. وقتل .. وجنون ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يقاوم ويتجلد ويتألك ، وحمد الله .. وماذا يملك مثله من درع لتلقى الخطوب سوى حمد الله ، والإيمان به ..

أما الإصابة الثالثة .. فقد كانت فى ابنه الأكبر .. محمود الدكتور .

مات !!!

لا لم يمّت .

إن القدر لم يترفق به إلى هذا الحد .

إن الموت لمثله نعمة ، والقدر قد أصر على أن يسترد كل نعمة .. فكيف ينعم على الابن بالموت ؟

أصيب الدكتور بداء الصدر .. التهاب فى الرئة .. ماء فى الرئة .. صديد فى الرئة .. تلفت الرئة ورقد المسكين طريح الفراش بلا حول ولا قوة وقد التف حوله أم باكية ، وأبناء « زغب الحواصل لا ماء ولا شجر » .

رقد الابن طريح الفراش .. ينهش الداء صدره وتمزق العلة رثيه ، وطال به الأمر ، وهو كما هو .. مضنى عليل .. لا يشفى فيرج أو يموت فيستريح .
رقد الابن ، وحوله زوجة كالأرملة وأبناء كاليتامى .. لا مال ، ولا عمل ، ولا عائل ولا معين إلا الأب .. والله واستعان الأب بالله .. وبدأ يفيق من هول الصدمة ، وهو ييكى على ابنه الحبيب بدمع العين ودمع القلب ، وتحامل على نفسه ، وحمد الله .. لأنه وهب له المال يستطيع أن يعول به ابنه المريض وأحفاده المساكين .

لقد تلقى الرجل إصابات القدر الثلاث !
وحمد الله أن ماله يكفى لإعانة أولاده الستة وأحفاده التسعة ، لأنه هيا لهم منه
خير عائل ومعين .

وكأنما ساء القدر أن يصمد الرجل لضربات .. فتحفز واستعد .. ثم أطلق
الرابعة .. فأفلس الرجل وضاعت تجارته وأضحى هو والاثناعشر المساكين ..
بلا عائل ولا معين .

ماذا فعل !!؟ لا شيء . لا شيء أبداً . لقد حمد الله الذى لا يحمد على مكروه
سواه !!

وصمت الرجل ، واستطعت أن أكبت دمعين همتا بأن تفلتا من عيني ،
وقلت متسائلا :

— وكيف يعيش الرجل وأبناؤه التعسرون ؟

— ذل بعد عز .. وضيق بعد سعة .. يعيشون على فضل الله .. هبة من هنا
ومن هناك ، وبيع لكل ما كانوا يملكون من بقايا النعيم .
لقد باعوا الدور ، والأثاث ، والملابس .

ومع كل ذلك ، فما انقطع الرجل عن مد يده بالإحسان إلى كل شحاذ
يراه .. ترى من أحق بالإحسان أهو أم الشحاذ ؟

ولم أجب فما كانت بي من حاجة إلى الإجابة ، ونظر إالى الرجل وهمس :
— ما رأيك ؟ ألم أحطك بما لم تحط به علما ؟

— إى والله .. لقد أحطتني علما بالشىء الكثير .

ثم صمت برهة ، وأردفت قائلا :

— هل تستطيع أن تدلنى على بيت هذا الرجل المسكين .. حتى أذهب وأعينه

ببعض المال ؟

— ولم هذا الرجل بالذات ؟

لقد ذكرته لك على سبيل المثال .

إن هناك الملايين ، ممن يستحقون العون ، ولا يجسرون على أن يمدوا أيديهم للسؤال .. أولئك الذين فقدوا كل شيء .. إلا ماء وجوههم .. والذين أضعوا كل ما يملكون .. إلا كرامتهم .
أولئك الذين يستحقون أن تهب لهم من مروءتك .. كل ما استطعت ، وتعطيهم من إحسانك فيضًا غزيرًا .
وأؤكد لك أنك لن تجد صعوبة في البحث عنهم ، فهم تحت بصرك ... وملء يديك .

وصمت الرجل قليلا ، ثم سألتني :

— أليس عندكم خادم ؟

— عندنا طفلة صغيرة وصبي يتيم .

— هذان وأمثالهما يستحقان منك الكثير من المروءة ، هذه الطفلة التي انتزعت من أمها لتقوم بخدمتكم لقاء بعض الدراهم لتعين بها ذويها على العيش . كيف تعاملونها ؟ .. كيف تطعمونها ؟ . هل تعاملونها كما تعاملون أبناءكم ؟
هل تطعمونها كما تطعمونهم ؟
أبدًا والله !!

هل تذكرون أنها في حاجة إلى الراحة ، وإلى الرفق ، وإلى التدليل ، والحنان .. كغيرها من الأطفال .. أم أنتم لا تؤمنون بشيء سوى أنها آلة تقضى لكم حوائجكم ، وتؤدي لكم ما تطلبون .
هذا مثل بسيط ، ومثل آخر ..

أليس لكم أقرباء فقراء .. أخنى عليهم الدهر ؟

هل تودونهم وتبرونهم .. وتعطونهم بما أعطاكم الله ، وحرهم إياه ؟
يا سيدى .. أؤكد لك أنك لو بحثت حولك ، لوجدت الكثيرين ممن يستحقون المروءة ، ولا يمدون يدهم للسؤال .
الكثير ممن عضهم الفقر والدهر بنابه ، فلم يجسروا حتى أن يقولوا « آه » ..

بل طووا آلامهم في صدورهم ، وصبروا ، وتجلدوا . حتى يحفظوا ماء وجوههم .

وأمعنت الفكر .. فأدركت مبلغ ما في قول الرجل .. من حقيقة .
ومرّ بذهني الكثير ممن أذكّرتهم من المحتاجين الصامتين ، الصابرين المتجلدين .. الذين يصيهم الله ، فيحمدون الله .

ونفضت من مجلسي .. فنهض الرجل ، وشدت على يده شاكراً ، وطلبت منه أن يسمح لي بالذهاب حتى أوجه مروءتي إلى حيث يجب أن توجه إليه .. وأحسن إلى أولئك الذين أرشدني إليهم .

ووصلنا إلى الباب ، ووقف الرجل يودعني قائلاً :

— مع السلامة . هل معك نقود كافية للإحسان والمروءة ؟

— أجل .. المحفظة مليانة .

— ليس المهم أن تكون المحفظة مليانة .

— ما المهم إذن ؟

— المهم أن تكون معك !!..

ومددت يدي أتمسك المحفظة .. وأخذت أنقل يدي بين الجيوب دون أن أجد لها أثراً .

وللمرة الثانية يمد الرجل يده في صدره ، فيخرجها ويدفعها إليّ قائلاً :

— لا مؤاخذه .. « يموت النشال وصياحه يلعب » إنها غية قديمة .. فلقد

كنت نشالاً قبل أن أمتن الشحاذة .. إن الشحاذة آمن عاقبة وأوفر ربحاً ، ومع ذلك .. فإن أصابعي دائماً — تأكلني على النشل — لا مؤاخذه .

وأمسكت بالمحفظة ، فدسستها في جيبتي ، ووجدت الرجل يمد يده إليّ

بالخمس والعشرين قرشاً التي أعطيتها إياه وهو يقول :

— وهذه أيضاً .. خذها .. فأنت أولى بها مادمت تنوى أن تحسن بها ، فهي

حلال لك .. أعطني قرشاً فقط .

وسأله ضاحكاً :

— ولم ؟

— حتى لا أكون قد أضعت وقتى معك سدى .. وحتى أكون قد نجحت معك كشحاذ .

ومددت يدي إليه بالقرش ثم ودعته وانصرفت في طريقى أنقب في ذهني عن بعض أولئك الذين يستحقون المروءة ممن ذكر لي الرجل أمثلهم .

(٩)

أهل الخداع

إن الثمار في هذا البلد تجف وتذوى .. بلا
تكاثرو ولا تناسل .. أما الأشواك فقد بارك الله
فيها فملأت ربوع الأرض .. إن المسألة تحتاج
إلى قانون ينظمها .. فهي ليست مسألة
أفراد ، بل مسألة أمة .

سرت في طريقي ، وأنا أنقب في ذهني عن بعض من أستطيع أن أوجه إليهم
مروءة ممن يستحقونها حقاً .. بعض أولئك الذين لا تذهب مروءة فيهم أدراج
الرياح .. أولئك المنكوبين الصامتين .. الذين لا يجزعون على طلب العون ..
إلا من الله .

وكان أول من تذكرت رجلا يمت لنا بصلة قرابة بعيدة .. لست أستطيع
تحديدتها بالضبط .. ولكن أغلب الظن أن أباه هو ابن خال امرأة عم أبي .. أو
شيئاً من هذا القبيل .

كان الرجل أول من خطر لي ، وأنا أستعرض أصحاب البلايا والمصائب ،
لقد قفز الرجل في رأسي ليصبح لي : هاأنذا .. منكوب صامت ، ومصاب
مستتر .. « أعطني من مروءتك .. وهب لي من فضلك وإحسانك » .
كان الرجل المسكين .. مصاباً بداء .. النسل والذرية ، وعلة البنين
والبنات !!

لا تتعجلوا فتيبوا دهشتكم .. وتساؤلوني : هل النسل داء .. والذرية علة ؟
وأنا معكم .. « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .. ولكن ما رأيكم في بنين بلا
مال ؟ بينين « حاف » ؟ .. هل تظنونهم للحياة الدنيا زينة .. أم أنها مصاب
وبلاء ؟

والمصاب الأعظم .. هو أن بين المال والبنين تناقضاً شديداً إذ قل أن يلتقيا عند
امرئ واحد .. ولو حاولنا أن نضع لهما قانوناً من قوانين الطبيعة لما كان أكثر من
أن يتناسب مال الإنسان تناسباً عكسياً مع ما لديه من بنين «

فهذا المليونير العجوز لم ينجب بنين قط .. وهذا أنجب بنتاً واحدة .. والثالث
عاش عزباً فلم يتزوج . أما حنكورة والمعلم حنفى ، والشيخ أبو سريع ، فلدى
كل منهم دسنة من البنين والبنات .

ولست أشك في أن هذا الأمر هو إحدى العلل الكثيرة التي رزى بها هذا
البلد .. وهو تكاثر البلد من الناحية السفلى .. وتضخمها في الجزء البائس
التعس .. فهي أشبه بنبات تتوالد أشواكه .. ويحف ثمره .

إن الثمار في هذا البلد تجف وتذوى .. بلا تكاثر ولا تزواج ولا تناسل ، أما
الأشواك فقد بارك الله فيها فملأت ربوع الأرض . إن المسألة تحتاج إلى قانون
ينظمها .. فهي ليست مسألة أفراد ، بل مسألة أمة .

إننا نجد الطبقة « الميسوطة » أو أهل النعمة .. إما أن يحجم أفرادها عن
الزواج .. أو يتزوجوا ، ثم يحدوا من نسلهم .

أما الطبقة التعسة أو أهل البؤس والفاقة .. فيأبون إلا الزواج « مثني وثلاث
ورباع » دون أن يخشوا قط ألا يعدلوا .. أما الذرية فهي عندهم كالتل وربيها
يرزق .. أو لا يرزق .

وهكذا يضيع البلد بين أنانية أهل المال والنعمة .. الذين يأبون أن يتزوجوا أو
يتناسلوا ليربحوا أنفسهم ويقوها شر المسئولية .. وبين جهل أهل الفقر والشقاء
المتوالدين كالذباب ليستزيدوا أنفسهم فقراً وشقاء .

لا بد من قانون لتنظيم هذه الأوضاع .. إن حرمة التناسل ليست من حق الأفراد ، بل من حق الأمة .. فالأبناء أبناء الوطن قبل أن يكونوا أبناء آبائهم . أى منطلق هذا الذى يقول إن رجلاً كالأستاذ « فكري أباطة » أو الأستاذ « التابعى » أو غيرهما من أهل الفكر .. يعيشون حياتهم عزائياً ، ثم يذهبون بلا ذرية ولا بنين .. فى الوقت الذى ينسل فيه عكشة ، وجرجير ، وجراده — ممن لا يكادون يجدون ما يقيمون به أودهم — عشرات الأبناء ؟!

قد يقول قائل : من يدريك !

إن ابن عكشة الزبال .. قد يكون على مر الأيام خيراً من ابن « فكري أباطة » . وإنه « قد يخلق من ظهر العالم فاسد . ومن ظهر الفاسد عالم » .. وإن فلاناً من العظماء كان أبوه إسكافياً .. وفلاناً من الوزراء ، كان أبوه حوذاً .

وقد يكون فى ذلك القول شئ من الصحة .. ولكنه لا يمكن أن يتخذ قاعدة .. وأن نحاول تبعاً لذلك أن نكثر من أبناء الإسكافية والحوذية ، لأن أحدهما أنجب لنا عظيماً ، والآخر أنجب وزيراً .. لأنه بجانب هذا العظيم ، وذاك الوزير ، قد أنجبوا لنا الملايين من التعسين والأشقياء الذين تتكون منهم العمدة التى أقيم عليها صرح الفقر والمرض والجهل على الذراعتين البنيان .

ماذا علينا لو استبدلنا بأبناء عكشة الاثنى عشر .. أربعة لعكشة ، وأربعة « للتابعى » ، وأربعة « لفكري أباطة » أليس ذلك خيراً للأمة وللعكشة ، وللتابعى ، ولفكري أباطة ؟

سنرفع عبء الاثنى عشر .. من فوق « عكشة » فنوزعه على الثلاثة بالتساوى .. فيستطيع « عكشة » أن يرى أولاده الأربعة خيراً مما كان يرى الاثنى عشر .. ويستطيع فى حدوده أن يجعل منهم أبناء مفيدى للوطن فلا يتشرد منهم واحد أو يجوع آخر .. أو ينوء هو بعبئهم . أما الآخرون فلا شك فى أن كلا منهما يستطيع أن يجعل من أبنائه الأربعة خيراً من أبناء عكشة .. فالثقافة متوفرة والمادة متوفرة .. ولدى كل منهما من الوسائل ما يستطيع أن ينتج للأمة أربعة من

خيرة الأبناء .. ولا شك أيضًا أن الأبناء أو على الأقل بعض الأبناء سيرثون عن أبيهم شيئًا من ذكائه ونبوغه .

وهكذا يتضح وجوب سن قانون للزواج وتنظيم النسل . فلا تترك المسألة هكذا « سهلة » فيعقم النسل الصالح (ونقصد بالعقم .. العقم المقصود .. أما العقم الطبيعى فلا حيلة لنا فيه) ، وتملأ الأرض بالذرية التى لا يعرف أصحابها كيف يطعمونها ؟

كان الرجل الذى مر بذهنى مصابًا بداء النسل ، أو مصابًا بعشرة أولاد فقط لا غير .

ليس بالرجل من داء سوى ذلك .. لم يكن به مرض خبيث ولا فقر مدقع .. لم يكن به شيء سوى وفرة الأولاد ، ولولا ذلك لما مر بذهنى قط ، ولما صح أن أدخله فى زمرة من يستحقون مروءتى .

لو كان الرجل عزبًا .. أو لو عقلت امرأته فلم تنجب له أولادًا أو ترفقت به فأنجبت له واحدًا أو اثنين أو ثلاثة .. لما صح أن نسميه منكوبًا أو مصابًا .. ولما فكرت فى أن أتوجه إليه لأمد له يد العون .

إن مصاب الرجل هم أولاده ، ولست أعنى بذلك أنهم أولاد فاسدون ، ولو كانوا فاسدين لحف المصاب وهانت العلة ، ولكنهم — مع الأسف — كلهم ناجحون ، وهذا هو سر النكبة ؟

تسألون كيف ؟ كيف يكون الأولاد الفالحون الناجحون سبب نكبة على أبيهم ؟ المسألة بسيطة .. بسيطة جدًا .. إننا فى مصر .. ومصر كما لو تعلمون بلد العجائب .. وعلى ذلك فليس بكثير أن يكون الأبناء الفالحون نكبة على أبيهم ؟ إن الرجل موظف عادى .. درجة سادسة أو سابعة .. لا أذكر .. موظف من آلاف الموظفين السائرين فى الركب الحكومى . ليس بمحسوب ولا قريب ولا نسيب ، وليس له ما يهئ دفعة من الدفعات التى تقفز به أمام الصفوف ، وليس له من يهتمه بالذكاء والغيرة على مصلحة العمل ، ويطلب له ترقية

استثنائية .. فهو والحال كذلك .. موظف طبيعي .. أى « منسى غليان » وهو رجل طيب هادئ قنوع .. تزوج كغيره من عباد الله .. فأتم نصف دينه .. ثم بدأ ينجب الأولاد من بنين وبنات .. الواحد تلو الآخر .. تاركاً المسألة على طبيعتها .. دون أن يخطر له قط .. أن يحاول الحد من النسل .. لأنه متدين وهو يعتقد أن ذلك ليس من شأنه ، بل من شأن الله .. وأن عليه أن يقوم بواجبه كزوج ، وعلى الله الباقي .

وهكذا زادت الذرية .. وازدادت المصروفات ، والدخل ثابت لا مزيد فيه ، والمাহية كما يقولون « هيه .. هيه » والرجل — مهما بلغ من ضالة مرتبه — يعتبر نفسه موظفاً ، ولا بد أن يعلم بنيه وأن يدخلهم المدارس .
وأدخل الرجل أبناءه المدارس الواحد تلو الآخر .. وبدأت المسألة فى أول الأمر هينة ، واستطاع الرجل أن يقوم بعبء الأولاد من أكل ولبس وتعليم .. ولكن الأولاد — مع الأسف الشديد — كانوا فالحين ، فنجحوا فى المدارس وانتقلوا من الابتدائى إلى الثانوى .. وزادت المصروفات ، وأخذت المسألة تصبح غسيرة معقدة ، فلا هو يقادر على حمل العبء ولا هو بمستطيع أن يحرم الأولاد من التعليم .. وخاصة أنهم فالحون ناجحون .

وبدأ يسعى فى المجانية .. ولكن وزارة المعارف الكريمة .. لا تفدق كرمها إلا على ذوى السلطان .. وذوى الجاه .. أو على من يستطيع التمسح بعبائهم ، أو من له صلة بكبار رجالها وذوى الشأن فيها .. والرجل المسكين لا يتوافر فيه أى شرط من هذه الشروط التى تراها الوزارة الرشيدة واجبة للمجانية بصرف النظر عن الفقر والحاجة .

وتطورت حياة الرجل بالتدرج .. فأضحت مشكلة معقدة ، وأصبح الرجل منكوباً بنكبة طبيعية .. لا افتعال فيها ولا عنف .. كل ذلك والأولاد ما زالوا يتسربون بلا توقف ، والرجل كالتائه .. لا يعرف بالضبط الخطأ الذى ارتكبه ، حتى أوصله إلى تلك الحالة من الفقر والحاجة .. واضطر الرجل أنه يخرج أكبر

أبنائه من المدارس ليعمل ببضعة قروش تعاونه على سد حاجته ، ولكن الابن استطاع بفضل ما أصيب به من فلاح ونجاح أن يستذكر في الدار وأن يحصل على شهادة الدراسة الثانوية بتفوق ، فجلب بذلك على أبيه نكبة كبرى .. فقد كره الرجل أن يقف عقبة في طريق ابنه ، وعزم أن يدخله الجامعة .. وفعلًا أدخله وبدأ يقطع من قوته وقوت أبنائه ليدفع المصروفات .. ونجح في دفع بعض الأقساط ، ولكن انتهى به الأمر في النهاية إلى العجز التام .. وأصبح ابنه الناجح الفالح مهددًا بالطرد .

والرجل المسكين حائر .. فهو مصاب ، وغير مصاب !! وهو في أشد الحاجة للملم واحد ، فلا أحد يحسن إليه .. ولا هو يستطيع أن يمديه للسؤال .. لأنه أفندى موظف ، وإن كنت لا أشك أنه ليس به من سمات الموظفين غير الهيمنة الظاهرة ، أعنى البدلة والطربوش والكرافتة .. أما ما عدا ذلك فإن أبأس شحاذا خير منه .

ترى من أحق من الرجل بمروءة ؟

هل هناك طريق لفعل المروءة خير من أن أعينه ببعض المال الذي يستطيع به أن يعين ابنه على أن يتم دراسته .. ويستطيع هو أن يفك به ضيقه ويزيل كربته ؟ واستقر في الرأي على أن أذهب رأسًا إلى بيت الرجل وأحسست برضاء تام عما انتهيت إليه .

وكان الرجل يقطن في بيت القاضي بالقرب من سيدنا الحسين .. فاتجهت لأركب ترامًا يذهب بي إلى العتبة ثم أركب بعد ذلك إلى الأزهر وأتمشى إلى بيت الرجل .

ومرت بي بضلع عربات الترام كان من العبث أن أحاول ركوب إحداها ، اللهم إلا إذا استطعت تسليق أعمدة الترام وامتطاء ظهره كما فعل بعض الصبية . ومر بي الوقت وأنا واقف مكاني . وأخيرًا لم أجِد بداً من أن أحشر جسدي على سلم إحدى العربات .. بعد أن استطعت أن أجِد موطئًا لقدم واحد ..

وأستمرت قدمي الأخرى معلقة في الهواء .. ولم أكن أخشى السقوط ، فقد كان جسدي مضغوطاً كالسرددين بين بقية أجسام الركاب .
وظل الترام يتهادى من محطة إلى أخرى ، وأنا على حالتي تلك من الشلقة حتى وصلنا أخيراً إلى العتبة .

وشققت طريقي بين باعة الجرائد وإبر بوابير الجاز .. واللبان والشكولاتة ومساحي الأحذية .. ووصلت إلى ترام الأزهر وجلست على أحد المقاعد منتظراً أن يتحرك الترام ..

وهنا لمحت أحد الشحاذين يقبل عليّ ، وقد بدت عليه مظاهر البلاء ، ولم يكن يرتدى سوى سروال ممزق يكاد يستر عورته وأخذ يصيح لي مدعياً الخرس — ا . ا . ا — وهو يشير إلى فمه بأصبعه محاولاً إفهامي أنه جائع .

ولم أتمالك نفسي من الابتسام .. وأحسست كأن الرجل ليس غريباً عني .. بل كأننا أصدقاء .. بين أحدهما والآخر معرفة قديمة .

واستمر الرجل يقول :

— .. ا .. ا .. ا ..

ووجدت نفسي أجيب :

— أهلاً .. أهلاً .

ولكن الرجل استمر على تجاهلي وادعائه البلاء .. فعدت أسأله :

— ازاي الشغل ؟

وأحسست أن الرجل قد بدأ ينظر إلى بعين فاحصة حذرة ، فاستمررت في

قولي :

— الحاجة نودق ترجوك ألا تتأخر .

وهنا فغر الرجل فاه وتملكه دهش شديد .. وكف عن « التهته » واقترب

منّي حتى كاد يلصق فمه القدر بأذني وسألني هامساً :

— أنت تعرفها ؟

(أرض النفاق)

— طبعاً هي والشحات ، وسنية العمشاء .. و ..

— ولكنى لم أبصرك قبل الآن ؟

— لقد انضممت حديثاً إلى الجمع .

وهنا دوت زمارة « الكمسارى » فأسرع الرجل متباعدًا . ناظرًا إلى نظرتة إلى زميل ، وبدأ يهاجم زبوتًا آخر .. بصياحه : — ا .. ا .. ا ..

ووقف إلى الترام في النهاية عند الأزهر ، وسرت في الشارع متخذًا طريقى بين زرافات الناس وعربات الباعة ، وقد تعالت من حولى النداءات المختلفة الملحنة ، ووصل إلى سمعى منها نداء بائع المشمش كأنه أغنية جميلة : « المشمش استوى وطاب وطلب الأكال يا حموى يا نايح » .. ثم رنين طاسات بائع العرقسوس كأنها تقاسيم القانون يتخللها صوت البائع منادياً في ثقة « خمير شفا » وقد وقف مائلاً بنصفه الأعلى واتكأت قدرة العرقسوس على جنبه معلقة في كتفه بسير جلدى ، ووضع في فوهتها قطعة مستطيلة من الثلج ، وحول وسطه قد شد وعاء نحاسياً وضع فيه الأكواب الزجاجية ، وتدلّى من الوعاء إبريق صغير بالماء لغسل الأكواب .

وأغراني منظر القدرة والثلج ورنين الطاسات بأن « أبل ريقى » بكوب من العرقسوس .. فاقتربت من الرجل وطلبت منه كوباً ووقفت أتأمله بمجلبابه الأبيض ، وقد شد حول وسطه الفوطة الحمراء المخططة ، وشاعت في أساريره علامات الرضا والمرح ، وكأنه من رنين الطاسات في عرس دائم وطرب مستمر .

ورفعت الكوب إلى فمى ، وقد علته الرغوة وتندى خارجه بقطرات الماء من فرط التليج .. وأحسست ، وأنا أجرع العرقسوس بكثير من المتعة كأنى أجرع كأساً من الشمبانيا ، أو كأن جو الطرب والمرح الذى يحيط به الرجل نفسه قد سرى إلى فملى نفسى بالرضا .. وشعرت أن الله لا ينسى عبده ، وأنه قد يحمل قدرة العرقسوس من اللذة ما لا يحمله دنان الشمبانيا .

ولم أكد أعطى الرجل ثمن الكوب حتى لحت على مقربة منه عربة يد محملة بالموز ، وقد رفع صاحبها عقيرته بالنداء .. فى صخب وضجيج .. طالبًا من الناس أن يلحقوا أنفسهم قبل أن « يشطب » .
وهنا خطر لى أن الواجب يحتم علىّ بالآأ أدخل بيت الرجل « وإيدى فاضية » وأن بضع أقات من الموز سيكون لها وقع طيب .. فلا شك أن أولاده .. محرومون من الفاكهة .. ولا أظن دخله الضيق يتيح له أن يفرق الموز على الصغار المساكين .

واقتربت من بائع الموز ، وقد وقف أمام عربته ، ولسانه لا يكف عن الصياح والضجيج كأن به جنة .. « يا بلاش بخمسة صاغ الأقة يا موز » .. « نبيع بلاش يا ناس » .. « يا عالم بنص الثمن » . « الحق نفسك قبل ما يجير » .

وأسرعت إلى الرجل لألحق نفسى قبل ما يجير !!
كيف لا ؟ . وهو يبيع بنصف الثمن .. يبيع أقة الموز التى ثمنها عشرة قروش بخمسة فقط .

ولم تكن لددى فكرة حقيقية عن ثمن أقة الموز .. لا لأنى لا آكل الموز بل لأنى لا أشتريه .. فأنا أجده فى البيت « مشترى » جاهزًا ، فهم يحذروننى فى البيت أن أحاول شراء أى شىء قط ، لما عهدوه فى من « خيابة » و « غشومية » ، والظاهر أنهم لم يظلمونى بتهمتهم لأننى غشيم فعلا ، فما أذكر أنى اشتريت شيئًا إلا وكان إما فاسدًا أو بضعف الثمن ، وما زلت أذكر حتى الآن التين الحامض ، والتفاح المعطوب ، وغيره وغيره .. مما اشتريته ، وكان نصيبه الاستقرار فى صفيحة الزبالاة بدلا من بطوننا .

ومن ذلك الحين ، وقد استقر بى الرأى على أن أقبل نصيحتهم وألا أحاول أن أبتاع شيئًا قط .. بل أعطيهم النقود وأترك لهم عملية الشراء .
ولكنى وجدت نفسى فى هذه اللحظة مجبرًا على أن أقوم بعملية الشراء بنفسى .. مجبرًا على أن أتقدم إلى الرجل وأفصله فى الثمن وأفحص جيدًا عينة

الموز ، وأتأكد أنه ليس به شيء فاسد .
ووقفت أمام العربية .. وداخلنى الاطمئنان .. من ذلك الضجيج الذى يحدثه
الرجل ، ومن أقواله التى يعلنها صائحًا « إنه يبيع بلاش » .. وقلت لنفسى : إن
خمسة قروش لا شك ثمن زهيد جدًا لأقة الموز .. وأنه لا يمكن لإنسان شراؤها
بأقل من ذلك .

وألقيت على الرجل التحية :
— السلام عليكم .

فلم ينجبنى الرجل ، إذ حال صراخه وصياحه ونداؤه على الناس أن يلحقوا
أنفسهم دون سماع تحيتى ، فلم أجد بداً من الصياح بصوت عال صارخًا فيه :
— بكام الأقة ؟

ونظر إلى الرجل بطرف عينه ، وقد تجهم وجهه :
— بنقول بخمسة .. بنبيع بالخسارة .. والله حرام .
وساءنى أن يبيع الرجل بخسارة .. وكرهت لنفسى .. أنا صاحب المروءة
الذى أنوى أن أحسن بما أشتريه منه أن أتسبب للمسكين فى خسارة بضعة
قروش ، وتبين لى من عبوس وجهه وتجهمه أنه صادق فى قوله .
وكان الرجل قد عاود صراخه وصياحه .. فصحت به حتى يسمعنى :
— بستة .. تبيع بستة ؟

وصمت الرجل ونظر إلى فى دهش ، وقال لى متسائلًا :
— إيه ده اللى بستة ؟

— الأقة .. أقة الموز .

— قلت لك بخمسة .

— لأ بستة .

ونظر إلى الرجل نظرته إلى مخبول ، فأردفت قائلاً شارحًا وجهة نظرى :
— حرام تخسر .

— نعمل إيه .. أكل العيش عايز كده . مرة نخسر ومرة نكسب .
ولكنى أصررت على أن أشتري بستة .. وأن أتبع للرجل « مرة تكسب »
بعد طول خسارة .

وبدأت أفحص الموز جيداً .. حتى لا يخدعنى الرجل فيعطينى موزاً معطوباً
يخجلنى أمام الأولاد وأبيهم .. ووجدت الموز الموضوع على العربة من نوع سليم
ليس كثيراً أن تدفع فى أفته ستة قروش .. بل لقد وجدته فى الواقع لقطة .. إلى
حد أنى قررت أن أعود للبائع بعد زيارتى للرجل فأبتاع منه بضعة أقات للبيت حتى
أطلعهم على مبلغ مهارتى فى الشراء .

وقلت للرجل : زن لى خمس أقات .

وتناول قرطاساً من بين كوم من القراطيس موضوعة أسفل العربة وجاهزة
للتعبئة ، وبدأ يعبئ فيه الموز ، وهو مستمر فى صياحه :

— يا بلاش .. بتبيع بلاش يا ناس .. بنص الثمن يا موز .. يا خسارة الموز ..

راح بلاش .

وكلما أمعن الرجل فى الصياح .. كلما أحسست له بالثناء والعطف :..
ولما سيحدث له من خسارة .. وازداد فى تأنيب الضمير .. وأخيراً لم أعد أحتمل
فصحت به :

— خليها بسبعة .

ووضع الرجل القرطاس فى الميزان .. ونظر إالى كأنه لا يصدق أذنيه ، وقال
مستفسراً :

— بسبعة ؟! سبعة قروش صاغ .

— أى نعم .. حرام عليك تخسر كل هذه الخسارة !

وأمن الرجل على قولى بهزة من رأسه ، وإن كنت علمت من نظراته أنه يعتقد
أنى مخبول معتوه .. ثم مد يده بالقرطاس وتساءل ببساطة ، وهو ينظر إالى بطرف
عينيه :

— تحب نخلها بثمانية .. ولا إيه رأيك ؟

فأجبت في حماسة :

— لا مانع أبداً ؟

وحملت القرطاس ومددت يدي إلى الرجل بالأربعين قرشاً ثمن خمس الأقات ، وسرت في طريقي ، وهو يشيعني بنظرة دهش ، ويهز رأسه ، وكأنه يقول : « لله في خلقه شئون » .

وتركت شارع الأزهر وعبرت السكة الجديدة متجهاً إلى « سيدنا الحسين » .. ماراً في طريقي بعشرات الشحاذين من ذوى العاهات والأقذار .. الذين لم يستطع واحد منهم أن يستدر مني قطرة عطف .. بعد ذلك الدرس الذى تلقينته في مجمع الشحاتين من صاحبي الشحات والحاجة نودق . سرت في طريقي لا آبه لأحد من أولئك الشحاذين حتى استوقفتني صوت يصيح بلهجة توسل :

— يا بيه .. يا سيدنا الافندى .

ووقفت لأرى المنادى . وكنت أسير إذ ذاك على الرصيف المقابل لسيدنا الحسين ، وتلفت حولى .. فوجدت المنادى رجلاً ريفياً قد جلس القرفصاء وبجواره امرأة ريفية تدلى ثوبها الأسود فغطى الأرض من حولها .. ولفت رأسها بشال أسود .. وأمامها وضع سبت متوسط الحجم ملئ بالبيض ، وفوق البيض زوج من الحمام .

وكان منظرها يؤكّد للنّاظر أنهما قد أتيا من الريف تَوّاً .. وكأني بهما يعرضان على الناس نموذجاً للسذاجة الريفية .

واقتربت منهما وسألت الرجل عما يريد ، فأجاب في كثير من الخجل والمسكنة :

— عدم المؤاخذه يا بيه .. احنا جايين من البلد علشان نزور الحسين ويادوبك وصلنا .. وامد إيدي أدور على المحفظة لقيتها ضاعت باللى فيها .. انسرفت ..

وقعت .. خدعها ابن الحلال .. الله أعلم .. ومختارين يا سيدنا الافندى نعمل
إيه .. بس لو كان معانا أجره السفر .

وفهمت من الرجل ما يريد . ولم تكن هى المرة الأولى أن يطلب منى أمثاله
أجرة السفر ، فقد كانت إحدى طرق الشحاذاة والخداع المعروفة .. وقد حدث
أن أعطيت أحدهم أجره السفر ثم مررت به بعد ساعات فتقدم إلّى يعيد نفس
« المونولوج » .

وهمت بأن أقول للرجل « على الله » ولكنى وجدته يردف قائلا :
— يا سيدى البيه .. احنا مش وش شحاته . وربنا ما يحكم علينا أبداً .. أنا
مش عايز منك إحسان . أنا معايا سبت بيض وجوز حمام جايبته معانا من البلد ،
تعملش معروف تشتريه مننا .. وتدينا ثمنه أجره السفر .. ربنا يعمر بيتك .
وهنا قطع علىّ الرجل كل الوسوس .. ولم يبق مجال فى أن أشك أنه شحاذا
محتمل .. فالرجل لا يريد إحساناً بل يعرض صفقة للبيع .. يريد أن يعطى البيض
ويأخذ نقوداً .. فهو رجل ساذج قد أتى وامرأته لزيارة الحسين فوقع فى يد نشال
محتمل سلبهما نقودهما .. والرجل لا يريد أكثر من أن يستبدل بالبيض والحمام
نقوداً تمكنه من العودة إلى بلده والفوز من زيارة الحسين بالإياب ..

وخطر لى خاطر ملأنى طرباً .. إنى أستطيع أن أضرب عصفورين بحجر .
ماذا علىّ لو ابتعت من الرجل البيض والحمام فأنقذته من ورطته ، ثم حملت
السبت بما فيه إلى بيت صاحبى المسكين مع ما أحمله من الموز فتكون هدية تفر بها
عينه وعين امرأته وأولاده ، وتفك ضيقهم .
برافو .. هذا توفيق من الله ، إن الأعمال بالنيات .. وهكذا يفتحها الله فى
وجه كل صاحب مروءة وذى فضل .

وسألت الرجل عن ثمن البيض والحمام ، فأجابنى بأنه لا يريد أكثر من أجره
السفر ، وهى سبعون قرشاً .. مع أن السبت بما فيه لا يقل ثمنه عن مائة قرش .
ومددت يدى فى المحفظة فأخرجت للرجل جنيهاً ثم أعطيته له قائلاً :

— هذا ثمن البيض والحمام .

ثم أخرجت سبعين قرشًا وناولتها إياه قائلاً :

— وهذه أجرة السفر .. ميسوط ؟

وحاول الرجل أن يعيد إليّ الجنيه قائلاً : إنه لا يريد إحسانًا ، ولكنني أجبرته على أن يأخذه .

ومددت يدي لأحمل السبت ، ولكن شيطان الشك وسوس في نفسي فجأة قائلاً : إياها الأحمق .. من يدريك أن الرجل يخدعك ، وأنه محتال يتظاهر بالبراءة . وأن البيض تألف « ممشش » .

وترددت برهة .. من يدريني حقًا ؟

وبدت على الحيرة .. وأخذت أنقل البصريين سبت البيض ووجه الرجل .. فوجدت وجه الرجل ينم عن منتهى الطيبة والسذاجة . وخيل إليّ أني أظلمه بشكوكي ، وقلت لوسواس الشك : إن الرجل طيب مسكين لا يبدو عليه قط أنه محتال .

ولكن هاتف الشك أجابني مغيظًا :

— أيها الأبله .. إنك أنت الطيب المسكين .. والله لقد صدق أهلك حين حذروك أن تحاول الشراء .. إن البيض ممشش . إن الرجل يخدعك .

ولم أجد خيرًا من أسكت هاتف الشك .. وأثبت له أن الرجل طيب مسكين .. فقلت للرجل وأنا أتناول السبت من يده .

— أوعى يكون البيض ممشش ؟

— ممشش ؟! أستغفر الله .

وبدا الألم على وجه الرجل .. وسرعان ما مد السبت وتناول بيضة وأسرع بكسرها وأراني إياها رفعها إلى فمه وابتلعها وقال :

— يا سيدنا الافندى .. ده بيض طازه من تحت الفراخ هو احنا لا سمح الله
حانا ناكل بيض ممشش .

ثم مد يده ، وتناول بيضة أخرى وشربها قائلًا :

— وادى واحده كان .. يا بيه دا على المكسر .

وهنا لم أجد بدءًا من الاعتذار للرجل عن سوء ظني ، وتناولت سبت البيض وقد وضعت فوقه الحمامتين ، وودعت الرجل وانصرفت .

ولكنى لم أكد أتقدم بضع خطوات حتى وجدت إحدى الحمامتين قد قفزت من السبت ، وأخذت تتواثب أمامى .. ثم أعقبتها الحمامة الأخرى .

وأسقط في يدى ولم أدر كيف أتصرف ؟ أترك سبت البيض والموز على الرصيف وأعدو وراء الحمام .. أم أترك الحمام ينطلق هاربًا ؟

وكرهت أن أترك الحمام يفر ، وخشيت كذلك إن أنا تركت البيض والموز . أن أعود فلا أجدهما ، وأخيرًا لم أجد خيرًا من أن أعدو وراء الحمام حاملًا السبت وقرطاس الموز .

وهكذا بدأت أتبع الحمام وأنا أصبح بالناس أن يعاونونى على الإمساك به ؛ ولم تمض لحظة حتى كان الشارع كله قد تكأكأ وراء الحمامتين ، وأخذ الناس يعدون ويتصايحون .. وازداد الهرج والمرج والضجيج والعجيج ، وقلب الشارع إلى شبه مظاهرة .

وسأل أحدهم آخر عن سبب الازدحام فأخبره :

— لازم حرامى .

وسرى بين الناس أن المطارد حرامى .. وسرعان ما انقلب الصياح إلى ..

حرامى .. حرامى .

ووجدت نفسى بين أفواج الناس المتصايحين والمتصاحبين .. وقد انقطعت كل صلة لى بالحمامتين ، ولم يعد لى أى أمل فى لقاءهما ، فلم أجد خيرًا من أن أولى وجهى شطر بيت الرجل ، وعفا الله عن الحمامتين الهاربتين .

وصلت إلى البيت أخيرًا .. وقد تصيب منى العرق وتصلبت ذراعى من قرطاس الموز وسبت البيض ، ووضعت السبت على الأرض وقرعت الباب

وسمعت صوتًا نسائيًا يجيبني :

— مين ؟

فاجبت الإجابة الطبيعية :

— أنا .

فعاد الصوت يسأل :

— انت مين ؟

ولم أر فائدة من أن أقول — أنا مين — لأنى واثق أنهم لن يعرفونى من مجرد

ذكر اسمى .. فزيارة مثلى لا تخطر لهم قط على بال .. وأجبت على سؤال المرأة

بسؤالى :

— محمد افندى موجود ؟

— أيوه .

ثم سمعت الصوت يصيح :

— يا سى محمد .. يا سى محمد .. واحد عايزك .

كل ذلك والباب لم يفتح بعد ، ثم انفتح الباب فبدا لى من ورائه طاہور من

البنين والبنات يتطلعون بأبصارهم محملقين فى وجهى .. ثم لمحت « سى محمد »

يظهر من وراء الطاہور . وأطل على برأسه وقد بدا عليه دهش شديد ، ثم صاح

مرحبًا لى وهو فاغر فاه :

— أهلا وسهلا .. اتفضل .

وبدا عليه فجأة ارتباك شديد ورأيت يده يهزول إلى الداخل ولم يصعب على أن

أدرك سر ارتبائه فقد كان يرتدى أحد قمصان امرأته .

وأدخلنى الصبية إلى حجرة — المسافرين — وهى بضعة مقاعد لأكيه

متداعية من بقايا الجهاز وقد توسطت الحجرة مرتبة فرشت على الأرض ..

وأسرع أحد الصبية بطيها وحملها خارج الحجرة .

وبعد لحظة أقبل الرجل وقد ارتدى كامل ثيابه .. ولم أشك عند ذاك أنه

يتشارك وامرأته ثياب المنزل ، وأن جلاله من قمصانها .
وانهالت على من فم الرجل عبارات الترحيب .. وهو يسترق النظر بين آونة
وأخرى إلى القرطاس وسبت البيض . وبعد لحظة أقبلت امرأته وبدأت تشاركه
في الترحيب بى .. وفي استراق النظر إلى السبت والقرطاس .
وانتهزت فرصة لحظة خفت فيها ألفاظ الترحيب .. فدفعت للمرأة بالقرطاس
والسبت وقلت فى لهجة متواضعة :

— دول للولاد يا ست زكية .

— وليه يا خويا التعب ده .. حقا ما لكش حق .

ولحت رعوس الأولاد تطل من الباب وقد أرهفت السمع والبصر .
وبدأنا الدردشة .. فأخذت أقص عليهم قصة البيض والحمامتين الهارتين ،
ولكنى لم أكد أبداً فى وصف الرجل الرفي والمرأة ، حتى وجدت الست
« زكية » تغفر فاهها .. تضرب بيدها على صدرها وتصيح بى :

— يا ندامة .. هم عملوها فيك انت راخر .. هو احنا موعودين ؟

وسألها فى دهش :

— مين هم اللى عملوها فى ؟

— النصايين الغشاشين . قالوا لك عايزين أجرة السفر ؟

— أيوه .

— تمام .. زى ما قالوا لسى محمد .. وخذ منهم سبت البيض والحمامتين
وفاكر أنه جاب لقطة .. وطلع البيض كله ممش .

وضحكت فى ثقة .. ونظرت إلى المرأة نظرة الاطمئنان وقلت لها :

— ما حدش يضحك على أبداً أنا اشتريته على المكسر .. كسر الرجل أمامى

بيضتين .. زى المشمش وشربهم .

— دانت اللى شربتهم .. دول البيضتين الوحيدتين اللى مش ممشين فى السبت

كله .. ياريت ما شربهم ! كنا استنفعنا بيهم .

ولم أصدق المرأة .. فقد تناول الرجل البيضتين أمامى من وسط البيض ولم تكن بهما أية علامة مميزة . وطلبت من المرأة أن تحضر طبقاً لكى أثبت لها أن البيض سليم .

ولم تحضر المرأة طبقاً بل أحضرت .. حلة كبيرة .. وبدأت فى تكسير البيض . وكسرنا كل ما فى السبت فلم نجد به واحدة سليمة . وسألتنى المرأة فى حسرة :

— والحمام طار ؟

فأطرقت برأسى فى خجل شديد وقلت :
— أيوه .

— تمام .. زى ما حصل مع سى محمد .. زمان الحمامتين قاعدين دلوقت فوق سبت تانى .

وهنا أدركت الخديعة وعلمت أن الرجل الريفى وامرأته والحمامتان يكونون عصابة لبيع البيض الممشش . والحمامتان مدربتان على الجلوس على البيض حتى تتم الصفقة ثم تقفزان من السبت وتعودان إلى الرجل مرة أخرى ، لتقوما بالدور المطلوب .

وملأنى خجل شديد وأحسست أنى كنت أحمق معتوهاً .. لقد خدعنى رجل ريفى وامرأة ساذجة وحمامتان !

ونظرت إلى قرطاس الموز فوجدت فيه بعض العزاء .. وقلت للمرأة :
— معلش .. حصل خير .. خلى الأولاد ياكلوا موز . وقامت الست « زكية » فأحضرت صينية .. وبدأت فى تفريغ الموز فإذا بالقرطاس الكبير — عزائى الوحيد — لا يحمل من الموز إلا ما يقرب من أقة ، قد وضعت على سطح القرطاس .. أما الأربع أقات الباقية .. فقد كانت عصيدة موز .. أو خليطاً من موز مخبوض تالف وحجارة وزلط وأشياء مما ثقل وزنها وخف ثمنها .. أشياء لا علاقة لها قط بالموز .

يا للرجل المحتال النصاب .. لشد ما خدعنى وسخر منى وهزأ بى .. لقد كان
القرطاس محشواً بهذه القمامة .. ولم يفعل هو أكثر من أن غطاه بيضع أصابع من
الموز السليم .. وهكذا أخذت الأفة بأربعين قرشاً .. يا بلاش .
وأحسست أن العرق يقطر منى .. وأصابنى من الخجل ما لم يصبنى فى
حياتى من قبل .. ووجدتنى أنقل البصر بين الرجل والمرأة وحلة البيض الممشى
وصينية الموز وهمست لنفسى :
— ليس الذنب ذنبى .. إنه ذنب الذى سكب النفاق والغش والخديعة فى
النهر .. ماذا يفعل ذو مروءة بين أهل الخداع فى أرض النفاق ؟

جنون المروءة

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .
 كيف تحزنون على شيء . وأنتم لا شيء ؟
 فيم حزنكم .. وبعد لحظة أو لحظات
 ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟
 أيها الناس ، لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم
 أنفسكم ضائعون .. كيف يحزن ضائع على
 ضائع ؟ .. وهالك على هالك ؟ .. وزائل على
 زائل ؟ ..

جلست أمام الرجل وامرأته وقد تملكني خجل شديد . وأحسست أنه ليس
 على وجه الأرض من هو أشد مني خيبة وأكثر غفلة .. وحز في نفسي أن أجد أول
 دفعة من دفعات مروءتي تذهب بدداً .. بفضل بلاهتي ولؤم أهل الغش
 والخداع .

وتذكرت المثل الذي عودتني والدتي أن تلقاني به عندما أدخل عليها بهدية
 تافهة وهو — ياما جاب الغراب لامة — ووجدت أني ما استحققت ذلك المثل
 كما أستحقه في هذه اللحظة .

ولم تكن فجيعتي في مجرد حزني على النقود التي ذهبت سدى ، أو في غيظي
 من أن أكون صيداً سهلاً وأحمق مأفوناً مخدوعاً يضحك عليه بائع جاهل وريفي
 ساذج وحماتان بريقتان ، بل كانت فجيعتي في إحساسي بأنني قد سببت للرجل

المسكين فجيعة .. وأن إحسانى إليه قد قلب إساءة ، ومحاولتى إسعاده قد جلبت له الشقاء . فقد لوحث له بهدية براقة خاوية فزدته وأولاده وامرأته حرمانًا فوق حرمان .. ونكبته فى سبت بيض وأربع أقات موز ، فهو لا شك يشعر أنه هو المخدوع الخاسر وأن المال الضائع ماله .. وأنه — لولا خييتى — تتمتع وأهله بالبيض والحمام والموز .. ولوفر على نفسه طعام يومين .

ولم أشك فى أن المرأة وأولادها يلعنوننى فى سرهم .. وأنهم يعتبرون زيارتى مصائبًا حل بهم .

ومضت برهة والسكون سائد والصمت مخيم .. وصينية الموز التالف ... وحلة البيض الممشش .. قد تمددتا أمامنا كأنهما « قتيل » .. وعلامات الحزن قد كست وجوهنا كأننا فى محزنة .

وأخيرًا تنهد الرجل وقال فى صوت خافت ونبرات ممدودة :
— وحدوه .

فعلت أصواتنا تتبعه قائلة :

— لا إله إلا الله .

وبدأت أعود لنفسى ملقيًا عن كاهلى عبء ذلك الحزن الذى بعثته فى الخديعة التى أصبت بها .. مقنعًا نفسى بأن — قضا أخف من قضا — ولقد كانت تلك هى خير وسيلة أستعين بها على طرد ما يتتابنى من الحزن أو الندم أو الضيق وأجعل بها نفسى فى حالة رضاء تام .. فما نزل لى من مصابب إلا ورأيت فيه خيرًا مما كان يمكن أن يكون .

ما أحق الإنسان ! يجعل من حياته سلسلة مسببات للحزن . يحزن لأوهى الأسباب وأتفه العللات .. فى دنيا ليس بها ما يستحق الحزن .. لإنسان تافه فى دنيا تافهة .. يحزن المرء لأن بقعة حبر قد سقطت على ثوبه الأبيض فأتلفته ، ولو تذكر عندما أصابه الحزن على ثوبه أنه ليس أسهل من أن يطوى هو وثوبه الأبيض تحت عجلات الترام ، ليغرق ثوبه بالحبر وهو هائى سعيد .

يحزن المرء لأنه غلب في صفقة وأن البائع قد خدعه في بضعة قروش ، ولو علم أن جرثومة صغيرة قد تسلبه عشرات الجنيهات لكى ينجو من مرضها لما أحزنه قروشه الضائعة .

يحزن المرء إذا فقد متعة من المتع ، ولو درى أنه في غمضة عين قد يفقد نفسه .. لما أسف على متعة زالت .

أيها الناس .. لا تحزنوا .. لا تحزنوا .

كيف تحزنون على شيء ، وأنتم لا شيء ، فم حزنكم وبعد لحظة أو لحظات ستضحون رمة لا تستطيع حتى أن تحزن ؟

أيها الناس لا تحزنوا على ما ضاع فأنتم أنفسكم ضائعون . كيف يحزن ضائع على ضائع ؟ وهالك على هالك ؟ . وزائل على زائل ؟

وهكذا لم يكن هناك أسهل على من أن أقنع نفسه بأن « قضا أخف من قضا » وأن أهون الشرور وأخف النكبات هو ما حدث لى .. وحمدت الله على أنى ما زلت سليماً معافى متمتعاً بكامل صحتى .. وحمدت الله على أنه لم يسقط على بيت ولم تصدمنى عربة أو ترام ، وأقنعت نفسي كذلك بأنه حتى الخديعة لم تصبنى بخسارة كبيرة .. ألا يجوز أن يكون بائع الموز الذى غشنى في حاجة شديدة إلى النقود التى احتال على أخذها منى ؟! ألا يجوز أن يكون الريفى صاحب البيض سيفك بنقودى ضيقاً ويقضى حاجة ؟! علام حزنى إذا وكل ما فعلت لم يعد أن يكون داخلاً في باب المروءة !

ثم لى أستطيع أن أعوض الرجل عن البيض والموز بالنقود فيكون بذلك لم يخسر شيئاً .. بل ربما استطاع أن يبتاع بالنقود أشياء هى ألزم له من البيض والموز .

وهكذا سرى عنى في لمح البصر ولم يبق على إلا أن أسرى عن الرجل وزوجته ، وأولاده .. وهذا ما لم يكن على بالشىء العسير ، إذ سرعان ما دفعت يدى فى جيبي فأخرجت المحفظة وأشرت للأولاد باسمًا أن اقتربوا .

وأقبل الأولاد فأخذت أنقد كل واحد منهم نصف ريال — على الماشى — طالبًا منهم أن « يشبرقوا » به أنفسهم ، وإن لم يداخلنى شك فى أن الأم ستجمع منهم النقود بمجرد مغادرتى الدار .

وأخذ الصبية النقود عدا واحد منهم بدت عليه مظاهر الخبث ، وجدته يرن القطعة الفضية جيدًا ويعضها بأسنانه فنظرت إليه مستفسرًا :

— مالها ؟

— أخشى أن تكون هى الأخرى ممشقة .

وضحكت مقهقهة .. وأجبت قائلاً :

— لا تخف .. إنها القطعة الوحيدة الكويسة .

ومضت برهة وأنا لأعب الأولاد وأضحكهم .. حتى انفرجت أسارير الأم والأب ، ولم يعد لى شك فى أن أثر كارثة البيض والموز قد زال تمامًا .

وانصرف الأولاد .. وسادت الحجرة فترة صمت .. لم أشك خلالها فى أن الرجل وامرأته كانا يقدحان زناد أفكارهما لعلهما يتوصلان إلى سبب زيارتى .. وعلة ذلك الكرم الحامى الفجائى الذى لا مبرر له .. ترى ما وراء كل ذلك !! وجمعت أطراف مروءتى ، وبدأت أتهجى إلى الغرض رأسًا ، فسألت عن ابنهما الأكبر ، وأجابتنى الأم فى تنهيدة :

— يذاكر .

— وكيف حاله فى الكلية ؟

— والله يا خويا الجدد عامل الى عليه .. حا يعمل إيه أكثر من كده ؟ لكن الدور علينا احتنا الى مش قادرين ندفع له المصاريف .

وتهد الأب وأطرق قائلاً :

— حا نعمل إيه .. العين بصيره واليد قصيره .

وأحسست بما فى قول الرجل من مرارة وألم لأنه لا يستطيع أن يتيح لابنه المجتهد الناجح فرصة إتمام دراسته ولأنه يراه يطرد من الكلية لا لإخفاقه بل لعجزه

(أرض النفاق)

هو عن أن يدفع المصروفات :

وسألت الرجل مترفقا :

— وكم يلزمك من نقود لسداد المصروفات ؟

— عشرون جنيها .

ووجدتني أردد في صوت خافت « عشرون جنيها » .

واعجبا من هذه الدنيا ! عشرون جنيها هي ما يلزم الرجل لكي يؤدي بها واجبا مقدسا نحو ابنه .. بل واجبا نحو وطنه .. عشرون جنيها هي ما يلزمه لكي يتتاع بها علما في بلد يأبى إلا أن يبيع العلم .. عشرون جنيها هي ما يلزمه لكي ينتج للأمة رجلا نافعا .. ومع ذلك لا يستطيع الحصول عليها .

إن العشرين جنيها .. مبلغ كبير بالنسبة لكثيرين غيره ، ولكننا لو بحثنا عما تعنيه العشرون جنيها للبعض الآخر ، وعن الوجوه التي يمكن أن يصرفوا فيها العشرين جنيها لملكتنا العجب كل العجب .

هذه عشرون جنيها تمد بها الحسنة يدها في كبرياء لتدفعها ثمنا لحقبة يد تمسكها يوما أو بعض يوم ، ثم تضيفها إلى عشرات الحقائق المروضة في الصناديق . رغم أنه ليس هناك أية فائدة لحقائق اليد أو لغيرها من التوافه التي يضيع النساء فيها نقودهن .. أعني نقود أزواجهن .

وهذه عشرون جنيها يدفعها آخر ثمنا لبضع زجاجات من الويسكي يحرق بها جوفه وجوف أصحابه في سهرتهم البريئة !!

وهذه — ليست فقط عشرون جنيها — بل مائة جنيه أى — خمسة عشرينات — يدفعها آخر لراقصة ثمنا لبضع هزات للخصر والبطن .

وتلك .. مائة عشرين .. أى ألفان من الجنيهات دفعها صاحبها بمنتهى السهولة على مائدة القمار .

ومالنا نذهب بعيدا .. وآلاف العشرينات تجلس قابضة في الخزائن تغط في نومها .. حتى يثوى أصحابها في أجدانهم ، دون أن يفيدوا منها أية فائدة .

هذه هى العشرون جنيهاً التى يحتاج إليها الرجل لكى يعلم ابنه ، ولكى يمنع الكلية من طرده .. لشد ما عزت عليه وهانت على الآخرين .

واعجباً !.. من هذه الدنيا ومن متناقضاتها .. أيتساوى فيها تعليم الصبى بحقية يد !! أيتساوى مستقبله مع بضع زجاجات من الويسكى ؟ أيفتدى خمسة منه .. بهزات من الخصر والبطن .. ومائة منه بلبلة قمار خاسرة ؟! أيكتر هذا الكهل الأحق نقوده .. ويطرد الصبية من المدارس لحاجتهم إلى النقود ؟ تلك والله سخرية .. وأية سخرية !!

ولكن ما الفائدة من كل هذا ولو بكينا أمام الحساء على حد قولهم « من كل عين جفان ».. واستعطفناها أن تتنازل عن الحقية وتكفى بالعشر التى لديها .. فى سبيل أن يعود الفتى إلى كليته .. لما كان يصيبنا منها غير نظرات دهش وازدراء واحتقار .. ثم تقلب شفتيها ، وتقول من أنفها : « وأنا مالى » .

ما الفائدة .. ولو سألنا صاحب زجاجات الخمر .. أو صاحب الراقصة . أن يتنازل عن متعة ليلة .. فى سبيل إنقاذ مستقبل الفتى .. لكان نصيبنا السب والطرد ؟

ما الفائدة .. ولو قلنا لصاحب الكنوز .. أخرج كنوزك ، ولو نحس لكى — تشم نفسها — لاتهمنا بالجنون .

هذه تمنيات عديمة الجدوى ، وأفكار لن تفيد الرجل بشيء .. إن المهم هو أن أفعل أنا شيئاً ، وأن أعجل بإعطائه النقود لكى يعيد ابنه إلى الكلية .

وتحسست المحفظة فشعرت بالغبطة .. إذ كان بها ما يكفى لمعونة الرجل . كان بها عشرون جنيهاً أخذتها من الدولار من النقود التى حجزتها للتصيف . أترى التصيف أهم من مستقبل الفتى ؟! طبعاً لا .. إن زوجتى ستفزع فى مبدأ الأمر ، ولكنها بلا شك ستقتنع فى النهاية وستشكرنى على ما فعلت من مروءة .

وفتحت المحفظة وبدأت أعُد ما بها من نقود .. والرجل وامرأته ينظران إلّى فى

دهش شديد .. فوجدت بها عشرين جنيهاً ، وبضعة قروش .. فحمدت الله ..
إذ كانت القروش تكفى أجر الركوب لعودتي إلى الدار .
ومددت يدي إلى الرجل بالنقود وقلت ببساطة ، وقد تملكني شيء من
الحياء :

— هذا المبلغ قد يكون فيه الكفاية لإعادة محمود إلى الكلية .
وارتج على الرجل من فرط الدهش ، وبدأ لي كأنه غير مصدق ، ثم قال في
صوت خافت :

— ولكنني أخشى ألا تسمح لي الظروف برده بسرعة ؟
— لا عليك .. لا ضرورة لرده أبداً .. كان الله في عونك .
ووجدت الرجل قد اغرورقت عيناه وأطرق برأسه ، ولحت امرأته ترفع
كفها فتمسح به عينها ، ثم ترفع يديها وعينها إلى السماء وتهمس في لهجة
ملؤها الإيمان :

— يارب .. يا ما انت كريم يارب .
هل أستطيع أن أصف تلك المتعة التي أحسست بها وقتذاك ؟
لقد أحسست — من فرط المتعة التي أصابتني — أن ما فعلته لم يكن من
المروءة في شيء .. إن ما فعلته لا يعدو أن يكون صفقة رابحة .. كل ربح .
لقد دفعت للرجل عشرين جنيهاً .. اشتريت بها من المتعة ما لا يقدر بمئات
الجنيهات .. لا تظنوا بقولي مبالغة كاتب .. ولا تحسبوه من باب الترويح
للفضيلة .. فأنا لا أكره في حياتي شيئاً كالنصح والوعظ .. وتأكدوا عندما أقول
إني حصلت على متعة تساوي مئات الجنيهات أنني لم أجاوز الواقع .. وأن متعتي
كانت أكثر من متعة صاحب الراقصة التي دفع لها مائة جنيه ، أو متعة المقامر الذي
دفع مئات الجنيهات .. إن متعة المروءة لا تعادلها متعة ، ولذة الإحسان ومعاونة
الغير لا تساويها لذة .. بشرط أن يكون الإنسان واثقاً من أنه قد وضع الفضل في
موضعه .

وتركت المرأة الحجرة ، وقد تهلل وجهها بشراً وفاضت من نفسها السعادة وأقبل على الرجل يشد يدي .. قائلاً :

— كيف أستطيع أن أرد لك الجميل .. إنك لم تعطيني عشرين جنيهاً .. إنك أعطيتني سعادة ابني ومستقبله .

وبعد لحظة عادت المرأة ، وقد اصطحبت معها ابنها الأكبر .. محمود .. الذى لم أكن قد رأيته حتى تلك اللحظة .. فقد كان منهمكاً فى الاستذكار ، رغم علمه أن الكلية قد طردته .. وأن أباه لا يملك ما يستطيع به إعادته إليها .

وأقبل على الفتى .. نحيل الجسد ، صاحب الوجه .. وتناول يدي فطيع عليها قبلة حارة ملؤها الإخلاص وعرفان الجميل ، وقال فى صوت خافت :

— أشكرك يا سيدى .. هذا دين لن أنساه فى حياقي أبداً .

ثم جلس الفتى بجوار أبيه ، ومضت فترة سكون .. ملأني فيها إحساس بالحنج والتواضع ، وأنا لا أكره شيئاً كهذا الإحساس ، فسرعان ما حاولت إخراج نفسى منه قائلاً للصبي بصوت ضاحك :

— إذا نجحت بتفوق فسأتنازل لك عن الدين .. ما رأيك ؟.

— سأتفوق إن شاء الله .. ولكن لن أنسى الدين .

— هل ستذهب فى الغد إلى الكلية ؟

وكان سؤالى .. لمجرد الحديث .. فما كان لدى أقل شك فى أن الفتى سيذهب إلى الكلية ، إذ لم يعد هناك ما يمنعه من الذهاب ، بعد أن حصل أبوه على المصروفات .

ولكننى وجدت وجهه قد علتة سحابة هم .. وبدا كأنما قد تذكر فجأة ما أقلقته وأزعجه ، وظهرت عليه علامات الحيرة والتردد وسمعتة يهمس إلى أمه فى صوت ملتانع :

— البدة !

ووجدت الأم تضرب صدرها بيدها وتحملق بعينها .. ثم تقول فى لهجة يائسة :

— آه .. البدلة .

أما الأب فقد أطرق ، ثم قال فى شبه تعزية :

— لا بأس .. البدلة يمكن تدبيرها .

وهزئت رأسى مستفسراً عن جليلة الأمر ، فأجابتنى الأم :

— لقد بعنا بدلته الوحيدة التى يذهب بها إلى الكلية إلى بائع الروبايكيا

فى هذا الصباح .. فقد احتجنا إلى نقود .. وكنا قد ضربنا صفحاً عن عودته إلى

الكلية .. فبعنا البدلة .. أو الشئ الوحيد الذى لم يعد إليه حاجة .. يا خسارة

لقد راحت بنصف الثمن !

ونظرت إلى الفتى فوجدت حجمه لا يختلف كثيراً عن حجم أبيه فقلت مقترحاً

أحد الحلول :

— لا بأس .. يمكنه أن يرتدى بدلة أبيه .. حتى ندبر له بدلة .

وهز أبوه رأسه وتساءل :

— وأنا ؟ كيف أذهب إلى الديوان ؟

وخجلت من نفسى .. فقد أخرجت الرجل .. إذ لم يكن هناك شك فى أن

كل ما لديه من ثياب هو بدلة واحدة .

وهنا ظهر تأثير جرعة المروءة ، التأثير الجنونى الحاد .. الذى جعل كل ما فى

من صفات قد تضاعل وانكمش إلا شيئاً واحداً هو المروءة .

لقد نهضت من مقعدى فى سكون .. وبدأت فى خلع الجاكتة ، ثم البنطلون

والقميص ، ووقفت أمام الرجل وامراته وابنه .. بالفانلة واللباس والطربوش

والحذاء ماذا يدى إلى الفتى بالبدلة والقميص .

وبهت القوم .. وفغروا من الدهش أفواههم .. لقد كان كل ما فعلته بهم من

أنواع المروءة ، رغم ما به من شذوذ وغبابة — شيئاً معقولاً .. محتملاً .. قد

يفعله الإنسان وهو ما زال بعقله .. أما أن تبلى فى المروءة إلى حد أن أخلع ثيابى

وأدفع إليهم بالبدلة تاركاً نفسى بالفانلة واللباس .. فهذا أمر .. لا أظن أن

الإنسان يقدم على فعله .. وهو يتمتع بقواه العقلية .
ونظر إلى الرجل وزوجته وابنه في حذر دون أن يجسر أحد منهم على أن يمد
يده ليأخذ البدلة .. وبدأوا يرقبوننى في ذعر وخشية كما يرقبون ذا جنة !!
ولم أفهم لدهشهم سبباً ؟

أى شىء فيما فعلت يستحق العجب ؟!!
إن الفتى لا بد له من الذهاب إلى الكلية .. ولا بد للذهاب إلى الكلية من بدلة
يرتديها .. إذ ليس عنده بدلة .. فقد باعوا بدلته .. وهو لا يستطيع أن يرتدى
إحدى بدل أبيه .. لأن أباه لا يملك سوى بدلة واحدة .
أما أنا فلدى عدة بدل .. فلم لا أعطيه بدلة يذهب بها إلى الكلية ؟!! هل فى
فعلى هذا أمر عجيب ؟

هل تراهم قد دهشوا لأنى خلعت البدلة فى التو والحين وأعطيتها إياهم ؟ ألا
يعلمون أن خير البر عاجله ..؟
أم تراهم قد دهشوا لأنى وقفت أمامهم هكذا بالفانلة واللباس ؟ .. أجل ..
هذا هو لا شك سبب دهشتهم .

ولكننى مع ذلك لا أرى فيه ما يستحق العجب .
ترى أى فارق هناك بين أن أكون بالبدلة .. أو بالفانلة واللباس ، أو حتى
عريان ملط ؟

ما هذا الاعتبار الذى يقيمه الإنسان للملابس !!
هل هناك أدل على سخف الإنسان من مسألة الملابس ؟
لقد خلقه الله ، بلا ملابس لأنه لا حاجة به إلى الملابس ، ولو كان به إليها
حاجة .. لخلقها الله معه .. كما خلق الفراء للحيوان والريش للطيور .. فيولد
الإنسان من بطن أمه وفى قدمه حذاء .. وعلى رأسه طربوش أو برنيطة .. ولكن
الله وهو العليم الحكيم .. وجد أنه — كويس كده — .. وأن — كفايه عليه —
الجلد والشعر .. اللذين وهبهما له .. فتركه يهبط من بطن أمه عريان ملط ..

فماذا فعل الإنسان الأحق الغبى ؟ .. هل رضى بما خلقه الله عليه ؟ .. وهل قنع بحاله كبقية المخلوقات ؟!

أبدأ .. إنه لم يرض عن شكله .. الشكل الذى خلقه الله عليه .. وأبى إلا أن يضيف من عنده الحواشى .. ويضع الرتوش .. فغطى رأسه بطربوش أو قبعة زاعماً أنها تزينه وتقيه لطشة الشمس .. ولست أدري والله ماذا تفعل الشمس مع سواه من الحيوانات التى لا تغطى رءوسها .. هل تراها تصيها بلطشة أم أنها لا تخص بلطشها إلا الإنسان ؟!

ثم حشر بعد ذلك بين ساقيه سروالا .. حتى يستر عورته .. ولو تركها عارية .. لما شعر أحد قط أنها عورة .. بل لتساوت مع غيرها من أعضاء الجسم .. ولاعتادها البصر حتى لم تعد تثير أقل اهتمام .. وليس أدل على ذلك .. من أنه كلما ازدادت النساء عرياً كلما قلّ تأثيرهن .

ثم بدأ الإنسان يفتن بعد ذلك ويثقل كاهله بالثياب المختلفة أشكالها وألوانها .. ويخنق نفسه بالياقات والكرافات .. بلا أى سبب ولا داع ، ويصنع الفراك والآتموكن والاستامبولينا .. وغيرها من السخافات المضحكات ، ويضع على صدره القصب والنياشين .. ويحيط نفسه بالقيود والجلود .. متخيلاً أن فى كل هذا التهريج أبهة وعظمة ، موحياً إلى نفسه .. أن كل هذا يزيده قيمة .

أما الإناث ، فكان الله فى عونهن ، فقد عصبن بطونهن ، وشددن صدورهن ، ومشين على أطراف أصابعهن ، رافعات كعوبهن كأنهن مصلوبات أو مشنوقات ، ملاقيات فى سبيل ملابسهن عذاباً أليماً يحتملنه بنفس صابرة .
لِمَ كل هذا أيها الإنسان الغبى ؟ لِمَ تضع عمرك فى أوهام الملابس ؟

تصوّر لو أن أى حيوان .. فعل ما فعلت .. وارتنى من الملابس ما ارتديت ، وصنع لنفسه من ألوان المعاجين والمساحيق والروائح مثل ما صنعت .. ترى كيف كنا نضحك عليه ونستسخفه ؟!

وبهذه الأفكار عن الملابس .. وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه .. بالفائلة

واللباس بمنتهى البساطة .. وقد مددت يدي بالبدلة إلى الفتى .
وكان الرجل أول من تكلم فقد استطاع التخلص من دهشه وقال لى :
— لا يا سيدى .. لا .. أوصلت بنا الأتانية إلى حد أن نخرجك من منزلنا
عارياً .. إننا نستطيع أن ندبر أمر البدلة !!
ثم قالت المرأة :

— يا ندامة .. يا عيب الشوم .. نقلعك هدومك !
وهززت رأسى قائلاً فى هدوء :
— وماذا فى ذلك .. إن لى بدلاً أخرى كثيرة .
وهنا تكلم الفتى لأول مرة ، فقال فى لهجة ملؤها الأدب والاحترام :
— كتر خيرك يا سيدى .. إننا عاجزون عن شكرك .. ولكننا لا نستطيع أن
نأخذ بدلتك ونتركك هكذا تخرج عارياً فى الطريق .. إذا كان لا بد أن تهب لنا
البدلة فيمكنك أن تذهب إلى دارك ثم ترسلها لنا مع خادم ، أو أذهب أنا معك
لأخذها .

ووجدت قول الفتى أقرب إلى العقل .. بل هذا هو الذى كان يجب فعله ..
لولا .. هو المروءة فى جوفى وإشعاعها فى رأسى .. ولولا أنى كنت فى ذلك
الوقت مجنون مروءة .
ولم أقبل قول الفتى .. بل أصررت على أن أعطيه البدلة فى التو .. وألا أغادر
دارهم ، إلا وقد فارقت جسدى .

وبدأ القوم يتوسلون لى ويحاولون إقناعى .. وأنا مصر على رأى .. وأخيراً
لم أجد بداً من أن ألين معهم قليلاً فقلت لهم :
— إذا كنتم تصرون على ألا أخرج من بينكم عارياً ، فإنى على استعداد لأن
أستعير منكم جلباباً أذهب به إلى البيت ثم أعيده إليكم .
ووافق الرجل إزاء إصرارى .. ولكن سقط فى يده .. وبدت عليه حيرة
شديدة .. لم يصعب على أن أدرك سببها !.

إن الرجل ليس لديه جلباب ، فلقد رأيته عند دخولى مرتدياً أحد قمصان زوجته كما سبق لى القول .. فماذا يفعل ؟
ومضت فترة والرجل حائر خجل .. فلم أجد بداً من أن أهوّن عليه وأخرجه من حيرته فقلت له :

— إذا كانت جلاليلك فى الغسيل فهات أى جلباب .. هات القميص الذى كنت ترتديه عند دخولى .. إنه لا بأس به .. فهذا يقضى .
ونهض الرجل ، وهو فى شبه ذهول ، والمرأة وابنها ينظران إلى وكأتهما ينظران إلى حيوان غريب .

وبعد برهة أحضر الرجل القميص الحريرى الذى كان يرتديه عند دخولى .
وسرعان ما ارتديت القميص .. ولحمت الفتى يحاول جهده أن يخفى ضحكة تحاول أن تنطلق من صدره .

ونظرت إلى نفسى فى مرآة قديمة بالحجرة .. فوجدت نفسى — مش بطل — حقيقة أن القميص كان قصيراً ، يصل إلى ما فوق الركبة ، ويكشف عن الشراب والحمالة .. وحقيقة أن فتحة الصدر كانت — مقورة — جداً .
وأن القميص كان بلا أكمام . إلا أن منظرى — على بعضه — كان مقبولا .. عدا ذلك الطربوش الذى كان يبدو على رأسى كأنه شئ نشاز .

والواقع أن القميص كان مريحاً جداً .. إلى الحد الذى جعلنى أصبر وقتذاك على ألا أرتدى البدلة قط ، وأن أحاول جهدى حث الناس على مقاطعتها .

وهكذا وقفت أمام الرجل وامرأته وابنه ، وقد ارتديت قميص النوم والطربوش والحذاء والشراب وحمالة الشراب ويدي المحفوظة لا تحتوى إلا بضعة قروش تمكّننى من العودة إلى البيت راكباً الترام .

ومددت يدي مودعاً القوم ، وقد بدت على وجوههم الحيرة والأسف والذهول ، وخرجنا إلى القاعة ، وهنا سمعت زوبعة من الضحك .. صادرة من بقية الأبناء الذين لم يكونوا قد رأونى بعد وأنا على حالى تلك .

فنهزم الأب .. وزجرتهم الأم .. وهبطت على السلاالم محاطاً بخليط من ألفاظ الترحيب والاعتذار وصدى الضحكات .

وتركت الدار وذهلت إلى الطريق .. وسرت برهة دون أن أحس بأية غربة .. بل كأني ارتديت إحدى بدلات التشريفة .

وكان الطريق أمام الدار خالياً إلا من بضعة أشخاص منهمكين في أعمالهم .. فلم يثر منظري في نفوسهم اهتماماً .. واستمررت في السير على هذه الحال حتى وصلت إلى شارع الحسين .. وهنا أحسست أن الناس بدعوا يتغامزون عليّ ويشيرون إليّ كأني أعجوبة .. ولكنني لم ألق إليهم بالا .. وسرت في طريقي دون أن ألتفت بمنة ولا يسرة .

ولكن التغامز زاد .. حتى أضحي — تلقياً — وبدأت النكات تنال عليّ من الجانبين ، وبدأت أسمع — انت يا باشا — .. و — يا أبو القميص الشفتشي — وأخذ الأمر يزداد حرجاً .. وبدأ الصبية يتكأكون عليّ حتى سقط في يدي .. ووجدت أني لا أستطيع أن أواصل السير على هذه الحال .

ولمحت أحد التاكسيات مقبلاً فوجدت فيه خير منقذ .. فأشرت إليه وسرعان ما اختفيت في داخله ، وطلبت من السائق أن ينطلق بي مسرعاً إلى البيت . وهكذا انطلق بي التاكسي مخترقاً قلب القاهرة ، والسائق ينظر إليّ في دهشة بين آونة وأخرى .. وقد تملكته حيرة شديدة من منظري حتى وصل أخيراً إلى باب البيت .

وهبطت من التاكسي ، فإذا بي أجد أخى أمامي وجهها لوجه .
هو نظر إليّ وفرك عينيه كأنه غير مصدق .. ثم سألتني في ذهول :

— إيه الحكاية ! مالك المره دى .. لسه مصاب بالشجاعة !!

وهزئت رأسي وقلت مؤكداً :

— لا .. المره دى .. مجنون مروعة !!!

بلا نفاق

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة ، وأفاع
 رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن تعطيهم
 إحسانًا فاقذف به إليهم ثم اجر من أمامهم ..
 اعطهم الفضل وفر منهم .. لا تنتظر حتى مجرد
 الشكر .. انج بنفسك .. واذكر المثل .. اتق
 شر من أحسنت إليه ..

وقفت بباب الدار برتديًا قميص النوم الحريمي والطربوش ، وقد أخذ أخى
 يحملق في وجهي في دهشة شديدة .. ويفحصني ببصره من أسفل إلى أعلى ،
 ومن أعلى إلى أسفل . وطالت به الحملقة ، وهو واقف في مكانه كالصنم حتى
 ضقت ذرعًا فصحت به :

— ما لك تحملق في ؟ كأنك لم تر بنى آدم من قبل
 وهز أخى رأسه بشدة كأنه يحاول أن يوقظ نفسه .. ثم لمس عينيه بأصبعه
 ليتأكد من أنه في حالة يقظة ، ثم نقل بصره بينى وبين سائق التاكسى وسألنى
 هامسًا :

— أسار بك التاكسى في الشوارع وأنت بحالك هذه ؟
 — بل لقد سرت أنا بنفسى على قدمى بين الناس بحالى هذه !! ماذا بها ؟
 عيب ١٩

— أبدًا .. عيب ازاي .. ما عيب إلا العيب .. والعيب من أهل العيب مش

عيب .. من قال إن السير بقميص نوم حريمى فى وسط البلد عيب ؟
وتبينت فى قوله رنة سخرية ، فقلت له مغيطاً :

— أيها الغبى الأحمق .. ماذا يضيرنى أن أسير بقميص النوم أو بسواه ؟ ماذا
يمكن أن يغير منى هذا الكساء البالى ؟ إنى أنا، هو أنا .. سواء ارتديت قميص
نوم .. أم بدلة تشريفية .. أم ملاية لف . هذه مجرد قشور .. لا علاقة لها بجوهر
الإنسان .. فاهم ؟

وأطرق أخى ، وقال فى يأس :
— فاهم .

وأشرت إلى التاكسى ، وقلت له آمراً :
— ادفع أجرة التاكسى .

ودفع أخى أجرة التاكسى ، ودلفت وإياه إلى داخل الدار وسألنى
مستفسراً :

— وأين بدلتك ؟ هل تنوى الدخول عليهم بهذا المنظر ؟

— أما عن البدلة فقد تصدقت بها .. وأما عن سؤالك عما إذا كنت أنوى
الدخول عليهم بهذا المنظر .. فأنى لا أجد له معنى .. لأنك ترانى داخلا معك
فعلا .. مم تظننى أخشى ؟

هل تجد فيما فعلت جرماً ؟ إنى رجل صاحب مروءة .. هذا كل ما فى
الأمر . فإذا كانت المروءة تهمة ينجل الإنسان من ارتكابها .. فأنى موافقك على
أننى مجرم خاطئ .. وأنه يجب أن أخشى عاقبة كل ما فعلت .. وأن أخجل من
منظرى هذا .. الذى سببته لى جريمة المروءة .. لا .. لا .. إن منظرى هذا
يستحق الفخر .. إنى لا أخشى ..

ولم أتم حديثى فقد وجدتنى وجهاً لوجه أمام امرأتى .. وقد تطاير من عينيها
شرر مخيف .. وبدت كأنه قدر كبتها مائة عفريت .. أو كأنها عاصفة على وشك
الهبوب .. أو حيوان مفترس سيتحفز للانقضاض على .

وأدهشنى غضبها .. وعجبت لتلك الثورة التى توشك أن تلقانى بها .. إذ لم أذكر أننى قد فعلت شيئاً أستحق عليه ذلك الاستقبال الرائع .. وكسوت وجهى بابتسامة هادئة ، وهزرت رأسى مستفهماً :

— إيه الحكاية .. كفى الله الشر ؟

ولكنها لم تجبنى ، بل انطلقت منها صيحة كالرعد ، استطعت أن أميز منها :

— كنت فى ؟

— عند محمد أفندى .

ورأيتها تضغط على أسنانها ، وقد زوت ما بين حاجبيها .. ونظرت إلى نظرة مفترسة ملؤها السخرية والاثام :

— محمد أفندى ؟ .. محمد أفندى دا يبقى مين ؟

— محمد أفندى الباجورى .. ابن ابن خال زوجة عم أمى .

وبدألى كأن إجابتى زادتها لهيئاً .. وأنه لم يبق سوى سؤال آخر ، ثم تنفجر ، وتملكنى من تلك الحالة دهش شديد .. فقد وجدتنى أقف أمامها موقف المتهم وأى متهم ؟ متهم بشر أنواع الجرائم التى يمكن أن يفكر فيها إنسان ، واقتربت منها لتهدئتها .. محاولاً أن أفهم سر ثورتها .. وسر تلك الأسئلة المحققة التى تلقىها على .

ولكنى لم أكد أقرب منها حتى دفعت يدى بشدة ، ثم انفجرت باكية . وارتمت على الأريكة ، ونظرت إلى أخى ، وقد تملكتنى الحيرة وسألته :

— ماذا حدث .. هل أصابتها جنة ؟

وأجابنى الأخ العزيز فى سخرية :

— هى التى أصابتها جنة ؟ سبحان الله !

وأجابتنى « حماق » التى دخلت الحجرة على صوت بكاء ابتها بنظرة معناها : « جن لما يلبظلك » .

ثم نظرت إلى وقد رفعت حاجبها فى دهش شديد :

— ودا أصله إيه دا كان ؟

ولم أجبها .. بل أجابتها زوجتى وهى تنشج باكية :

— كان عند محمد أفندى .. محمد أفندى ابن خال مرات عم أبوه ، تصدق

الكلام ده يا ماما ؟

وقالت الحماة .. حماها الله :

— محمد أفندى دا بيخرج الناس بقمصان نوم حريمى ؟ حقا بطلوا ده ..

واسمعوا ده .

وهنا بدأ يتكشف لى الأمر ..؟ وبدأ لى أننى متهم بتهمة خطيرة ، فإن قميص

النوم الحريمى قد وجه شكوكهم لى ناحية لم تخطر لى قط على بال .

أجل .. إن امرأتى ظنت أننى لا بد مقبل فى النو من بيت امرأة .. عشيقة أو

رفيقة أو من بنات الهوى .

وفعلا بدأت الموجة الغاضبة تفصح عن شكوكها وتدل بتهمتها :

— دى ؟ معقولة !! تخرج من بيت محمد أفندى بقميص نوم حريمى !! أنا مش

حاستنى معاك ولا ثانية .. اتفضل روح عند اللى كنت عندها .. اللى ادتك

قميص النوم بتاعها .

— يا شيخه ما يصحش الكلام ده .. عيب .. إهدى شويه وخلينى أشرح

لك الحكاية .

— حكاية إيه وهباب إيه .. هو انت خليت حكاية . واحدة داخل من بره

بقميص نوم حريمى .. عايز إيه أكثر من كده .. أبدا .. ما اقعدش معاك أبدا .

— يا ستى حلمك .

وهنا تدخلت الحماة العزيزة :

— حلمها ازاي ؟! دا انت خليتها خل . دا حتى المثل يقول .. إذا ابتليت

فاستروا .. والا لازم تبقى حاجة على البهى .. هو كل من رافق له واحده ..

يقوم يجى البيت بقميص نومها ؟

وهنا لم أطق صبرًا، وأحسست أني أوشك أن أجن فعلًا وصحت بهم صارخًا :
— يا ناس يا هوه .. حاتجننوني .. رفيقة إيه وبتاع إيه .. هي المروءة دى ما
تنفعلش أبدًا فى البلد دى .. هو يعنى حرام لما الواحد يعمل مروءة .. ويحسن
بيدلتة على واحد محتاج .

ونظرت إلّى امرأتى فى غيظ شديد :

— يحسن بيدلتة على واحد محتاج !! طب وقميص النوم جيبته منين ؟

وأجابتها حماقى متهكمة :

— لازم قميص المحتاج .. أصل محتاجين اليومين دول ما يلبسوش إلا قمصان

نوم !!

وقلت أنا ببساطة :

— لا .. دا بتاع أمه !!

وهنا تدخل أخى فأمسك بذراعى وحاول أن يخرجنى إلى حجرى قائلا :

— يا أخى إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟ محتاج مين اللى ديتة بدلتك واداك قميص

نوم أمه ؟. يا أخى عيب .. خليك عاقل .. انت جرى لعقلك إيه ؟

ونظرت إلى أخى فى حمق قائلا :

— انت كان مش مصدق ؟ .. لا .. دى حاجة تجنن ..

وبدأت أضرب كفًا بكف مردفًا القول :

— يا ناس .. يا هوه .. هي عجيبه إن الواحد يعمل مروءة فى الزمن ده ؟ بقى ده

جزاى علشان الراجل محمد أفندى الغلبان صعب علّى .. رحت أساعده بكام

جنه يسدد بهم مصاريف ابنة ١٩ ده جزاى علشان إديت الولد بدلتى يروح بيها

الكلية !. ده جزاى علشان مرضتش أكسفهم وأخرج عريان وخذت منهم

القميص أستر بيه جتنى ١٩ سبحان الله ! بقى بعد ده كله يتقال علّى رجل خياص

ومرافق .. اخص عليكم .

ونظرت إلى زوجتى فبدل أن غضبها قد اشتد .. وأنها لم تفهم من قولى

(أرض النفاق)

إلا شيئاً واحداً هو الذى اخترق أذنها واستقر فى رأسها ليزيدها اشتعالا وهو
قولى : « رحت أساعده بكام جنيه يسدد مصاريف ابنه » فقد نظرت إلى محملقة
وسألتنى :

— انت خدت فلوس من الدولار ؟

وهزئت رأسى ببساطة وقلت :

— عشرين جنيهاً .

— وضيعتهم ؟

— اديتهم للراجل الغلبان يفك بيهم ضيقته .. مش أحسن ما نضيعهم احنا فى

التصيف .

وهنا بلغ السيل الزبى ، وخيل إلى أنها توشك أن تلطم خديها ، وترقع

بالصوت .

ووجدت أخى قد بدأ يتدخل تدخلا جدياً ، فاقترب منها ثم همس فى أذنها

بضع كلمات .. لم أستطع تمييزها .

ووجدت امرأتى قد كفت عن البكاء فجأة .. ونظرت إلى نظرة فزع

وذعر .

وبدا عليها حذر شديد .. ووجدت « حماق » تراجع ببطء متقهقرة بانتظام

من الحجرة .

فلم أشك عند ذاك . فيما قاله الأخ لهما .. إنه لا ريب قد عاد إلى اتهامى

بالجنون ، ولقد همس فى أذنها مذكراً إياها بما سبق أن قال لها عن حاله الجنون التى

أصابتنى أول مرة عندما طلبت منه أن يذهب ليحضر لى جرعة جبن ، وهو يؤكد

لهما الآن أن النوبة قد عاودتنى وأن قميص النوم الذى أرتديه .. لا يمكن أن يكون

دليلا على أنى عائد من عند امرأة .. فما من رجل يذهب إلى عشيقته ويعود إلى

داره بقميص نومها .

إن المسألة كلها ليست أكثر من حالة جنون .

هذا هو ما همس به الأخ لزوجتى وحماق ، وهذا هو ما استطعت أن أقرأه فى

عينيهما .. وفي حرركاتهما .. وفي مغادرتهما للحجرة في خوف وحذر .
وأقبل على الأخ وقد كست وجهه ابتسامة مصطنعة .. تمامًا كما يقبل المرء على
مجنون يحاول تهدئته .. وأخذته على عقله .

وتذكرت ما فعله بي في المرة السابقة .. عندما طلبت منه أن يغيثني من
الشجاعة بجرعة جبن ، وكيف خدعني وغرر بي وأفهمني أنه سيحضر لي كل ما
أطلب ، ثم خرج من الحجرة وأغلق بابها بالمفتاح محاولاً حبسي حتى يبلغ
مستشفى المجاذيب .. وتذكرت أنه لولا شجاعتى التى دفعتنى إلى القفز من
النافذة لكنت الآن نزيل المستشفى .

ولم أشك في أن الأخ المحترم ينوى الآن أن يكرر معى ما حدث في المرة
السابقة ، وأنه سيوافقنى على ما أقول ، ثم يحاول حبسى بعد ذاك . وسيكون
بالطبع أشد حذرًا ، فلا يترك لى فرصة الهرب من النافذة .. وحتى لو ترك لى هذه
الفرصة فما أظننى أستطيع الاستفادة منها .. فما دفعتنى إلى القفز في المرة السابقة
إلا تلك الشجاعة الطارئة التى كانت لى .. أما هذه المرة فلا أظن المروءة
ستجدينى نفعًا في الهرب من الحبس الذى ينوى الأخ أن يضعنى فيه حتى يبلغ
مستشفى المجاذيب .. وعلى ذلك فيجب على أن أكون حذرًا ولا أمكنه من
خداعى .. بل أحاول جهدى أن أفر من الدار بأسرع من لمح البصر .

ووجدت أخى يربت على كتفى برفق ويقول محاولاً التفرير لى :
— لا تفضب منهم .. فهم معذورون .. لا يفهمون معنى للبر أو المروءة ..
إنهم أنانيون لا يقدرّون المعروف . نعم ما فعلت في الرجل وابنه .. إنك إنسان
كامل الخلق .

ووجدته يسحبني من يدي إلى حجرتي . ففهمت ما يقصد . وقلت :
— عن إذنك .. دقيقة واحدة .

وسحبت ذراعى من يده ، واتجهت إلى دورة المياه .. وفتحت باب المطبخ
المؤدى إلى سلم الخدم .. ثم هبطت السلم على أطراف أصابعى حتى وصلت إلى

الحديقة ، والأخ ما زال واقفاً في الحجرة ينتظرني ويدبر خطة حبسى .
ووصلت إلى الباب وخرجت منه متسللاً ، وبعد لحظة احتوانى الطريق مرة
أخرى .. ووجدت نفسى محترًا طليقًا . فاندفعت لأعدو بأقصى ما أملك من
سرعة بالطربوش وقميص النوم الباتستا المقور المشغول بالأجور .
اندفعت فى الطريق أسابق الريح .. والريح — سامحها الله — تندفع داخل
القميص فتنفخه وتملؤه بالهواء .. فكأنى أعدو لابسًا باراشوت .. والطربوش قد
انكيس على أذنى ، وبدأ العرق ينز من أسفله ، وحمالة الشراب قد سقطت فتدلى
الشراب على قدمى وأخذت الحمالة تفرع ساقى والأرض .. وأنا لا آبه
ولا أتوقف .. فما كنت أفكر إلا فى شىء واحد .. هو الوصول إلى حانوت
الأخلاق .

أجل .. إنى لم أعد أحتمل !!
لقد استجرت من الشجاعة بالمروءة . فكنت كالمستجير من الرمضاء
بالنار .. إذ أصابتنى المروءة بشرما أصابتنى به الشجاعة .
صدق تاجر الأخلاق فى كل ما قال .. لقد حذرنى من المروءة فلم أزدجر ولم
أرتدع .

اندفعت بين الناس حاملًا مروءتى بين جنبى أبحث بينهم عن يستحق المروءة
فأعياى البحث .. ووجدت أن النفاق والخداع والغش قد حجب حقيقتهم ..
حتى استحال علقى أن أعرف من يستحق ومن لا يستحق .. وأن الطلاء زائف ،
والمظهر غرار خداع .. إن الشحاذين أصحاب ثراء .. وأصحاب الثراء
شحاذون .. وما من فارق هناك بين مجمع الشحاذين .. ومجمع أصحاب
الملايين .

وعثرت على من يستحق المروءة بين أهل الخداع فى أرض النفاق .. فأعطيته
مما أعطانى الله ، وعدت إلى الدار قرير العين ناعم البال .. منتظرًا أن أقابل
بالإعجاب والتقدير . فماذا كان مصيرى !؟

لقد اتهمت بأننى خائن أئيم .. ولم ينقذنى من التهمة .. إلا تهمة شر منها هى الخبل والجنون .

لا .. لا .. مالى أنا وللشجاعة والمروءة ؟! مالى أنا ولهذه البلايا والمصائب !! مالى أنا وللبضاعة البائرة .. أجلب بها الشقاء لنفسي ؟! لقد صدق التاجر والله حين قال إنها بضاعة عفى عليها الزمن فلم تعد تلائم أهل هذا الجيل . وتذكرت صاحباً لى شديد الطيبة جم المروءة .. جلسنا معاً ذات مرة فى مجمع من الأصدقاء .. وسمع من أحدهم أنه يحس أحياناً بضيق فى التنفس وزفير متتابع .. وبرودة فى الأطراف ، وأنه عرض نفسه على بضعة أطباء فأعياهم علاجه .. وهنا تطوّع صاحبي ذو المروءة .. فأنبأ صاحبنا بأنه يعرف قريباً له كان مصاباً بنفس العلة ، وأنه قد شفى منها تماماً بفضل أحد الأدوية ، ثم ذكر له اسم الدواء شكره صاحبنا وأنبأه أنه سيحاول تجربته .

وتفرقنا بعد ذلك وذهب كل منا إلى داره .. ونسى صاحبي ذو المروءة كل ما كان من أمر الرجل المريض .. حتى استيقظ فى منتصف الليل على صوت ضجة بالباب وطرق شديد .. ففتح الباب مذعوراً .. فإذا به يجد اثنين من رجال البوليس ، يسألانه هل هو فلان أفندى ؟ فأجابهما بالإيجاب ، فسحباه من عنقه .. وجراه إلى النيابة .. فإن الرجل المريض .. قد أعانه الدواء الذى وصفه له .. على الموت ، فمات لساعته .

وحمدت الله أن مروءتى لم تزج بى إلى مثل ذلك المأزق .
من يدرى ؟! ربما لو طال بى الأمر معها .. لفعلت بى شراً من ذلك .
وهنا كنت قد وصلت إلى حانوت الرجل وقد بلغ بى التعب أشده ، فارتيت على أحد الشوالات وأنا ألث من فرط التعب وقد تصيب منى العرق .

ونظر إالى الرجل وقد انطرحت أمامه كجثة هامدة .. وبدا عليه أنه لم يميزنى لأول وهلة ، فقد علت أساريه دهشة وأخذ يرمنى بنظرة فاحصة .. محاولاً أن يعرف حقيقة موضوعى بين الجنسين : الخشن واللطيف .. فما رأى من قبل رجلاً

يرتدى قميص نوم بتنتنة .. وما رأى كذلك امرأة ترتدى طربشًا وشرابًا بحمالة وتبدو ساقاها عجفاء كساقى .

وأخيرًا عرفنى الرجل فزادت دهشته وهتف بى :
— أنت !!

وأجبتة وأنا أخرج من صدرى زفيرًا طويلًا :
— أجل أنا .

— وماذا جعلك على هذه الحال ؟ وفيم ارتداؤك ذلك الثوب النسائى ؟
— مروءتك يا سيدى .. هى التى فعلت بى كل هذا .

— وكيف ؟ وما دخل المروءة بهذا القميص الذى ترتديه ؟
— لقد أحسنت ببدلتى .. ولم يكن لدى القوم شئ ارتديه بدلها .. سوى
هذا القميص فارتديته .

— آه .. فهمت .. هذه مروءة من النوع الحاد .. أو ما تسميه حمى
المروءة .. ماذا فعلت بك أيضًا سوى ذلك ؟

وبدأت أقص كل ما حدث لى منذ تناولت جرعة المروءة ، وكيف وضعت
له النقود بين الشوالات — وكانت النقود وما زالت فى موضعها لم يمسهـا
الرجل — ثم شرحت له مروءتى مع الكلب وكيف عض الأهل واحدًا واحدًا ..
وقصصت له قصتى مع الشحات وما رأيته فى مجمع الشحاذين ، ثم ذهبت إلى
محمد أفندى وشرأتى الموز التالف والبيض المشش وذهاب الحمامتين .. ثم
إحسانى إليه بالبدلة والعشرين جنيهاً ، وعودتى إلى الدار بالقميص ، والعاصفة
التي استقبلنى بها الأهل .. وما فعله معى أخى .. ثم فرارى منهم وعودتى إليه .
وانتهيت من قصتى ووجدت الرجل يهز رأسه ويقول :
— احمد الله .

— علام ؟! وماذا يمكن أن يصيننى شر من هذا ؟! اللهم إلا إذا كنت تعنى أن
أحمد الله الذى لا يحمى على مكروهه سواه .

— بل احمد الله لأنه لم يصيبك بشر من هذا .. إن للمروءة مصائب شرًا بكثير
مما أصابت به .. احمد الله على أنك نجوت بجلدك .
— كيف ؟

— كان يمكن مثلاً .. أن تحسن بكل بدلك بدلاً من أن تحسن ببذلة واحدة ..
أم أنت تعتقد أنه ليس هناك من يستحقون الإحسان سوى ذلك الفتى الذى
أحسنتم إليه ١٤ وكان يمكن أيضاً أن تعطى كل مالك للمحتاجين .. حتى
تستحق أنت المروءة .. فلا تجد من يحسن إليك .. بل تجد من أحسنتم إليهم
بمالك قد تنكروا لك .. بل ربما كانوا أكثر الناس تسابقاً إلى إيذائك والنيل منك .
هل تعرف المثل القائل : « اتق شر من أحسنتم إليه » إنه مثل صحيح مائة في
المائة .. فإن الناس قد انطوا على الخبث والسفالة والدناءة ، فليس أسهل على
البشر من نسيان الإحسان .. وإنكار الفضل .. واعتباره بمضى المدة حقاً لهم
وواجباً عليك نحوهم لا بد لك من تأديته .. فإذا أرغمتك الظروف على منعه
عنهم ملأ نفوسهم السخط عليك والتبرم منك .. واتهموك بأنك ظالم قاس .
أجل يا سيدى .. إن شر ما فى النفس البشرية هى أنها تعتاد الفضل من
صاحب الفضل ، فلا تعود تحس به فضلاً .. بل تراه أمراً طبيعياً .. ويدفعها ما
جبلت عليه من طمع إلى أن تستزيد منه .. وإلى أن تكون أول من تحسد صاحب
الفضل على ما أعطاه الله وحباه .

هذه هى مصيبة المروءة .. بذرة طيبة فى أرض جدباء .. تبذر الحب لتحصد
الشوك .. وتطعم الفم فيعضك الفم ويمتص منك دماءك التى يستكثرها عليك
ويستخسرها فيك !

إن هؤلاء البشر كلاب مسعورة وأفاع رقط .. فإذا دفعتك مروءتك إلى أن
تعطيهم إحساناً فاقدف به إليهم ثم اجر من أمامهم .. أعطهم الفضل وفر منهم ..
لا تنتظر حتى مجرد الشكر .. انج بنفسك . واذكر المثل .. اتق شر من أحسنتم
إليه .

وصمت الرجل .. وفكرت فيما قال ، فوجدته لم يعد جادة الحق ..
وذكرت ذلك الرجل الطيب الكريم الذى دفعت الظروف فى طريقه بامرأة
خاطئة قد حملت سفاحاً .. فبككت على قدميه وتوسلت إليه أن يعطيها إحساناً
يعينها على الحياة هى وطفلها .. فرق قلب الرجل ، وأعطى المرأة مبلغاً من
المال .. وتعود بعد ذلك أن يحسن إليها كلما لجأت إليه ، وعمر الأيام .. أضحى
الإحسان راتباً شهرياً ، ولم تعد تجد المرأة فيه إحساناً بل حقاً ، واستمر الرجل
يدفع المبلغ عن طيب خاطر .. حتى أصيب بضيق مالى .. ووجد نفسه عاجزاً
عن الاستمرار فى أن يهب للمرأة ما تعود أن يهبه .

وطالبت المرأة بالنقود .. وألحت عليه وأثقلت .. تماماً كأنما تطالب بدين
لها .. ولم يستطع الرجل أن يدفع .. فقد كان هو نفسه فى عسر شديد .
هل تدرون ماذا حدث ؟

هل تدرون ماذا فعلت المرأة التى أنقذها الرجل وابنها من الموت جوعاً ؟ لقد
اشتكت الرجل !! اشتكت أمام المحاكم والقضاء .. زاعمة أن الطفل هو ابن الرجل
منها .. وأنه تعود أن يدفع لها مبلغاً من المال لتربيته ، والتكفل به لكى يبعدها عنه
ويتقى الفضيحة .

وهكذا ردت المرأة جميل الرجل .. تماماً كما تفعل الحية الرقطاء والكلب
المسعور .

قاتل الله المروءة فى أرض الأفاعى ومسعور الكلاب !!
ونظرت إلى تاجر الأخلاق .. ثم نظرت إلى نفسى وأخذت أفكر فيما أنا
فيه .

ترى كيف أستطيع أن أقضى الأيام الباقية بتلك المروءة التى تصطخب فى
نفسى ؟! لقد فعل لى يوم منها كل هذه المصائب والبلايا التى لا يرى فيها التاجر
إلا أمراً هيناً بالنسبة لما كان يمكن حدوثه .. فما بالكم إذًا بكل الأيام الباقية ؟!
وأطرقت فى يأس ولوعة .. وقلت للتاجر فى صوت خفيض :

— ما العمل ؟

— فيم ؟

— فى مصيبتى !! فى المروءة الحامية التى أثقلت بها جوفى .. كيف أستطيع

التخلص منها ؟

وهز الرجل كتفيه وقلب شفتيه وأجاب :

— ليس أمامنا سوى نفس الطريقة .

— أية طريقة ؟

— التى تخلصنا بها من الشجاعة .. خذ جرعة أخرى من أى شوال يعجبك .

الصدق . الوفاء . الشهامة . الصراحة .. انتق من الأخلاق المرصوفة ما

يعجبك .. وخذ منها جرعة تضيع ما بك من مروءة .. وتحل هى محلها .

وهزرت رأسى بشدة :

— لا .. لا .. هذه طريقة غير مجدية . طريقة الاستجارة من الرضاء

بالنار .. ليس هناك شىء خير من سواه ، ولا نوع أخف من غيره .. كلها ستلقى

بى إلى نفس المصير ، وتودى بى إلى التهلكة .. ما الفائدة فى أن أستبدل بالمروءة

شهامه .. ثم بالشهامه صراحة . لا . لا داعى لأن نضحك على أنفسنا . هذا

حل لا فائدة فيه .

— ليس هناك حل سواه .. هذا هو كل ما عندى .

— فكر يا سيدى .. فكر .. ابحث هنا أو هناك . مالك تسدها فى وجهنا !

— الدكان أمامك .. ابحث كما تشاء !!

— ابحث أنت .. فأنت تعرف خبايا حانوتك .. قد تجد فتات يخل .. أو بقايا

حرص . وجشع . لا بد أن يكون لديك شىء مضاد لهذه المروءة التى ملأت بها

معدنى .. ابحث أرجوك ..

— قلت لك .. لا فائدة .. لا تضع وقتك فى كلام لا يجديك نفعا .

— إذًا فما العمل ؟

وهز الرجل كتفه وأجاب :

— ليس هذا من شأنى ، لقد حذرتك كثيرًا .. فأيت استماع النصيحة ..
يجب أن تتحمل عبء ما فعلت ، وأن تصبر بضعة الأيام الباقية .
— أنا أصبر بضعة الأيام الباقية ؟ أنا أعود مرة أخرى فأنتلقى بين الناس بتلك
المروءة الحادة الجنونية ؟ لا .. لا .. إن هذا هو الانتحار .. ولخير لى أن أوفر
على نفسى جهد العودة .. فأقتل نفسى هنا .. أمامك .

ثم رفعت يدي وأحطت بهما عنقى ، وبدأت بالضغط عليه ، وأخذ وجهى
فى الاحمرار شيئًا فشيئًا ، وهنا رأيت الرجل يشب من مكانه فيمسك بذراعى
ويأخذ فى فك يدي من حول عنقى صائحًا لى :

— أيها الأحق ماذا تفعل !! أية مصيبة هذه التى تنوى أن تجلبها على .. مالى
أنا بك .. لقد كان يومًا أسود يوم حضرت إللى .. مادمت تعرف أنك لا قبل لك
على ما تحمل الأخلاق الفاضلة .. ماذا دفعك إلى تناولها ؟ ولكن الذنب ذنبى فقد
كان يجب أن أعرف أنك طفل صغير .

وأخذ الرجل يحدق فى غيظ وحنق .. ومضت فترة صمت قصيرة قطعتها
بقولى :

— ماذا تنوى أن تفعل لى ؟

وبدت الحيرة على وجه الرجل وأجاب وهو يهز رأسه :

— وماذا أستطيع أن أفعل .. ابق معى بضعة الأيام الباقية .. حتى يذهب
مفعول المروءة .. هذا كل ما أستطيع فعله من أجلك ، وهو أن أتحمّل بقاءك معى
حتى تعود إلى ما كنت عليه من سوء الخلق .

وفكرت قليلًا .. فلم أجد هناك حلا سوى ذلك .. فليس أمامى سوى أن
أحبس نفسى فى حانوت الرجل حتى ينتهى أجل مروءتى .. فأعود بعد ذلك من
حيث أتيت .

وخيل لى أن المسألة لن تكون أمرًا سهلاً .. فإن بقاءى فى حانوت الرجل قابعا

بين الشوالات ثمانية أيام لا شك سيقطنى مللا .. فليس لدى الرجل أن نوع من أنواع التسلية .. لا طاولة .. ولا دومينو ، ولا كتشينة ، ولا حتى نساء .. أتسلى بمغازلتهم وسماع سخافاتهن .. ومع ذلك فقد كان هذا خيرًا من انطلاق بين الناس أوزع المروءة ذات اليمين وذات اليسار إذ كان أسلم عاقبة وأمن شرًا .

وقلت للرجل من باب الاعتذار :

— ولكنى أخشى أن أثقل عليك .

— عيب لا بد منه .. سأستطيع أن أتحملك .. على ألا تكثر من الثثرة .

— والأكل ؟

— ماله الأكل .

— هل عندكم طعام يكفينى ؟

— سنقتسم طعامى .. هل عندك أسئلة أخرى ؟

وقبل أن أجيبه .. رأيت فأراً قد قفز من أحد الشوالات فهبط فى حجرى فوثبت من مكاني فرعاً .. وقذفت الفأر بعنف من حجرى فقد كنت لا أكره شيئاً كالفيران ، ثم خلعت حدائى وهممت بأن أهجم على الفأر لقتله ١١ .

ولكن الرجل أمسك يدى ، ثم أخذ الحذاء منى وقذف به بعيداً ، ووجدته يقترب من الفأر الذى كان يقف فى صمت واستسلام دون أن يحاول الهرب وحمله فى يديه برفق وأخذ يربت عليه محاولاً طمأنته .

وتملكتنى الدهشة من تلك الصداقة البادية بين الاثنين ، وصحت بالرجل متسائلاً :

— ما هذا ؟

— فأر .

— أنا أعلم أنه فأر .. ولكن ما حكايته ؟

— فأر .. حمار .. مثلك تمامًا !

ورفعت حاجبى فى دهش من هذا السباب الذى يطلقه على الرجل ببساطة

وقلت له :

— أشكرك ..

وهز الرجل رأسه بمعنى « العفو » وعدت أسأله :

— هل لك أن تخبرنى كيف كان الفأر .. حمارًا .. وكيف كان مثلًا تمامًا ؟

— المسألة بسيطة .. لقد فعل كما فعلت .. ألفت به الظروف السيئة إلى

حانوتى ، وكما فعلت أنت .. أقبل على الشواتل يقرضها بغباوة ويلتهم مما بها ..

ولم تمض بضعة دقائق حتى كان الفأر المسكين .. على خلق عظيم .. أجل . لقد

أضحى فأرًا مثاليًا ، بلا خبث ولا مكر ولا جبن ، ولا سرقة . وجدته يقترب

منى فى أدب وشجاعة كأنه يعتذر عما أكله من حانوتى . ثم انصرف بعد ذلك

إلى سبيله .. ولم تمض بضعة أيام .. حتى عاد إلى أمره مرة أخرى .. تمامًا كما

عدت .. هزيلة نحيلًا .. تعسًا بائسًا .. كيف لا .. وقد أضحى يسير أمام الناس

كأى مخلوق له حرية الظهور والسير ؛ وأخيرًا انتهى به الأمر إلى أنه تعرض

للتهلكة ، ووجد أنه لا يستطيع العيش بهذه الأخلاق .. وأن الفأر .. يجب عليه

أن يكون لصًا .. خبيثًا . جبائنًا . وإلا فكيف يعيش ؟ أجل . إن الحياة هى التى

تجبرنا على سوء الخلق .. فأما أن نعيش سيئ الخلق .. ولما أن نموت مثاليين .

وهكذا ضم الحانوت ثلاثتا .. من منكوبى الخلق الطيب .. الذين لا

يجسرون على الظهور فى الحياة .

وتناولنا الطعام أنا والرجل والفأر ، خبز جاف وماء قراح .. ووجدت فى

ذلك بداية لا تبشر بالخير .. هل أستطيع أن أعيش ثمانية أيام على الخبز الجاف والماء

القراح ؟ لا أظن .

وجلسنا عقب الطعام نسمر بالحديث ، وأخذ الرجل يشرح لى محتويات

حانوته بالتفصيل .. ويرينى إياها شوالًا شوالًا .. حتى انتهينا منها جميعًا .. عدا

كيس صغير قد أحكم غلقه جيدًا .. فأشرت إليه متسائلًا :

— وما هذا ؟

وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب ، ثم قال أخيرًا :

— هذا هو خلاصة كل ما بالخانوت .. هذا هو مسحوق الأخلاق المركز .. إن بضع ذرات منه كافية لأن تجعل الإنسان على أحسن خلق مدى الحياة ، أما ما بالكيس فهو يكفي لو صب في نهر لأن يجعل البشر كلهم على خير خلق .. يكفي لإبادة ما في الأرض من نفاق ، وغش ، وخداع ، ورياء ، وجبن ، ولؤم ، ودناءة ، وسفالة .. يكفي لأن يجعل أرضنا أرضًا نموذجية .. إن ما به روح « الأخلاق » .

وفكرت برهة فيما قال الرجل ، فخطر لي خاطر عجيب .. إن الأخلاق الطبية لا تنفع رجلا يعيش وسط أناس كلهم من ذوى الأخلاق الرديئة .. فهي تجعل الإنسان كالعاقل وسط المجانين ، يبدو كأنه هو المجنون .. والباقي عقلاء . إن ما أصابني من ضرر عندما تناولت جرعة الشجاعة والمروءة .. حدث لأنى كنت إنسانًا شاذًا .. كنت شجاعًا بين الجبناء .. وكريمًا بين البخلاء .. وطيبًا بين السفلة الأشقياء .

ولكن هب أننى قد ألقيت ما بالكيس في النهر .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ كلهم سيصبحون .. كرماء شجعانًا أفاضل أتقياء .. وستصبح الدنيا مثالية . ولم أشك في أن الرجل لن يقبل منى أن آخذ الكيس لألقى به في النهر ، وأنه لن يستطيع أن يتحمل مسؤولية ذلك العمل .. فعزمت أن أنتهز منه فرصة فأسرقه ، ثم أنطلق إلى النهر فأصبه فيه وأغير ما بالناس من سوء وشر .. وأجعل أرض النفاق .. بلا نفاق .

(١٢)

فى جنازة

لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير المنقطع ،
فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم .. الذى وطنت نفسك على قبوله
والرضا به .. إذا كنت تسير على قدميك فأياك أن تركب برهة ،
وإلا ذاقك قدماك نعمة الركوب والراحة وكرهت السير الذى طالما
اعتدته .

وهكذا عقدت النية على أن أسرق من الرجل الكيس الذى وضع فيه خلاصة
الأخلاق .. أو على حد قوله .. روح الأخلاق .. وأن أتسلل من الحانوت ،
وأسكبه فى النهر فأغير بذلك وجه الكون ، وأبدل طباع الناس ، وأذهب
بشورهم .. وأبدل خبثهم طيبة .. وجبنهم شجاعة .. وبخلهم كرمًا ..
وخيانتهم وفاء .. ونفاقهم ورياءهم وغشهم ، صراحة وصدقًا وأمانة .
أجل .. هذه المرة لن أكون وحدى المصاب بالخلق الطيب . ولن أكون عاقلا
وسط مجانين ، بل سأصيبهم أجمعين ، لن يسلم منهم أحد .. ولن يفر إنسان ..
ولن تصبح أرضهم بعد ذلك أرض النفاق .
وأمسكت بالكيس أقبله فى يدي .. ثم أعدته مكانه بين الأكياس وعدت إلى
مجلسى بجوار الرجل .

وسرت الظلمة فى الحانوت شيئا فشيئا فأوقد الرجل مصباحا من الصفيح بدد به
الظلمة ، ثم افترش أحد الأكياس الفارغة فى ركن من الأركان وردد عليه قائلا :

إلى أستطيع أن آخذ كيسًا آخر فأقترشه لأرقد عليه بحيث أشاء .
ولم تكن لى رغبة فى الرقاد .. ولكنى كنت لا أريد أن أطيل الحديث مع
الرجل حتى ينام بسرعة فلأسرق الكيس وأفر من الحانوت .
وأمسكت بأحد الشوالات الفارغة وفرشته على الأرض بجوار الرجل
واستلقيت عليه متظاهرا بالنوم .. وسمعت الرجل يقول لى وهو يثاءب :
— لست أدرى ماذا يمكن أن يحدث للناس لو ألقينا بذلك الكيس الذى حوى
روح الأخلاق فى النهر ؟! وماذا يمكن أن يحدث للأرض لو خلت من النفاق ؟!
وخيل لى أن الرجل قد قرأ ما مر بذهنى ، وأنه يريد أن يستدرجنى فقلت له
بتحفظ :

— من يدرى ؟

وصمت الرجل برهة ثم استطرد قائلا :

— هل تعلم أننى كثيرا ما تتابنى نوبات ضيق وتبرم .. أهم فيها بأن ألقى بما
فى الكيس فى النهر ؟
ونظرت إليه بطرف عينى نظرة فاحصة على أستبين ما يرمى إليه الرجل بقوله
هذا .

وأخيرا قلت له :

— وما يمنعك أن تفعل ؟

وبدا لى كأن هذا السؤال هو ما يترقبه .. وأنه لم يقل ما قال إلا ليستدرجنى
إلى سؤاله حتى يحذرنى من مغبة ما أوشك أن أفعله ، ويشرح لى .. ماذا يمكن أن
يصيب أرض النفاق ، لو خلت من النفاق :

— تقول ماذا يمنعنى أن ألقى بالكيس فى النهر ؟؟ بقية شفقة بالناس وعطف
عليهم .. وخوف مما يمكن أن يصيبهم لو عريت نفوسهم من طلاء النفاق .. إلى
أخشى أن يموتوا فرغا .. لو أبصروا حقيقة نفوسهم وقد خلت من بريق النفاق
الزائف وستار الغش المزركش المنمق . إلى أخشى لو اطلعوا على سوء مخبرهم

لولوا من نفوسهم فرارًا وملثوا منها رعبًا .. ما أعظم النفاق يا صاحبي وأجزل فوائده ! إنه يستر عورات الحياة ويزخرف خبايئها .. إن النفاق يعين الناس على تحمل ويلاتها .. إنه يريهم ترابها تبرًا ، وشرها خيرًا ، ويغمض أعينهم عن خطاياهم وشرورهم .. ولولاه لانكشفت الحقيقة فانتحر الناس جزعًا .

وصمت الرجل وأردف متسائلًا :

— ما رأيك ؟

— رأيي أنك لم تعد جادة الحق في كل ما قلت ، ولكنني أجد بك كثير شبه بالنعامة التي تخفى رأسها في الرمال حتى لا تواجه الحقائق فتري ما تكره .. لقد قلت إن النفاق يستر عورات الحياة ويزخرف خبايئها .. فهل معنى ذلك أن الخبايا قد احمى والعورات قد زالت .

— وما الفارق بين أن تستر وبين أن تمحى ؟

— فرق شاسع .

— لا أظن .. إن الإنسان صنعة الأوهام .. إنه يعيش على الأوهام وبالأوهام ، سعادته وهم ، وشقاؤه وهم ، وفرحه وهم ، وحزنه وهم .. هو لا يهيمه أن يتعدم الشر بقدر ما يهيمه ألا يرى الشر .. إنه يفضل أن يخدع مائة مرة على أن يعلم أنه خدع مرة واحدة .. ولا أظن هناك فارقًا كبيرًا عنده بين أن تزول خبايا الحياة .. أو تستر عنه .

— لا . لا . إن مقاومة الخبايا ليست بحجبها وسترها بل بمواجهتها وإزالتها .. خير للإنسان أن يرى عوراته ونقائصه حتى يعرف قدر نفسه ويقوم فيها ما اعوج ويصلح ما فسد .. إنك تخشى أن تنكشف له حقيقة وحقيقة الحياة فيتتحر جزعًا ويأسًا .. ولكنني أؤكد لك أن شيئًا مما تخشاه لن يحدث .. إنه سيجزع ويفزع ، ولكنه لن يئس ولن يتتحر .. إن مشاعره مخلودة الطاقة .. إنه يحزن إلى حد محدود .. ويفرح إلى درجة معينة ، فلا يمكن أن يتناسب حزنه وفرحه مع مسببات ذلك الحزن أو الفرح ، أعنى أنه لا يمكن أن يتزايد حزنه كلما

زادت مسببات الحزن .. بل لا بد لحزنه أن يقف عند حد لا يتجاوزه مهما زادت
مسببات الحزن ، وإلا ل مات معظم الناس حزناً أو قضوا فرحاً .

إني أعرف امرأة كانت تركب هي وأولادها وزوجها عربية وكانوا عائدين إلى
القاهرة من الطريق الزراعى فى جوف الليل فانقلبت بهم العربة فى إحدى الترع
وغرق الزوج وأولاده ، ونجت المرأة بعد أن رأت بعينها مصرع كل من لها فى
الحياة .. وبلغنى النبأ فقلت مسكينة كيف سيمكنها أن تعيش بعد ذلك ؟
وتوقعت لها إما أن تجن أو تموت حزناً . ثم مرت الأيام وسألت عنها ذات مرة فقيل
لى إنها على وشك الزواج ؟ تصوّر يا سيدى .. المرأة التى كنت أخشى عليها من
الموت حزناً .. لم تمت ولم تجن .. بل هى توشك أن تزف ؟!

وإني لا أنتقدها ، ولكنى أستدل بها على طبيعة الإنسان وعلى أن حزنه
محدود ، فالذى يفقد ثلاثة أولاد لا أظنه يحزن ثلاثة أضعاف الذى يفقد ولداً ،
والذى يربح ألف جنيه لا تظنه يفرح عشرة أمثال من يربح مائة .. إنها رحمة من
الله أن جعله يحزن بقدر .. وأن جعل مشاعره — كما قلت لك — محدودة
الطاقة ، وإلا قضت عليه .. فانتحر كما تزعم حزناً أو يأساً أو مات فرحاً وهناء ..
وعلى ذلك يا سيدى أستطيع أن أجزم لك أن انكشاف الحقيقة لن يقضى عليه بل
سيفزعه ويروعه .. ثم يفيق من الصدمة .. ويتألك نفسه ويبدأ فى مواجهة
الحقائق الموجهة محاولاً جهده أن يصلح أمره وأن يزيل خبائثه ونقائصه ويجعل من
نفسه ومن دنياه خيراً مما هو عليه .

وصمت ، ونظرت إلى الرجل ، لأرى وقع حديثى فى نفسه .. ومرت فترة
سكون دون أن يتكلم الرجل .. حتى خيل لى أنه قد استغرق فى النوم ، وساء لى
ألا أسمع رأيه فيما قلت .

وفجأة .. رأيت الرجل قد وثب من مكانه .. وقال لى رأيه فيما قلت بطريقة
عملية وبدون أن ينبس ببنت شفة .. وذلك بأن اتجه إلى الرف الذى وضع عليه
كيس الخلاصة .. خلاصة الأخلاق ، فأمسك به ، ثم عاد فرقد حيث كان ،

واضعًا الكيس تحت رأسه .

ياى من غر أحمق .. لقد استدرجنى الرجل حتى أفضيت إليه بدخيلة نفسى وأبنت له أنى أستصوب أن يزول النفاق من الدنيا ، وأن تضحى الأرض بلا نفاق .. وأريته أنى لا أرى خطورة فى إلقاء الكيس فى النهر .. على النقيض أرى فى ذلك فائدة كبرى .. وبذلك أيقظت شكوك الرجل ووساوسه ، وجعلته يقطع على كل محاولة لسرقة الكيس ، ويزيل من نفسى كل أمل فى إنقاذ الأرض من النفاق وسوء الخلق .

وأغمض الرجل عينيه وسمعه يتمم قائلاً :

— إن فى رأيك يا بنى كثيرًا من صواب ، ولكنه رأى شائك خطر ، وأخشى أن تدفعك حماقتك وطيشك إلى محاولة تنفيذه .. فتحدث بذلك فى الأرض ضجة كبرى وانقلابًا خطيرًا ، يعلم الله كيف يمكن أن ينتهى ، وأى مصير يمكن أن تسوق إليه الناس وتسوق إليه نفسك وتسوقنى معك : فلست أشك أنه لو اكتشف أمرك .. فسيكون عقابك شديدًا ، وسيشملنى العقاب لتعاونى معك .
— ولكن أى عقاب هذا الذى تخشى أن يعاقبونا به ؟ وما هى التهمة التى يمكن أن يوجهوها إلينا ؟

— التهمة التى يمكن أن يوجهوها لى ، هى تهمة إحراز أشياء ممنوعة أو الاتجار فى المخدرات ، فالأخلاق الطيبة فى هذا الزمن قد أصبحت تمامًا كالممنوعات والمخدرات .. أما التهمة التى يمكن أن يوجهوها إليك فمن يدرى ؟
وربما اتهمت بالقتل مع سبق الإصرار فقد يعتبرون تلويث النهر بالأخلاق الطيبة كتلويثه بميكروبات الأمراض الخطيرة .

— ولكننا سنحاول أن نشرح للحكام حسن نيتنا وسلامة مقصدنا .

— أيها الغبى .. إن الحكام سيكونون أشد الناس غضبًا علينا ، فهم أكثر الناس انتفاعًا بالنفاق .. فما ستر زيفهم سواه .. وما حجب خداعهم غيره .. إن بطشهم بنا سيكون شديدًا .. فإننا سنحرمهم من خير بضاعتهم ، البضاعة التى (أرض النفاق)

استطاعوا بفضلها أن يكونوا حكامًا . هل يمكن أن تتصور حكامًا بلا نفاق ؟ هل يمكن أن تتصور رأيهم عند ذاك في الرعية ، ورأى الرعية فيهم ؟ لا .. لا .. يجب أن نكون أكثر عقلًا وحكمة !!
وساد الصمت فترة ، ثم أردف الرجل متسائلًا :

— هل اقتنعت ؟

ولم أجد هناك معنى للمناقشة ، بل وجدت من الخير أن أفهمه أنى اقتنعت برأيه . حتى يكون أقل حرصًا على الكيس فأستطيع سرقة ، وقلت له مجيبًا :
— أجل اقتنعت .. أسعد الله مساك .

وأجاب الرجل تحيي وتظاهرت بالاستغراق في النوم . وبعد برهة سمعت شخير الرجل ، وأخذت أثقل على جنبى في حيرة وقلق ، وقد نثرت فى الذهن .. واستبدى التفكير دون أن أستقر على رأى .
ماذا أفعل ؟

هذه فرصة عجيبة لا أظنها قد أتيت لإنسان من قبل .. فرصة لو أقدمت على انتهازها لأحدثت فى البشر تطورًا لا يستطيع أحد مجرد تصوره ، ولغيرت بها وجه التاريخ .

ولكن من يدري ؟ .. ربما كان تطورًا إلى أسوأ ، وربما أنكب البشر بفعلتى هذه .

ثم إن هناك أمرًا آخر ، وهو أنى سأرتكب السرقة وأخون من أتمنى وآوانى .. وحتى لو استقرى الأمر على انتهاز الفرصة ! فكيف سأستطيع سرقة الكيس .. والرجل قد وضعه تحت رأسه ؟

وهكذا استبدى التردد والحيرة .. حتى هاجمنى النوم فاستسلمت له . وقبيل الفجر فتحت عيني على صوت همهمة وتمتمة ودققت النظر فيما حولى ، فوجدت الرجل منهمكًا فى الصلاة .. وبدأ لى الكيس ملقى على الأرض فى تناول يدى !!

ومددت يدي في سكون فأمسكت بالكيس وسحبته ببطء إلى جوارى .
من يصدق هذا ؟ إن الكيس قد أضحي في يدي وأنى أستطيع في غمضة عين
أن أقفز من مكاني إلى خارج الحانوت ثم أفر بالكيس وألقى به في النهر .
وأخذت أتقلب على جنبي .. متظاهراً بالنوم ، مخفياً الكيس في ثيابي ، حتى
اقتربت من باب الحانوت وانتهزت فرصة سجود الرجل ثم انطلقت هارباً أسابق
الريح .

وهكذا وجدتني مرة أخرى أنطلق بقميص النوم النسائي .. ولكنني كنت في
هذه المرة عارى القدمين ، وأخذت أخوض وسط المزارع التي على جانبي
الطريق الذي قام عليه حانوت الرجل ، وأحسست بوقع أقدام تتبعني ، فالتفت
خلفي فإذا بالرجل يعدو ورائي مبهور الأنفاس ، فأمعنت في العدو محاولاً تضليله
والفرار منه .

ووصلت أخيراً إلى شاطئ النيل والرجل في أثرى ، وانحدرت على الساحل
الطيني المنحدر حتى وقفت على حافة الماء .

وتوقفت برهة أحاول فك الرباط الذي ربط به الكيس كي أفرغ ما به في
الماء .. ووجدت الرباط محكمًا ، وأخذت أبحث حولي عن شيء أثقب به الكيس
أو أقطع الرباط .. وفجأة أحسست بالرجل قد هبط عليّ وأحاطني بذراعيه .
وبدأت المعركة بيني وبين الرجل . هو يحاول أن يأخذ مني الكيس ، وأنا
أحاول الفرار منه .. وطالت بيننا المعركة فقد كان الرجل على كهولته .. صلب
العود قوى العضل .. من النوع الذي نسميه « عرق » .

وأخذ الرجل ينصحني بأن « أعقل » وأن أكف عن هذا الحمق الذي أحاول
أن أفعله ، وأخذت أنا أجاهد محاولاً التخلص منه .. عندما أحسست فجأة بأن
الكيس قد أفلت من يدي وسقط في الماء .

واستمر العراك بيننا برهة .. دون أن يحس الرجل بسقوط الكيس في الماء ..
حتى تنبه إلى ذلك أخيراً فتركني وهبط في الماء وأخذ يخوض فيه بقدميه محاولاً

الإمساك بالكيس الذي أبعدته التيار بعض الشيء .
وأخيرًا أمسك الرجل بالكيس ، ولكنه كان كيسًا فارغًا .. فقد نفذ
المقدور .. وذاب كل ما فيه في الماء .

وخرج الرجل والماء يقطر من ثيابه وقد أمسك بالكيس الفارغ في يده ،
وبدت على وجهه علامات من أبصر أمرًا خطيرًا وحادثًا جليلاً .

ونظر إلى في حنق شديد وهز رأسه قائلاً :

— أيها الأحمق ! ماذا أفدت من تلك الفعلة الشنعاء التي ليس لها من علاج ؟!
كيف نستطيع أن نعيد إلى الأرض نفاقها بعد أن أضعت النفاق ؟

وصمت برهة ثم أردف قائلاً .. كمن يحاول أن يزيح عبثًا أثقل كاهله :

— أنا لست مسغولاً .. لقد حاولت جهدي أن أمنعك ولكني لم أستطع ..

سأذكر لهم أنك السبب في كل ما يمكن أن يحدث !!

— خير لك ألا تذكر لهم شيئاً .. فستؤدي بنفسك إلى التهلكة .. لأنك أنت

السبب لا أنا .

— أنا السبب ؟. أيها الكذاب المفترى !

— أجل .. أنت السبب .. فإن البضاعة بضاعتك ، وأنت تاجر الأخلاق

المحرمة الممنوعة ، وكذلك أنت السبب في إلقاءها في النهر .. فلولا عراكك معي
ومحاولتي التخلص منك لما سقط الكيس في النهر .

واصفر وجه الرجل وبدا على وجهه خوف شديد مما جعلني أرتجى له .. فأقول

ملاحظاً :

— على أية حال .. إنني لا أجدي المسألة أية خطورة .. وأؤكد لك أنني أستطيع

أن أحمل عبثها وحدي .. هيا بنا واطرد عنك هذا الخوف .. وليحدث ما
يحدث .

وسحبته من يده وتركنا الشاطئ عائدين إلى الحانوت .

ووصلنا إلى الحانوت ، وقد بدأ الصبح يثخن وأرسلت الشمس مقدماتها من

النور دون أن تبدو من المشرق .. ووقف الرجل وسط الحانوت .. وقد بدت عليه علامات الحيرة والقلق والخوف . فأخذت أسرى عن نفسه .. مخففاً عنه وقع ما يتصور حدوثه بين الناس إذا سرت في أجسادهم المياه الجديدة الخالية من النفاق ، وغيره من الأخلاق الرذيلة .

وسألنى الرجل :

— وماذا سنعمل الآن ؟

— لا شيء .. تجلس أنت في حانوتك وأنطلق أنا لأرى أثر المياه الجديدة في الناس .. وأشاهد التطورات التي ستحدثها فيهم ، ثم آتيك بالنتيجة أولاً بأول . وأخذ الرجل يفكر برهة ، ثم قال :

— وماذا يجدينى أن أجلس في الحانوت .. لِمَ لا أصطحبك حتى أشاهد العالم الجديد .. وأبصر الناس الجدد ، وأرى أرض النفاق .. وقد تبدد منها النفاق . — ولكن كيف تغلق حانوتك .. وبضاعتك على وشك أن تلقى رواجاً بين أهل الأرض .. ألا ترى معى أن التطور الذى ستحدثه المياه الجديدة فيهم سيجعلهم يقبلون على بضاعتك ويتلهفون عليها .. وأنهم سيندفعون إليك ليزيدوا خلقهم طيبة فوق طيبة .. ويستزيدوا من الشجاعة والمروءة والوفاء والإخلاص كيف تغلق حانوتك .. وأنت مقبل على موسم ؟

— لا أظنهم سيقبلون علىي بمثل هذه السرعة .. لا بد أن ننتظر حتى ينتهى رد الفعل .. وحتى تنتهى المآسى والكوارث التى ستصيبهم بها الأخلاق الطيبة .. لا تظن أنهم سيقبلونها بالرضا والسرور .. لا بد لهم من وقت طويل .. حتى يستطيعوا استساغتها والتعود عليها .. إنها ستبدو لهم فى أول الأمر .. شيئاً مزعجاً .. ومرضاً خطيراً .. أصيب به مجتمعهم .. سيرون شجاعتهم تهورا .. ومروءتهم إسرافاً .. وصراحتهم وصدقهم حمقاً وبلها .. وسيظنون ما بهم الجنون المطبق .. ويحاولون التخلص منه والثورة عليه .. فإما أن يفلحوا .. وتتغلب سفالتهم المتأصلة وسوء خلقهم المستحكم ، على الطيبة الطائفة وحسن الخلق

المستجد ، ويعودون بذلك إلى ما كانوا عليه .. بل شرًا مما كانوا عليه ، وإما أن تغلب عليهم الطيبة وجمال الخلق .. فتطرد السفالة من نفوسهم نهائياً .. ويتعودوا على أن يكونوا شجعاناً كرماء مخلصين أوفياء ، ويروا في كل ذلك أمراً طبيعياً .. ويحسوا أن نفوسهم كانت مريضة فبرئت من دائها ، ويحمدوا الله أن منّ عليهم بما طال حرمانهم منه .. ألا وهو الخلق الطيب .

وعلى ذلك ، فإنى أرى من الخير أن أغلق الحانوت وأنطلق معك لأشاهد الناس خلال تلك الفترة التى سيحدث فيها الصراع .. بين الخير والشر والحق والباطل .. والطيبة والسوء .. فإن انتصرت الطيبة عدت إلى الحانوت ففتحته على مصراعيه .. وإن انتصر السوء .. فيعلم الله ماذا يمكن أن يكون مصيرى ومصيرك !

وهكذا استقر رأى على أن يغلق الرجل حانوته وينطلق معى .. وبدأت أعاونته على إدخال الشوالات المرصوفة فى مواجهة الحانوت إلى داخله .. ثم أغلقنا باب الحانوت .. وهمنا بالسير عندما رأيت الرجل قد توقف فجأة وصاح :

— يالى من أحمق مأفون .. لقد كدث أنسى شولخ .

— شولخ ١٩

ولكن الرجل لم يجب على تساؤلى ، بل أقبل على الحانوت يفتحه مرة أخرى .. ولم يكده يفتح الباب حتى هبط الفأر من فوق أحد الأكياس ، فتناوله الرجل وربت عليه برفق .. ثم وضعه فى جيبه فى رفق قائلاً :

— لا تخش شيئاً يا شولخ .. إن صاحبك الأحق قد وضع كيس الأخلاق فى النهر .. ولن تمضى برهة .. حتى يصيب الناس كلهم ما أصابك من خلق عظيم .. وحيث تستطيع أن تنطلق بينهم دون أن تخشى شيئاً .

وسرنا ثلاثتنا .. أنا بالقميص إياه .. وصاحبى بجلبابه ومركوبه وعمامته . و « شولخ » قابع فى جيبه فى هدوء وسكينة .

ورغم أن رأى فى قيمة الملابس لم يتغير بعد .. ورغم أنى كنت لأهتم كثيراً بأن أأبدل ثيائى .. إلا أنى وجدت أن القميص الذى ارتديه سيلفت إلى الأنظار .. وأنه سيسبب لى من المشكلات والارتباكات ما أنا فى غنى عنه ، وعلى ذلك فقد استقر بى الرأى على أن أتسلل إلى البيت فأأبدل ثيائى .

ووصلت إلى البيت والشمس تكاد تطل برأسها من أسفل الأفق .. وبدأ لى أن الأهل لم يستيقظوا بعد .. فطلبت من صاحبى (الذى لم أكن قد عرفت اسمه حتى وقتذاك .. وإن كنت قد بدأت أناديه بأبى شولخ) أن ينتظر لى أمام الباب ، وأأخذت أسترق الخطأ إلى سلم الخدم . حتى وصلت إلى باب المطبخ فوجدته لحسن الحظ مفتوحاً ، إذ هبطت الخادمة منه لتسرق بعض ثمار الجوافة من الحديقة قبل أن يستيقظ الأهل .

وتسللت إلى حجرتى .. وارتديت ملابسى على عجل ، ووضعت ما تبقى من نقود التصيف (التى ما زالت فى موضعها فى الدولاب) فى المحفظة ، ثم هبطت إلى صاحبى ، وتأبطت ذراعه ، وسرنا فى الطريق .

كنت أحس بالجوع ينهش أحشائى .. عقب العيش الخاف والماء القراح الذى أنعم به الرجل على فى عشاء الأمس ، فاتجهت رأساً إلى مطعم قريب للفول والطعمية . وذهبنا إلى المطعم .. واتخذنا مجلساً حول إحدى المناضد الرخامية ذات الأرجل الحديدية .. وطلبت من الرجل اثنين فول واثنين طعمية واثنين سبطلة طحينية .

وأأضهر الصبى ما طلبت ، وقلت لأنى شولخ :

— باسم الله تفضل .

وتفضل الرجل .. ولكن تفضله لم يكن كاملاً .. فإنه لم يتفضل إلا بأكل الرغيف خاف وشرب كوب الماء ، ولم ينس أن يرمى بعض الفتات إلى « شولخ » القابع فى جيبه .

وأأدهشنى لإصرار الرجل على أكل العيش الخاف وأفهمته أن الفول « زى

الزبدة « وأن الطعمية مدهشة .. فوجدته يهز رأسه موافقاً ويقول :

— ولهذا لم آكل منها .

— ولِمَ ؟ .

— حتى لا أعود فأبطر على العيش الخاف .. لقد تعودت أن أعيش على العيش

الخاف .. وأصبحت أجد فيه كفايتي .. فلم أفسد نفسي بإعطائها نعمة

طارئة ؟ .. سيصينني فقدها بألم أكثر من المتعة التي أصبتها من الحصول عليها .

خذها منى نصيحة يا صاحبي .. لا تقبل النعمة الطارئة قط .. لا تفرح بالكثير

المنقطع .. فسيجعلك تكفر بالقليل الدائم الذى وطنت نفسك على قبوله والرضا

به .. إذا كنت تسير على قدميك فأياك أن تركب برهة .. وإلا ذاقك قدماك نعمة

الركوب والراحة ، وكرهت السير الذى طالما اعتدته .. إن الإنسان يظل قائماً

بما وهبه الله له .. مهما قل .. راضياً سعيداً بما منحه إياه .. مهما ضؤل وحقر ..

حتى يذوق ما فى يد غيره .. ويمس بما أنعم الله به على سواه .. فإذا به قد كفر

وبطر وأحس بالشقاء والتعاسة .. أجل يا صاحبي .. إن مبعث شقائنا فى الحياة

هو المقارنة بين النعم .. هل علمت لِمَ لا آكل الفول والطعمية .. حتى

لا أكتشف مرارة العيش الخاف ؟!

ورأيت فى قول الرجل حكمة بالغة .. وذكرت أن كل إنسان فى هذه الحياة

يمس بالشقاء والحرمان .. لأنه ينظر إلى أعلى ، كلنا ننظر إلى أعلى فنحس أننا فى

أسفل ، ولو علمنا أنفسنا أن ننظر دائماً إلى من هم أسفل لحمدنا الله على العلو

الذى وضعنا فيه .

وانتهينا من الطعام ، وتركنا المطعم ، واقترب منى أحد باعة الجرائد منادياً

بأعلى صوته على جرائد الصباح فابتعت منه « الأهرام » وأخذت أقلبه بين يدي

وأنا أسير بجوار الرجل على رصيف الشارع .

ووقع بصرى على صفحة الوفيات فألقيت عليها نظرة عابرة ، ولكن بصرى

علق بركن فيها قد كتب فيه اسم أعرفه خير المعرفة .

وبدأت أقرأ محققاً .. لعل هناك خطأ في الاسم ، ولكنى عندما انتهيت من قراءة النعى .. تأكدت أنه هو « إبراهيم أفندي عبد المتعال » ، رئيس القلم الذى أعمل به .. وتملكنى دهش وحزن وأسف .. رغم كل ما سبق أن وصفت به الرجل .. من أنه جبان تافه حمار .. ورغم أن آخر علاقتى به كانت معركة حامية بفضل جرعة الشجاعة .

لقد حزنت على الرجل .. فقد كان طيباً .. ابن حلال رغم ما به من سيئات ، وكان ممتلئاً صحة وعافية .. رغم إدمانه الشرب ، ولم يكن الرجل قد بلغ بعد من الكبر عتياً .. بل إنه يعتبر فى منتصف أو فى ثلثى العمر .
وتوقفت برهة .. وقد بدت على مظاهر الحزن ، ورفعت منديل أكفكف به دمة قرت من عيني .. وبهت صاحبى وسألنى :

— ما بك ؟

وأنبأته بالخبر .. وقلت له : إني لا بد أن أذهب للعزاء وأشارك فى تشييع الجنازة .. التى ستبدأ من دار الفقيد فى الساعة العاشرة .
وسألنى الرجل عما إذا كان هناك ما يمنع من اصطحابى إياه .. فنظرت إليه فاحصاً ، وأجبته :

— أبداً .. إن العزاء والجنازات هى الشئ الوحيد فى هذا البلد ، الذى يستطيع أن يشترك فيه الإنسان دون أن يمنعه أحد .

ونظرت إلى جيب الرجل .. وقد رأيت الفأر يتلاعب فيه .. وأردفت قائلاً :

— ولكن ...

— ولكن ماذا ؟ .

— شولح .

— ماله شولح ؟ .

— أخشى أن يخرج من جيبيك .. فيقفز على المعزين والمشييعين ويحدث فى

الجنائز مهزلة كبرى .

— عيب لا تهم شولخ بهذا العيب .. هل نسيت كل ما أكله من شوالات الأخلاق .. إنه لم يترك شوالاً إلا وقرضه .. إنه فأر جد يكره العيب . وهكذا اتفقنا على أن أصطحب الزميلين العزيزين : شولخ ، وأبو شولخ .. ليشيعا الجنائز ويقوما بواجب العزاء .

وكان اليوم .. يوم الجمعة ، والساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وما زال أماننا ما يقرب من الساعة حتى يحين وقت ذهابنا للعزاء .
وكان بيت المرحوم يقع في حي المنيرة ، وكانت الساعة تكفى لوصولنا إلى هناك .

وركبت الترام وصاحبى .. وأخذنا نفحص الناس جيداً منصتين إلى أقوالهم ، مراقبين بدقة كل ما يفعلونه كما يفحص الطبيب مريضاً حقنه بمخدر ليرى مفعول المخدر فيه .
ولم نر في الناس شيئاً غير عادى .. فقد كانوا كما تعودنا أن نراهم دائماً .. الكمسارى .. هو الكمسارى .. بقلة أدبه ووقاحته مع الفقراء والضعفاء .. وجبنه وتواضعه أمام المفتش والأقوياء وذوى الجاه من الركاب .. نفس السفالة .. ونفس النفاق .. والسائق هو السائق .. يقف بالترام بعنف فيقع الركاب فوق بعضهم .. ويتحرك بالترام قبل أن يركبوا .. ويسب الدين لأتفه الأسباب .. والصبية كما تعودت أن أبصرهم يقفزون من يسار الترام .. والباعة والشحاذون يهاجمونك بلا رحمة ولا شفقة .. وكل شيء كما هو .. لم يطرأ عليه أى تغير أو تبدل .

ونظرت إلى صاحبى متسائلاً :

— إن مفعول الماء لم يظهر بعد .. إنهم ما زالوا كما هم .

— صبراً .. فلا بد أن يمضى وقت .. حتى يظهر التأثير وحتى يسرى مفعول

الكيس من النهر إلى مواسير المياه ، إلى الصنابير ، إلى أجواف الناس .. هؤلاء

الذين تبصرهم لا شك لم يغيرو ريقهم بعد .
وأخذ الترام يتهاذى بنا .. حتى وصل إلى العتبة .. فاستبدلنا به ترامًا آخر
يحملنا إلى شارع قصر العيني ، وهناك نزلنا عند محطة المنيرة .
وقصدنا إلى الشارع الذى يقع فيه بيت الفقيد الراحل .
ولم يصعب علينا الاستدلال على البيت .. فقد قادنا إليه الصراخ الذى انبعث
من حناجر النساء .. والسرايق الذى شيد أمام الدار .
وبدألى أننا قد حضرنا مبكرين بعض الشيء .. فقد رأيت السرايق خاليًا ،
والفراشين لم ينتهوا بعد من إقامة السرايق .. فما زال أحدهم يتسلى قمته ..
ويربط أحد العمد بجبل فى يده .. وما زال خدم السرايق بالفانلات والمراويل
لم يرتدوا بعد الملابس المزركشة الفضفاضة المطرزة بالقصب ، والثلاجة وسلاح
القهوة والفناجين قد وصلت فى التو وأخذوا فى إنزالها من عربة الفرائش .
ووجدت بعض أهل الفقيد قد تكأكأوا فى باب الدار وهم يتهايمسون
ويتشاورون وقد وقف بينهم رجل بقفطان وعمامة لم أشك فى أنه الحانوتى .. فقد
بدت عليه سيماء الحزن أكثر من أهل الفقيد ، ولحت بجواره رجلا تعهدت أن
أراه دائمًا فى الجنائزات .. يسير فى بعض الأحيان وراء النعش وفى البعض الآخر
أمامه مع حملة المجامر .. ولم أشك فى أن الرجل متعهد جنائزات .. يقوم بتوريد
حملة المجامر والموسيقىات والمشيعين والندابات وكل ما يلزم لشئون الجنائزات .
ودخلنا السرايق ، وجلست وصاحبى فى أحد الأركان وقد كسونا وجهينا
مظاهر حزن شديد ، وأخذنا نتهامس ، ومن حين لآخر يقطع تهامسنا الصوات
المنطلق من الدار .. والولولة والنهبة .

وسألنى صاحبى هامسًا :

— كيف كان المرحوم ؟ .

— كان يا سيدى من خير الرجال .. وأكرمهم خلقًا ، وأرجحهم عقلا
وأشدهم شجاعة .

واندفعت بلا مناسبة ألصق بالفقيد كل ما يخطر ببالى من جميل الصفات ، وبدأ المعزون يتوافدون الواحد بعد الآخر ، وأنا أرمقهم جيداً .. وأرى من بينهم زملائى فى المكتب مطأطئى الرؤوس .. محنىى الهامات ، بطيئى الخطا .. كأن الفقيد عليه رحمة الله .. كان أباهم ، وكأنهم لم يكونوا يدعون عليه بالموت فى كل لحظة .

وامتلاً السرادق بالمعزين ، وما من أحد منهم إلا وقد بدت على وجهه أبلغ علامات الحزن .. وقد سرت بينهم همسات لا تكاد تجد فيها إلا :
« الله يرحمه ويحسن إليه » أو « كان يهرق نفسه نفى الشغل زيادة عن اللزوم » أو « ده راح شهيد الواجب » ، أو « كان لسانه حلو عمره ما ذم فى حد ولا جاب سيرة حد » .

وهكذا كانت تسرى الهمسات كلها مدح فى مدح ، وكلها تلصق بالفقيد صفات .. لو تجمعت فى إنسان لكان نبياً .
ونظرت إلى الساعة فإذا بها قد بلغت العاشرة والرابع .. وبدأنا نحس بوطأة الحر ، ونفذ إلينا لهيب الشمس من خلال فتحات السرادق ، فجفت خلوقنا وتصبب العرق من وجوهنا .

ودخل أحد الخدم بملابسه المزركشة يحمل بين يديه صينية قد ملئت بأكواب الماء المثلج وقد بدا الضباب على خارجها فأعطاها منظرًا مغريبًا .. وبدأت الأيدي تتخاطف الأكواب .

وخرج الخادم بالأكواب الفارغة ليعيد ملأها ، وأخذ الخدم يمرون على المعزين ليرووا عطشهم بالماء المثلج .. والمعزون يتخاطفون الأكواب .. حتى مر بى أحد الخدم فتناول كوبًا وتناول صاحبى كوبًا آخر .
وعبيت ما بالكوب لأطفئ به همو الفول والطعمية ولهيب الحر .. ولم أكد أعيد الكوب إلى الصينية حتى وجدت صاحبى يغمزنى بقدمه .
وهزرت رأسى متسائلًا عما به .. فأجابنى :

- ما رأيك في الماء ؟ .
- مثلج جدًا .
- لست أقصد هذا .. ما رأيك في طعمه ؟ .
- لا أفهم .
- ألم تجد به طعمًا غريبًا ؟ .
- لا .
- أنت غبي . لقد وصل .
- ما هو الذى وصل ؟ .
- مفعول الكيس الذى ألقى به فى الماء .. لقد ميزت طعمه فى الكوب .
- متأكد ؟ .
- أنا لا أخطئ قط طعم « روح الأخلاق » .. أجزم لك أن الماء مشبع بها .
- وسرت فى جسدى رجفة ، وأحسست بقلق واضطراب شديدين ،
- وأخذت أنقل البصريين الناس وأنا أتأمل عيونهم وحركاتهم ، وأترقب ما سوف
- يفعلونه فى جزع وخشية .
- كيف لا وقد أضحوا جميعًا بلا نفاق يستر نفوسهم ؟
- وأين ؟!
- فى أشد المواقف حرجًا . وأكثرها حاجة للنفاق ، والتصنع والمداهنة
- والرياء .
- كيف لا .. وأنا أجلس فى جنازة .. أى فى مجمع نفاق ، بلا نفاق ؟ .
- وجلست أرقب المعزين فى حذر ، كأنى أراقب كومة من الديناميت على
- وشك الانفجار ، وأخذت أقلب البصر فى وجوههم .. حتى أرى ما سيطرأ
- عليهم بعد أن تجرع كل منهم كوبًا مترعة من خلاصة الأخلاق .
- ومضت برهة وأنا لا أحس هنالك أى تغير ، حتى ظننت أن صاحبى كان
- واهمًا فى تخيل وجود روح الأخلاق فى المياه . أو أنها كانت موجودة فعلا ،

ولكن أثرها كان أضعف من أن يبدل ما بنفوس المعزين من نفاق مستحكم .
ووصل إلى أذى من مدخل السرادق همهمة وحركة كأن القوم يستقبلون أمراً
ذا مكانة وحيثية .. وتطلعت ببصرى فلمحت صاحب الضجة والحركة وقد
أقبل تحيطه هالة من أهل الفقيد وقد بدا عليهم احترام شديد ، وتقدم واحد منهم
يفسح الطريق ويقود القادم الكريم إلى أكبر وأفخم كرسي وضع في السرادق .
كيف لا ، وقد كان المعزى الكبير .. هو الوزير نفسه !!

وأخذت أرقب الوزير المتنفخ الأوداج وقد أقبل يتهاذى فى عظمة حزينه
وكبرياء بها لحة من أسى مصطنع ، وقد أمسك عصاه يمينه ووضع طرف إبهامه
اليسرى فى جيب الصديرى الذى تدلت منه سلسلة ذهبية وضع طرفها فى الجيب
الآخر .

واستقر الوزير أخيراً فى كرسيه أو فى عرشه ، وتفرّق من حوله الموكب ..
إلا رجلاً استمر يحوم حوله وينحنى أمامه مبالغة فى إظهار آيات الترحيب
والولاء .

ونظرت إلى المعزين فإذا بأبصارهم قد علقت بالوزير المحترم ، وسرى بينهم
التهامس فأنبأ من يعرف من لا يعرف .. أن هذا هو فلان باشا .. واستمر القوم
يحملقون فى وجه الرجل .. كأن به شيئاً ليس بهم .. رأسين مثلاً .. أو رجلاً
ثلاثة .. أو أربع أعين .

ولم يكن هناك شك فى أن صاحبنا الوزير قد أحس بما أثاره فى السرادق من
حركة وهمس وحملقة ، فقد أصابه بعض الارتباك الذى سرعان ما ستره بزيادة
فى مظاهر العظمة والكبرياء .

ونظرت إلى صاحبى أى شولخ .. وهزرت رأسى وسألته هامساً :
— أما زلت تصر على أنك ميزت طعم روح الأخلاق فى المياه ١٩ .
— بالطبع .

— بعد كل الذى ترى أمامك .. تصر على هذا ؟ .

— ما هذا الذى أراه أمامى ؟ .

— هل تظن أن هذا المتكبر المتعظيم .. قد خلا من النفاق ؟ هل تظن أن هذا الموكب الذى تلقاه ، وذلك الرجل الذى يحوم حوله .. وهؤلاء الموظفين الكبار الذين يتطلعون إليه بأعينهم والذين يتسللون إلى المقاعد المحيطة به .. هل تظن أن هذا المشهد التمثيلى الذى تراه .. ليس به أثر للنفاق ؟ .. ماذا يكون النفاق إذا ؟ .
— صبرًا يا أخى .. صبرًا .. لا بد أن تمنح للجربة بعض الوقت حتى يظهر مفعولها .. ثم إن صاحبك الوزير لم يشرب بعد .

وشرب الوزير .. ومضت برهة .. وأنا أقلب البصر بين الناس فى حذر وقلق .

وعلا الصراخ يشق أجواز الفضاء إيذانًا بخروج النعش من الدار ، وإيذانًا ببداية الجنازة .

وتقدم واحد من أهل الفقيد ليقود الوزير إلى مكانه فى مقدمة المشيعين .
وخرجنا من السراى متكأ كئيبين فى رحبة أمام الدار ورأيت النعش يحملونه إلى الخارج متقدمين به جمهرة من المعزين .

ورفعت عيني أسترق النظر إلى أعلا فلمحت جمعًا من السيدات احتشدن فى إحدى الشرفات وقد انطلقت من حناجرهن أبلغ أنواع الأصوات « الحياتى » وبدأت بينهن واحدة كانت أعلاهن صوتًا وأكثرهن صياحًا مما لم يدع فى نفسى شكًا فى أنها زوجة الفقيد أو كما كان يصفها « المره الدون الشلق » التى طالما سوّدت عيشه ، والتى طالما قضى الساعات الطوال يشكو إلى منها مر الشكوى ، ويصف لى مهارتها فى خلق النكد وقدرتها على جر الشكل وسلطة لسانها وسفالتها وخستها وميلها إلى الشر والأذى .

وبدا لى أن الفقيد كان متحاملا على المرأة .. وأنها ليست بمثل ما وصفها من سوء وشر .. وخيل لى أنها ستقضى جزعًا أن فجيعتها فى زوجها قد أضاعت صوابها .

وانطلق صراخ المرأة مدوياً ، وهى تكاد تقذف بنفسها من فوق الشرفة لتلحق بالنعش .. ووصل إلينا صوتها وهى تقول فى نغم ملحن :
— يا خويا .. آه يا خويا .. ساينى لمن بعدك .. ماكانش يومك يا خويا .
وفجأة وجدت المرأة قد كفت عن الصراخ .. وتحول بصرها عن النعش إلى ناحية فى فناء الدار .. وقف بها جزار يمسك بيده سكيناً تقطر منه الدماء وتمدد أمامه الخروف الذى ذبح أمام النعش .. وسمعتها تصيح بالرجل فى لهجة آمرة وصوت محتد :

— انت يا راجل انت يا جزار . خد بالك من الفروة وانت بتسلخ الخروف .. اوعى السكينة تمسها .. والا تعورها لحسن عايزة افرشها فى الدهليز .. سامع ولا لأ .

وصمتت برهة قصيرة ثم أردفت صائحة محذرة منذرة :
— والعفشة حاسب عليها اوعى تنقص منها حاجة .. والا تروح كده والا كده .. حاكم انا عرفاكم إيدكم طويلة ولا فيش حاجة تملا عينكم .. حاسب على الكرشة والطحال والكبد والكلاوى .. حاستلمهم بالواحدة .. ونضف لى المصارين لحسن نفسى فى السجق .. كان محرّمه علينا المرحوم جته نصيبة مطرح ما راح .

وهنا أحسست بصاحبى يغمزنى بقرصة فى يدى .. وسمعتنه يهمس :
— ابتدا الشغل .. وتطايير النفاق .. اللهم ارحمنا وإياهم .. هذا أول الغيث .
وأنهت السيدة أوامرها إلى الجزار ثم التفتت مرة أخرى إلى ناحية النعش ، وكان القوم قد أذهلهم صياح المرأة ، فتسمروا فى أماكنهم ومضت بضع ثوان ، والقوم فى سكون من فرط الدهشة كأن على رؤوسهم الطير .
ونظرت المرأة إلى القوم الذاهلين ، وإلى حملة النعش المتسمرين فى أماكنهم ، وبدأت عليها أمارات التعجب وصاحت بالقوم ناهرة :
— واقفين ليه ؟ .. مستنيين إيه ؟ .. يا الله اقلبوه القلبة .. الى ما يرجعش منها

أبداً .. يا ما ورائى المر .. وسقانى الصديد .. وصديد الصديد .. أهو رينا ورائى فيه .. لكن برضه .. ما ورائيش زى مانا عايزه .. كان نفسى ينشل .. ويرقد سطيحة .. ويبقى يطلب نقطة المية ما يلاقيش حد يديها له .. كان نفسى اشوف قوته تنهد وحيله ينقطع .. يا ما اتمرد ويا ما اتفرعن .. يا ما خدت الصبغة من دماغه راقات .. كان عامل نفسه ابن العشرين .. ودابير يجيرى ورا النسوان فى الشارع ، وفى الصالات .. يصبص للجيران وبنات الجيران .. لما فضحنا وسط الى يسوى واللى ما يسواش .. وأقول له يا « ابراهيم » عيب .. يهب فيه ويقول لى .. إنت مالكيش عندى حاجة .. من يوم ما اجوزته ما شفتش منه راحة أبداً .. إلهى يجحكم « يا أم محمود » يا خاطبة إنتى الى كنت السبب .. لولاك كنت زمانى اجوزت « عم شبحه » العطار .. راجل أمير زى السكره .. يا لله . مستتين إيه احدفوه فى التربة ، واقفلوا عليه كويس لحسن يرجع تانى .. داصنف لئيم ما يجيش إلا بالدق . يا ما نكد على .. وفرج على الناس .. يا ما قاللى يا عجوزة يا كركوية ، وانا قد بنته .. كان راجل دنى عينه فارغة .. هو انا كنت أقدر اخلى عندنا خدامة .. من خوفى منه ، ومن لودانه .. يا ما اشتكيت منه لطوب الأرض .. هو كان عنده دم ولا إحساس .. أنا عارفه كانوا يهيبوا بيه إيه فى الشغل .. آل وعاملينه رئيس قلم ، وهو تور الله فى برسيمة .. لازم كلهم تيران زيه .. هو كان له الا فى النسوان والشرب .. آل رئيس قلم آل ، والله ما كان يسوى حتى ساعى والا فراش .

وصممت المرأة برهة تتمالك فيها أنفاسها ، فانبرت امرأة بجوارها كانت منذ لحظات تشاركها الصراخ والبكاء ، وقالت مؤمنة على لهجتها الجديدة مخاطبة من حولها من النسوة :

— يا ختى والنبي لها حق .. كان راجل بصباص وفلاقى .. دانا فاكراه مرة مشى ورايا من شيكوريل لغاية بنزا يون ، وهو لسانه ما دخلش بقه ، ودخلت اشتريت حته مورىلا وكام متر باتستا ، وجيت اخرج من المحل لقيته .
(أرض النفاق)

وهنا قاطعتها سيدة أخرى متسائلة :

— الحنة الموريلا البعجة اللي وديتها عند لويس الخياطة ؟

— أبوه هي .

— ويتاخذ كام دلوقت مدام لويس فى الفستان ؟

— خمسة جنيه .

— يا ختى غاليه أوى .. داحنا بنجيب واحدة غلبانه تيجى تقعد عندنا طول

اليوم تفصل فستان ونص وتاخذ مائة وثمانين قرش ولا تفرقش شغلها عن مدام لويس أبداً .

وهنا نبرت ثالثة فتدخلت متسائلة :

— اسمها إيه يا اختى دى ؟

— أم عبده .

— ما تقدرش تبعيتها لى يوم الجمعة ؟

— من عنيه .

وصاحت أخرى موجهة القول إلى زوجة الفقيد :

— والنبى يا ختى حوشى لى حنتين سجع من اللى حاتعمليه .

. وصاحت خامسة تقول إنها لا تحب أكل المأثم ، واختلطت أحاديث السيدات

الحزينات المتشحات بالسواد ، عن السجع والطحال والموريلا والخياطات والمودات ، وعن كل شيء إلا عن المرحوم .

ولمحت واحدة منهن تتجه ببصرها إلى حيث وقف الوزير مأخوذاً مشدوهاً ، إذ لم تكن الجرعة قد أثرت فيه بعد ، ثم أشارت إليه بأصبعها وتساءلت بصوت عال :

— ودا مين يا ختى اللى واقف نافش وعامل زى الديك الرومى ١٢

وانطلقت الضحكات من صدور المعزين ضحكات رنانة خالية من أى أثر للحزن أو الأسى الذى كان يكسو وجوههم منذ برهة ، وبدا كأن الاحترام

والخشية التي كانوا يحسونها للوزير قد نظائرت وتبددت .

وسمعت صوتًا جديدًا يصيح بالقوم غاضبًا نائرا :

— وبعدين يا جماعة في العطلة دى .. هو احنا فاضيين لكم . احنا ورانا أموات تانيه .. دى الحكايه مش مستاهله . جايب لكم ثمان رجاله يمشوا قدام الميت ومش عاوزين تدفعوا غير اتنين جنيه ، ورضينا وقلنا معلش نعوضها في ميت تانى .. أهى يرضه الست يومها قريب ، وبعد دا كله تلعنونا اللطعه دى ؟ .. انتو فاكرينا عواطليه ، والا خاليين شغل .. ياللا يا زجاله بلاش مسخرة ولعب عيال .

ووجدت المتحدث هو الرجل الذى سبق أن وصفته بأنه متعهد جنازات ، وأنه قد ضاق ذرعًا بوقفة النعش .. وأخذ يسحب رجاله حملة الحجامر الذين رصهم على جانبي الطريق لكي يتقدموا النعش .
وجمع الرجل أعوانه وانصرفوا ساخطين .. يلعنون أبا الميت وأبا أهله ، محدثين في الشارع شبه مظاهرة .

وهنا لمحت الحانوتى .. الذى كانت تبدو على وجهه أبلغ آيات الحزن ، وقد انطلق مقهقهًا وهو يصفق بيديه طربًا ويصيح :
— يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. يا ميت نجف .. الفاتحة على روح الأموات اللى بيوكلونا عيش .

ثم رأيته يرفع كفيه إلى السماء ويتمم بالفاتحة . ثم يدعو بصوت عال :
— خمس أموات كمان يارب بس تكون منهم حماق . ندرن على لاشيعها بالطبل البلدى ، وارقص وراها عشرة .
ثم بدأ يقرن القول بالفعل ، فبهز بطنه الأكرش ويتبختر بجسده السمين المترهل .. وهو يصيح طربًا :

— خمس أموات يارب ، والا خليه عشرة .. مش بترزق من تشاء بغير حساب ؟ . خلىنى مرة واحدة في العمر .. من تشاء .. مرة واحدة بس ..

خليني من تشاء ، وابعت فيهم قره ، والا شوطه .. وسيب الباقي علي .
واستمر الرجل في رقصه وطربه حتى وصل إلى النعش فأخذ ينقر عليه بيديه
منشدًا :

— يا نور العيون آنتست .

ونظرت إلى الوزير ، فوجدته غارقًا في عرقه ورأيته ينظر حوله في سخط
وغضب ويقول :

— إيه البهله دى والقرف ده .. هو لازم يتعبنا في موته زى ما تعبنا في
حياته .. كان راجل حمار وغبي .. جاته القرف .. هو لازم يعملوا له جنازة ..
ما كانوا حدفوه في عرية واتبيننا .. والا لازم تعب القلب ؟
وتلفت الوزير حوله وتطلع ببصره كأنما يبحث عن شيء .

ولم يهتم به أحد ولم يتسابق كبار المعزين ليسألوه عما يريد . فقد كانوا هم
أنفسهم في حالة ضيق وملل ، واضطر الوزير إلى أن يفصح عما يريد ، فيصيح
بأحدهم طالبًا منه أن يحضر له العربة .

وينظر إليه الموظف في تبرم ويقول له في أنفة :

— العربة عندك هناك .. إذا كنت عايزها روح لغاية عندها .: أنا مش خدام
أبوك .

ويبدأ الوزير انسحابه من وراء النعش دون أن يهتم به إنسان ، ويذهب إلى
العربة فلا يقفز له السائق ولا يفتح الباب بل يدلف هو في داخلها .

وتتحرك العربة والنعش ما زال موضوعًا على الرصيف لا يحاول أحد التقدم
لحملة .. وبدأ بقية المعزين يعلنون آراءهم في الفقيد الكريم « كان طویل
اللسان » .. « كان مؤذى .. الله لا يوريه نصفه » .. « كان أغبى خلق الله » .
« كان مغرور » « كان يستاهل ضرب الجزم » .

وأخذ كل منهم يقص كل ما يعلمه عن سيئات الفقيد .. ثم بدأوا ينصرفون
تباغًا .

وشيفاً فشيئاً أخذ المكان يخلو حتى لم يبق هناك سوى وصاحبي ، والنعش الملقى على الرصيف .

وتلفتنا حولنا في حيرة ، وكانت الشرفة قد خلت من السيدات .. ولم ندر ماذا يمكن أن يكون مصير الفقيد العزيز ، وهل سيقضى نهايته على قارعة الطريق .

ورأينا الزوجة تخرج إلى الشرفة لتطمئن على مصير الخروف .. وعلى القروة والطحالب والمصارين ، فقوجت برؤية النعش على الرصيف في موضعه .. فضربت بيدها على صدرها وصاحت فزعة :

— يا دى النايه .. دا الرجل لسه على الرصيف .

ثم صاحت تطلب النجدة من الداخل .. ليبعدوا النعش عن البيت خشية أن يفكر ابراهيم افندى فى العودة إلى الدار .
وأخيراً حمل النعش على أكتاف الخدم والبواب بعد أن أعطت السيدة كلا منهم نصف جنيه .

ووقفت وصاحبي أرقب الجنائز تتحرك بمنتهى السرعة وقد سار حاملو النعش خبيئاً ولو استطاعوا لساووا عدواً .

وهكذا سار الفقيد بلا عبء تسكب وراءه .. أو مخلوق يشيعه ، اللهم إلا مخلوق واحد وهو الفأر شولخ الذى أحس بالرتاء للفقيد ، قفز من جيب صاحبي وسار وراء النعش .

ولكن — حتى الفأر — لم يسر إلا خطوات ثم عاد إلينا فزعاً مرتاعاً .. بعد أن رآه صوت انفجار بجواره .

والتفتنا لتبين سبب الانفجار ، فإذا به « قلة » قذفت بها الزوجة وراء النعش . .

ونظر إليّ صاحبي وقال فى حيرة :

— حيا الله النفاق .. لقد كان يستتر خبايئهم ، ويحجب
شروهم .

— صبرًا .. هذا رد فعل لا بد من حدوثه .. لا بد للعلة أن تكشف
حتى يمكن استئصالها ، ولا بد للناس أن يروا ما بهم .. حتى يستطيعوا
"علاجه" .

(١٣)

فى صلاة الجمعة

ألا تدرى أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا
طليقة مخلصه ، تجعلنا أشد إيماناً بالله ، وأكثر
حمداً له ، وقرباً منه .. ألا تدرى أنه رب أغنية
جميلة أرهفت منا الحس ورققت المشاعر ..
تظهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتخلق بنا إلى
السموات وتقربنا من الله أكثر من ألف ركعة
وسجدة !!

هز صاحبى رأسه وبدأنا نتحرك من الميدان .. ميدان الصراع الذى شاهد
أول معركة أحدثها التطور الجديد .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ووجدت صاحبى يسألنى :

— أين ستصلى الجمعة ؟

— الجمعة !

— أجل الجمعة .. ألم يسبق لك أن صليت الجمعة ؟

— والله صليتها فيما مضى من الزمن .. أما الآن فلا !

— ولم ؟

— قلة عقل .. وشقاوة وشيطنة .. وكسل وصهينة .

— إذا أين أستطيع أن أصليها أنا ؟

— ولكنى لا أجد هناك ما يمنع من أن أصليها معك .. ولتكن هذه بداية العودة إلى الصلاة وبداية الهداية .

— وأين نصليها ؟

وفكرت برهة .. وهممت بأن أقول : نصليها في أية زاوية قرية .. ولكن دار بخلدى فجأة خاطر عجيب .

لِمَ لا نذهب إلى أحد الجوامع الكبيرة .. حيث يحتشد جمع غفير لتأدية الصلاة وحيث نستطيع أن نجد مرتعاً نرقب منه أثر المياه الجديدة المتمتجة بالأخلاق . وهكذا سحبت الرجل من يده ، واخترقنا شارع المنيرة متجهين إلى الكوبرى الحديدى القائم فى ناحية الماوردى والموصل بين حى المنيرة وجنينة ناميش ، وعبرنا الكوبرى ، ثم اخترقنا جنينة ناميش إلى شارع السد ، وسرنا فى شارع السد حتى وصلنا إلى حارة باب الميضة .. ودلفنا إلى داخل الميضة حيث خلعنا أحذيتنا وجلسنا القرفصاء أمام الحنفيات وبدأنا الوضوء .

وانتهينا من الوضوء وسط عاصفة من التمخط والتنخم ، والتمتمة والبسملة .. وقمنا نتلمس طريقنا ذاكرين قول الشاعر :

قَدَّرَ لِرَجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا

فَمَنْ عَلَا زَلْقًا عَنْ غَرَةِ زَلْجَا

ودخلنا الجامع فوجدناه على سعته احتشد بالمصلين ، وقد بدت على وجوههم الطيبة والمسكنة والتذلل .. وأخذ البعض يركع ويسجد .. والبعض يستمع إلى المقرئ يتلو القرآن .. وقد أغمضوا عيونهم ، وأخذوا يهزّون رعوسهم ، وكأنهم فى نشوة .

ووجدت رجلا من الأولياء يخترق صفوفهم ، وقد أمسك بسلسلة تدلى منها مجمرة يحرق بها البخور ، ويطوّح بها ذات اليمين وذات الشمال . ورأيت آخر يحمل على ظهره إبريقاً ، وفى يده طاسة نحاسية .. وقد أخذ

يوزع المياه على العطشى المصلين ..
وصليت وصاحبي بضع ركعات تحية المسجد ، ثم جلسنا في ركن نسمع
تلاوة آى الذكر الحكيم .
وأخيراً .. انتهى المقرئ .. وبدأ الأذان : مؤذن في أعلا المنذنة ، ومؤذن في
رحبة الجامع .
وانتهى الأذان .. ولحمت شيخاً وقوراً قد قام بين المصلين ، واتجه إلى المنبر ،
ورفع ستاراً فوق الباب ، ثم دلف إلى الداخل ، وصعد الدرجات .. ممسكاً
بسيف خشبى .
ووقف الشيخ الخطيب ، وقد بدت عليه أمارات الجدد والتقوى وعلامات
الإيمان والصلاح .

ونظر في جموع المصلين نظرة شاملة ، ثم سعل وتنخم .
ووجدتنى أرهف السمع لما ينوى قوله .. رغم أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى
من السرحان في خطبة الجمعة ، ورغم أنى لا أذكر قط أننى وعيت كلمة
واحدة ، قلت في إحداها ، ولم يكن سبب إرهاقى السمع في هذه المرة هو رغبتى
في الحصول على النصائح والمواعظ .. بل كانت لهفتى على معرفة ما إذا كانت المياه
الجديدة قد أثرت في الرجل ، وسماع ما يمكن أن يقوله في خطبة الجمعة بعد أن
زال منه النفاق .. وبدأ الرجل خطبته .. وأنا أنصت إليه جيداً . فقال :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه ،
ومن والاه ، حتى يلقي الله في حربه . وأشهد أن لا إله إلا الله ﴿ رفع السموات
بغير عمد ترونها ﴾ ﴿ وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله ، كان أقوى الناس إيماناً ، وأعظمهم يقيناً وأحسنهم خلقاً .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى .. هدى سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة

ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

أما بعد .. فىا أيها المسلمون :

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ .

أيها المسلمون : ها هو شهر رمضان يطالعكم ، وعما قليل يهل هلاله عليكم ، فهل أعددتكم له العدة ، وجردتكم أنفسكم من شهواتها ، وطهرتم قلوبكم من ضغائنها ، فلا تتركوا فضل هذا الشهر يفوتكم ، واعلموا أن الصوم ليس امتناعاً عن شهوى الفم والفرج من الفجر الصادق إلى غروب الشمس فحسب ، وإنما هو صوم السمع والبصر واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الشر والآثام : إذا لم يكن فى السمع منى تصام .

وفى مقلتى غص وفى منطقتى صمت

فحظى إذن من صومى الجوع والظما

وإن قلت إنى صمت يوماً فما صمت

وقد يرتقى الصوم بالعبد إلى رتبة أن يصوم بقلبه عن الدنيا ، ويسمو بفكره عن مادياتها حتى تصبح حياته تفسيراً عملياً ، لقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ .

والصوم الصحيح الكامل بعد كل هذا .. حاجز حصين بين الصائم وبين الرفث والإثم والعصيان ، والحصن المتين .. بين النفس الأمارة بالسوء وبين المنكر والتمرد والطغيان ، وأن التحكم فى كف النفس عن لذاتها ومنعائها كفيل بتقوية الإرادة ، وتعويد النفس على الصبر ، واحتمال الشدائد ، وعلى خوض غمار الحياة ، وملاقة نوائبها بلا جزع ولا فزع ، فيخرج المرء من شهر الصوم ، وقد ازدهرت فى نفسه خصال تضىء له حلوة الحياة وتعبد له سبلها بما يجعله أهلاً لا ستخلاف الله له فى أرضه ، ويظهر فيه سر قوله تعالى ﴿ ولقد كرمنا بنى

آدم ﷺ .

والصوم الصحيح كذلك يجعل الصائم يحس إحساساً عميقاً بما يتجشمه
البؤساء من شظف العيش وألم الحرمان ، فيحفزهم على الجود والسخاء .. ولقد
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في شهر رمضان ، فإذا
استطاع الإنسان بالصوم أن يبحث جذور الشح من نفسه لقول الله تعالى ﴿ ومن
يقوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ سعد وسعدت به أمته .

فيا معشر المسلمين : حاولوا أن تستفيدوا من رمضان ، واجعلوه سوقاً لربح
الباقات الصالحات ، وافهموا فريضة الصوم على وجهها الصحيح ، واعلموا أن
إخوانكم المسلمين الأول كانوا يتهجون لرمضان ويفرحون به فرح الحب
بمحبوب طالت غيبته ، فما يكاد ينزل بهم حتى يهبثوا له من صنوف الطاعات
وعمل الصالحات ، ما يوجب شفاعته فيهم شهادته لهم .

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال :

(الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، فيقول الصائم إني منعتك الطعام
والشهوة فشفعني فيه) ويقول القرآن منعتك النوم فشفعني فيه ، قال
فيشفعان) . قال رسول الله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما
نوى) ، وعنه ﷺ قال : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) .
ادعوا الله ...

وسرت بين المصلين موجة همهمة ودمدمة .. ورفعوا أكفهم إلى الله يدعون .
وأخذت أنا أحملق فيهم وفي الخطيب ، علني أستبين تغيراً طراً عليهم فلم أجد
شيئاً .

وعاد الخطيب يتمم خطبته قائلاً :

— الحمد لله لا يشرك في حكمه أحداً .. غافر الذنب وقابل التوب شديد
العقاب ذى الطول ، يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير .. عباد الله اتقوا الله

فقد كفى ما كان .. اتقوا الله فقد مضى زمن العصيان ، ثم توبوا إلى الله جميعاً لعلكم تفلحون .

« اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يا رب العالمين . اللهم إنا نسألك أن تنصر الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بفضلك كلمة الحق والدين ، كما نسألك أن تشمل برعايتك عبدك المخلص في طاعتك الملك فاروق الأول نصره الله (وهنا سمعت صوت المقرئ يعلو في صوت أشبه بالغناء فيقول : أيده الله بنصره وأعانه) .. اللهم انصره نصرًا مبينًا وحقق على يديه جميع الآمال يا رب العالمين . واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا ، وآمنًا في أوطاننا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، وول أمورنا خيارنا ، ولا تول أمورنا شرارنا .

« اللهم إنا نضرع إليك أن تنصر المجاهدين ، وأن ترفع راية الإسلام ، وتعرز الإسلام والمسلمين ، وأن تحذل الكفرة والكافرين أعداءك وأعداء الدين يا رب العالمين . « اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا (٣ مرات)

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يغفر لي ولكم ولسائر المسلمين ، وأن يجازي المحسنين أحسن الجزاء . عباد الله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ أقم الصلاة .

وانتهى الخطيب من خطبته وهمّ بالنزول .. وبدأ المؤذن بإقامة الصلاة .. عندما وقعت الواقعة .. وظهر تأثير المياه المترجحة في الخطيب المسكين وأحسست بصاحبي يغمزني ويهمس في أذني :

— انظر .. لقد بدت عليه الأعراض .. انظر إلى عينيه لقد بدأ يشع منها الصدق والإخلاص .. لقد ذهب عنه النفاق .

ونظرت إلى الرجل فوجدته قد توقف في مكانه وأشار للمؤذن أن يكف عن إقامة الصلاة فما زال هناك لخطبته بقية لم يتم قولها بعد .

ونظر الرجل إلى الورقة التي كان يتلو منها الخطبة كأنه يبغاء ، ثم كورها بين يديه وقذف بها من أعلى المنبر وأخذ نفسا طويلا ، وبدا عليه كأنه مقبل على أمر جلل ، وخفق قلبى بشدة ، وأحسست بخطورة ما يوشك أن يحدث .
ووصل إلّى صوته وملؤه الإخلاص والصدق :
— يا عباد الله .

ونلاحقت أنفاسى وأنا أنصت إليه أنا وغيرى من عباد الله .
ساد الجامع سكون عجيب وأرهف المصلون أسماعهم وقد بدت على سيماهم دهشة شديدة وأخذوا يحملقون فى الخطيب ، وقد عاود اعتلاء المنبر مرة أخرى بعد أن انتهى من خطبته وهم بالنزول ، وارتسمت على وجوههم علامة استفهام فتساءل .. ترى ماذا نسى الخطيب ؟! وماذا ينوى أن يقول ؟! وأى شىء خطير دفعه إلى معاودة الحديث بعد أن أتم خطبته ؟!

ولم يكن هناك سوى وصاحبى من يعلم سر عودة الخطيب .. ويستطيع التنبؤ بما يوشك أن يقول ، ونظرت إلى صاحبى فوجدته مطرقا فى صمت واستسلام .. كأنه ينتظر عاصفة على وشك الهبوب «

وعاد صوت الخطيب يدوى بين أرجاء الجامع بلهجة طويلة ممدودة :
— عباد الله .

وصمت لحظة — وبدا لى أن القول الطبيعى الذى يجب أن يلى ذلك .. هو قوله — وحدوا الله — ثم يأخذ فى سرد بقية الأقوال التى يحفظها الخطباء عن ظهر قلب .

ولكن الخطيب لم يقل وحدوا الله .. بل تلفت يمنة ويسره وعاد يكرر :
— عباد الله .. هل تعرفون نكتة الخطيب بين مدمنى الحشيش ؟
وسرى بين المصلين همس ولغظ .. وهممة . وأخذ بعضهم من سؤال الخطيب ، وعلت أصوات بعضهم قائلين :
— لا .

والبعض الآخر قائلين :

— نعم .

وأسكتهم الخطيب بإشارة من يده قائلا :

— لا بأس سأقصها عليكم .. حتى يعرفها من لم يعرفها فأني أراها خير تشبيه لما نحن فيه .

وأنصت القوم .

وبدأ الخطيب يقص النكتة قائلا :

— زعموا أن بلدة شاع فيها تناول الحشيش وأدمن أهلها على تعاطيه ، وحدث ذات يوم أن ذهب القوم إلى الجامع لتأدية فريضة صلاة الجمعة .. واحتشدوا في رحة الجامع حتى أذن للصلاة فاعتلى الخطيب المنبر .. وبدأ في إلقاء خطبته .. وأخذ في وعظ القوم وإرشادهم ، وحثهم على ترك الحشيش ، مبيِّنا لهم أضراره .. معددا مساوئه وأخطاره .. ذاكرا ما أعدده الله من عقاب لمدمنيه في الدنيا والآخرة .. لاغتاك كل من تعاطاه أو ساعد على تعاطيه .. محذرا كل من اتجر فيه أو حمله أو نقله .. وهكذا استمر في وعظه حتى بح منه الصوت ، ولم يكده ينتهى من خطبته .. حتى علا من بين المستمعين صوت يسأله في تخابث واستعباط ::

— الحشيش أنهو يا سيدنا ؟ .. حشيش الأرانب ؟!

ونظر إليه الخطيب في غيظ واستنكار ، ثم مديده إلى عمامته فأخرج من بين طبقات الشال الأبيض . « فص حشيش » ، وأجاب السائل ببساطة متناهية : — لا .. الحشيش ده .. يا روح أملك !!

وهنا ضج المصلون بالضحك .. وصمت الخطيب لحظة ثم أشار بيده محاولا إسكات المصلين .. وهم بمعاودة الحديث .. عندما انبرى من أقصى الجامع صوت غاضب يصيح بالمصلين وبالخطيب :

— ما هذا العبث ؟! أتضحكون وتمزحون في بيت الله ؟! هذا حرام .. هذا

حرام .

والتفت إليه الخطيب في دهش وقال متسائلا :

— حرام ؟ .. هل حرم الله الضحك في بيته أيها الغبي ؟! الله الكريم الغفور يحرم علينا الضحك في بيته !

— إن بيت الله .. قد جعل للخشوع والسجود والعبادة .. فإن ذلك يجعل عباد الله في بيت الله أقرب إلى الله .

— أو تظن أن التقرب إلى الله لا يكون إلا بالخشوع والسجود والتسبيح وتسبيل العينين !! ألا تدري أنه رب ضحكة تخرج من صدورنا طليقة مخلصة ، تجعلنا أشد إيمانًا بالله وأكثر حمداً له وقرباً منه ؟! ألا تدري أنه رب أغنية جميلة أرهفت منا الحس ورققت المشاعر .. تطهر نفوسنا وترسب شوائبنا وتحلق بنا إلى السموات وتقربنا من الله أكثر من ألف ركعة سجدة ؟! إن الإيمان في الصدور .. والحمد في الصدور .. ماذا يضيرنا لو أخرجناه في ضحكة راضية شاكرة حامدة .. أم لا بد لذكره وحده من حلقة ذكر تبح فيها الأصوات وتتأرجح الأجساد ؟!

وصمت الخطيب . فأجابه الرجل من أقصى الجامع صاحبا غاضبا :

— هذا كفر .. هذا إلحاد .. هذه دسيئة !!

ونظرت إلى صاحبي « أبا شولخ » ثم إلى الرجل الثائر الغاضب ، وهزرت رأسي متسائلا :

— ما رأيك في هذا ؟

وأجابني « أبو شولخ » هامسا :

— لا شك أنه لم يذق الماء بعد .. من يدرى قد يكون صائما .

ولم يجب الخطيب على الرجل ، وتجاوز عنه كأن به لومة .. ووجه حديثه إلى بقية المصلين الذين كانوا يتطلعون إليه بأعين راضية .. وبدأ أن كل ما قاله قد وافق هوى في نفوسهم .

قال الخطيب :

— عباد الله .. لقد أضحككم قصة هذا الخطيب .. ولست والله بلائكمم على ضحككم ولا بمحاول زجركم ونهركم كما فعل هذا الغبي الذي اتهمنا بالكفر والإلحاد .. اضحكوا ما حلا لكم الضحك .. فإنى لا أرى فى ضحككم عجباً .

أجل .. ما من عجب هناك من أن تضحكوا على الخطيب الذى حدثكم عنه .

ولكن العجب كل العجب .. فى أنكم تخلصونه وحده بالضحك ، وأنكم لم تضحكوا على كل خطيب سمعته ، على أنه ما من أحد منهم يختلف فى قليل ولا كثير عن صاحبنا .. كلهم فى الهوى سوا !!

إن هذا الخطيب ينهى الناس عن الحشيش .. ويقضى الساعات يتلو عليهم الأقوال الفصيحة والكلام البليغ .. وفى نهاية الخطبة .. يخرج لهم من طى عمامته .. فصّامن الحشيش .

لِمَ لا تضحكون على الخطباء الذين ينهونكم عن الكذب .. وأنتم لا تزيدون قيد أئمة على الحشاشين الذين كان الخطيب ينهاهم عن تناول الحشيش ويضع الحشيش فى عمامته .. فلاهم كفوا عن الحشيش ولا أنتم كففتم عن الكذب . هل تصدقون أنه قد مضت على عشرات السنين وأنا أنهى الناس عن المنكر وهم يستمعون لى مطأطئى الرعوس مسبلى الأعين .. يهزون رعوسهم إعجاباً وندماً ، واستغفاراً ؟!

ترى هل كفوا بعد ذلك عن إتيان المنكر الذى نهيتهم عنه ؟! أبداً والله .. ولو كانوا قد كفوا عنه .. لما كان بهم من حاجة إلى الاستماع لى بعد ذلك .. ولكففت أنا عن النهى عن المنكر منذ عشرات السنين .. إذ ما حاجتى إليهم وما حاجتهم لى وقد كفوا عن المنكر . عشرات السنين وأنا أنهى عن المنكر وأتلو الخطب تلو الخطب .. هذه تنهى

عن الفحشاء والبغى .. وهذه عن الخمر .. وتلك عن الميسر .. أتلوها الواحدة بعد الأخرى كاللبغاء .

يا للغباء ويا للحمق!! كيف هيا لى البله أن أتلو كل تلك الخطب المسجوعة الرنانة عن الميسر .. وأنا أعلم أن أهل الميسر .. آخر من يقرّبون الصلاة أو يستمعون لخطبة فى مسجد ؟! كيف هيا لى الحمق أن أبج صوتى فى النهى عن الميسر وأنا أعلم أن من أنهامم .. يغطون فى نومهم عقب سهرة إلى الصباح فى نوادى الميسر ؟!

كيف هيا لى الغباء .. أن أظن أنه حتى لو دفع النفاق واحداً منهم إلى الصلاة .. وإلى سماع خطبتي .. أن يكف عن الميسر لمجرد أنى نهيته عنه ؟! .
يا عباد الله .. من منكم لا يعرف أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب والهميمة والغش وأكل أموال اليتامى !! من منكم لا يعرف أن أكرمكم عند الله اتقاكم وأن الله يأمر بالعدل والإحسان والصدق ؟.

يا عباد الله .. أها الأشقياء المنافقون .. من منكم لا يعرف كل هذا !!
عشرات السنين .. وأنا أتلوه عليكم ، وأنتم لا تستمعون إالى .. فلا أنتم عملتم بما أقول ولا أنتم كففتم عن الاستماع إالى .

عشرات السنين وأذانكم من طين ومن عجين .. تخالون أن واجبكم ينتهى عند حد السماع ، تماماً كما أخال أنا أن واجبى ينتهى عند حد التلاوة .. وأنا أتلو وأنتم تسمعون .. ولا شىء أكثر من ذلك .. أنا أقول لكم إن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب .. إلخ . وأنتم تستمعون ، إلى أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب إلخ .

وهذا كل ما فى الأمر .. أما أن ننتهى فعلا عن الفحشاء والمنكر والبغى والكذب ، فهذا ما لم يخطر ببالنا قط .

عباد الله .. لشد ما ضللتم وضللتنا السبيل .. لقد جعلنا من العبادة غاية .. وهى الوسيلة إلى الغاية .. فاستغنينا عن الغاية بالوسيلة ، وعن الغرض بمجرد (أرض النفاق)

التسكع في الطريق .. فما وصلنا إلى غرض وما اهتدينا إلى غاية .
إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. ما قيمة الصلاة إذا ركعنا وسجدنا
وبسملنا .. وبعد كل ذلك ارتكبنا الفحشاء واتبعنا المنكر !!؟
ما فائدة أن نحشد في المساجد .. فتمسح بأرضها جباهنا ونخشع ونتذلل
ونستغفر ونطاطئ الرعوس ونحنى الهامات ونسمع إلى الخطب الرادة ..
الزاجرة ، ثم نتطلق بعد ذلك في ربوع الأرض فنعيث فيها الفساد .. ونرتكب
الآثام ، ونطغى ونتكبر ونتجبر ؟!

ما فائدة أن نفعل الوسيلة .. ولا نصل إلى الغاية ؟
ما فائدة أن نسلك الطريق ونعرض عن الغرض !!؟
إن الغاية من كل هذه العبادة والصلوات والخشوع والخطب .. هي أن نرحم
أنفسنا .. إن الذى خلقنا ليس به من حاجة إلى تلك المظاهر والشعائر .. ولكنه
أمرنا بها ، حتى يصلح ما فسد فينا .. ويزيل عنا الشوائب ويبعد الشرور ،
فتصفو دنيانا .. وتجمل حياتنا .. فيحب بعضنا البعض ، ويعين بعضنا
البعض .. وتزول الكراهية وتبدد الضغينة والحقده .
تلك هي الغاية من كل هذه المظاهر والشعائر .
أفهل وصلنا إلى الغاية ؟ .
لا والله .. إن كل ما نفعله عبث في عبث .. نضحك به على أنفسنا ونخدع
به بعضنا ..

هل تصدقون أن هذه الخطبة التى ألقيتها عليكم .. قد نقلتها عن خطبة قلتها
قبل ذلك خمس مرات ؟ .
لا تلوموني .. فأنا منكم .. منافق بين منافقين .. أو هكذا كنت .. حتى
أحسست فجأة بعد أن انتهيت من خطبتي أن كل ما بى من نفاق قد تطاير وتبدد .
عباد الله .. إن فى عمامتي وفى طبرى .. فصوصاً من السخايم سأقذف بها
قبل أن أقيم الصلاة .

عباد الله .. كونوا مخلصين فى صلاتكم ، واذكروا الله فيها ، وفى غيرها .
اذكروا الله دائماً .. اسجدوا بقلوبكم وأرواحكم .. لا بأجسادكم ، واجعلوا
مياه الوضوء تغسل أفتحتكم ونفوسكم قبل وجوهكم وأقدامكم .
عباد الله .. كونوا دائماً طاهرين .. إن الطهارة طهارة النفس .. لا طهارة
الجسد .

عباد الله .. صلوا بأذهانكم فى كل غدوة وروحة .. اجعلوا الصلاة وسيلة ،
ولا تجعلوها غاية .

عباد الله .. هذا عهد بينى وبينكم .. أقسم ألا أخطب فيكم وفى عمامتى أى
فص من الشر .. أقسم ألا أنهاكم عن السوء قبل أن أنهى نفسى .
عباد الله .. أقسم .. أن ..

ولكن الرجل لم يتم حديثه فقد وصلت إلينا من باب المسجد ضجة .. ولحنا
رجال الشرطة يقفون بالباب ويخلع بعضهم أحذيتهم ، ولحنا بينهم الرجل الذى
سبق أن صاح بالخطيب يتهمه بالكفر والإلحاد ، ووجدته يشير إلى الخطيب ،
ويقول لضابط مجواره صائحاً مهتاجاً :

— هل سمعت .. إنه يقول إنه لن يخطب وفى عمامته أى فص .. هل رأيت
بعينيك ؟! إن الرجل قد جن .. لقد أضحى يهذى بالكفر والإلحاد وسط آلاف
المصلين .. الذين يصغون إليه ليهديهم سواء السبيل .

أجل .. هذا هو المجنون الكافر .. لا بد من حمله إلى مستشفى المجاذيب .
واتجه رجال الشرطة إلى الخطيب ليلقوا القبض عليه ، ووجدت الخطيب ينظر
إليهم شزراً ويصيح بهم :

— ويحكم أيها اللغام الكفرة .. تعتدون على الآمنين فى بيت الله .. أتصدقون
هذا الأحق الغبى الذى يتهمنى بالجنون .. افرنقوا أيها الزناديق .
ولكن الزناديق لم يفرنقوا ، بل زادهم غضب الخطيب اقتناعاً بأن الرجل
مجنون ، وأن من الخطورة تركه طليقاً وسط المصلين .

وأمسك الشرطة بتلابيب الرجل وأخذوا يجرونه إلى الخارج والرجل يقاوم ويحاول التخلص منهم .. وكلما ازداد مقاومة ازدادوا معه عنفاً .. وأصابته يده وجه أحدهم بلكمة غير مقصودة فردّها له مضاعفة .

فصرخ الرجل وازداد هياجاً .. فانهالوا عليه باللكمات ، والرفسات .. وهاج المصلون وهجموا على الشرطة ليتقدوا الخطيب المسكين .. وبدأت المعركة حامية الوطيس واختلط الحابل بالنابل ، وعلا الصراخ ، وتطايرت اللعنات وألفاظ السباب .. وازداد الصخب والصياح وانقلبت المعركة إلى مظاهرة ثائرة جامحة .

ونظرت إلى صاحبي « أوى شولخ » قابلاً في مكانه ورأيته ينظر إلى بطرف عينيه ويهمس قائلاً في لهجة شامتة :

— مبسوط ؟

— مم ؟

— من كل ما حدث .. هذه المعركة في بيت الله .. وهذا الهياج والصياح .

— ومالى أنا ! إن السبب الأول في كل ما حدث هو ذلك الرجل الأحمق

الغبى .. الذى استدعى الشرطة .. والسبب الثانى . هم الشرطة وتهوّرهم ..

ماذا عليهم لو تركوا الخطيب يقول ما يشاء ؟ ثم إن الرجل لم يقل سوى الحق ..

ولو اتبع الناس قوله لصلح حالهم .. وذهبت شرورهم ، ولست أشك في أنهم

كانوا سيتبعونه .. فقد كانوا مقتنعين بقوله تمام الاقناع ، لولا تدخل الشرطة ..

على أية حال .. إنى سعيد بكل ما حدث .. حقيقة أن هذا الهياج والصراخ في

حرمة المسجد شيء يبعث على الأسف ، ولكنى أعتبره بداية تطور وانقلاب ..

ولا بد لكل انقلاب من بعض أعمال العنف ، ولا بد له من ضحايا وخسائر ..

وأؤكد لك أن ما حدث من خسائر يعتبر ثمناً زهيداً جداً .. لما سيحدث من

انقلاب وتطوّر .. تخيل ما قاله الخطيب يضحى حقيقة واقعة ، وأن الناس ستعمر

بالإيمان قلوبهم وتطهر نفوسهم .. ويخلصون في حب بعضهم البعض .. وتطابير

منهم الضعيفة ويتبدد الحقد .. تصوّر أنهم سيصلون بقلوبهم في كل لحظة ..
وتصوّر أن ماء الوضوء سيزيل سخائم النفوس كما يزيل الأتربة عن الوجوه .
ألا ترى معي .. أن هذا يهون من أجله كل شيء .. حتى المعركة في بيت
الله ؟!

وهز صاحبي رأسه وتمتم قائلا :
— من يدري ؟

وبدأت أمواج المصلين تندفع إلى خارج الجامع .. وانتقلت المعركة والهياج
من رحبة الجامع إلى رحبة الميدان .. وتحركت الأفواج إلى مركز الشرطة .
وتسللت وصاحبي من المسجد بعد أن خلا من المصلين .. قبل أن تتم
الصلاة .. واتخذنا طريقنا من ميدان السيدة إلى شارع خيرت .. وقد تملكني
إحساس خفي بالندم ، ولكني أخذت أعزى نفسي وأقنعها كما أقنعت
صاحبي .. بأن سلامة الغاية تبرر عنف الوساطة ، وأنه « لا بد دون الشهيد من
إبر النحل » .

(١٤)

فى حفلة انتخاية

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لى من
تملقكم وخطب وذكّم ورشوتكم بالطعام
والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلونى
نائبًا .. فإذا ما جعلتمونى .. فاغربوا عن
وجهى فما عادت لى إليكم حاجة .. إياكم أن
تكونوا حسنّى النية فتسألونى الوفاء
بالوعود .

سرنا فى شارع خيرت حتى لاظوغلّى ، ثم اتجهنا بعد ذلك إلى شارع قوله
قاصدين إلى ميدان عابدين .

وتوقفنا فى شارع قوله أمام سراق كبير علق على مدخله مكبر للصوت ،
ونظر إلّى صاحبى متحيرًا .. ثم سألنى قائلاً :

— ميت .. أم فرح ؟

وتحيرت أنا الآخر .. إذ لم يك مظهر السراق ينبىء عن شىء من هذا ، فما
وجدت من الأعلام والتعاليق والبطيخ الزجاجى الملّون ما يقنعنى بأنه « فرح »
وما سمعت صراخًا ولا بكاء ولا حتى مجرد نهبة .. حتى أجزم بأنه ميت .
ونظرت إلى صاحبى وقلت : — الظاهر أنه ميت .

وهز صاحبي رأسه متشككًا وقال :

— ميت !!؟ .. لا أظن .. ميت « سادة » بلا نواح ولا صياح !!
— وماذا في ذلك ؟! ميت .. قد شرب أهله من المياه الجديدة .
— يجوز .

وهممنا بالسير .. ولكننا توقفنا عندما وجدنا رجلا يتسلق سلمًا وضع على مدخله ، وقد أمسك بيده قطعة كبيرة من القماش أشبه بلافتة فعلقها من أحد أطرافها ثم تقل السلم فعلق الطرف الآخر .
ونظرت إلى اللافتة .. فوضح لي ما خفي ، ووجدت أنني كنت مخطئًا في ظني ، وأنه فعلا لا هو بفرح ولا ميت .. بل حفلة انتخابية . فقد قرأت في اللافتة :

« انتخابوا مرشحكم الحر الأمين .. ابن الدائرة .. عبد الواحد بك أمين »
ونظر إلي صاحبي متسائلًا في دهش شديد :
— ما هذا ؟

ولم أجبه .. فقد بدأ صوت المكبر يعلو صوتينا ، وسمعناه يدوي قائلاً :
— واحد .. اثنين .. ثلاثة ... أربعة .. ألو .. ألو .. الصوت كويس كده ؟!

ووجدتني أجيب على الصوت :
— كويس جدًا .. تستطيع أن تقلق الجن في مضاجعها . اطمئن .
وعاد الصوت يضح قائلاً :
— ألو .. ألو .. مرشحكم الوحيد .. عبد الواحد بك أمين .. انتخابوا ..
عبد الواحد بك أمين .. السياسى الحر على مبادئ مصطفى كامل ومصطفى النحاس ومصطفى أمين .. انتخابوا مرشحكم الترية المستقل .
وسألنى صاحبي :
— إيه الحكاية ؟

وهمت بأن أجيبه عندما علا صوت مكبر آخر ، الظاهر أنه كان موجودًا في الشارع المجاور وسمعناه يدوى قائلا :

— مرشحكم الأوحد زينهم باشا تحتت .. الرجل العصامي .. رجل البر والتقوى .. رجل الاستقامة والجد ، زينهم باشا تحتت .. لا نائب لكم سواه .
وعاد صاحبي يسأل في دهشة :

— وما كل هذا ؟

وأجيبته مفسرا :

— معركة انتخابية .. لقد خلت دائرة عابدين بوفاة نائبها ، وهم يتطاحنون الآن على المقعد بدون فائدة .

— ولِمَ ؟

— لأن الفائز معروف .

— كيف ؟

— مرشح الحكومة .

— ولِمَ إذا يتعبون أنفسهم ؟

— تسأل .

وهمنا بالسير مرة أخرى عندما استوقفنا صوت يصيح بنا « اتفضل » ، ورأيت رجلا يطل علينا من الداخل وأمامه سطل نحاسي كبير قد تندى خارجه بالماء ، وأخذ الرجل يقلب ما به بمغرفة في يده ، وعاد صوته يصيح بنا :
— تفضل .. خش .

وترددنا برهة .. ولكن لسعة الشمس ولفحة الحر ، والجفاف الذي كنت أحس به في حلقي ، دفعني إلى « التفضل والخششان » فدخلت وصاح بنا الرجل مرحبا :

— أهلا وسهلا .

ثم بدأ يفرغ لنا من السطل « شربات أحمر مثلج » في كوبين أمامه ، وتقدم

إلينا بهما صائحا :

— في صحة عبد الواحد بك أمين .. مرشحكم الأوحـد ، وعلى روح زينهم .
باشا حتحت .. مرشح الأموات .

وانطلق الرجل مقهقهها .

وتناولنا كوني الشربات .. وتجشأنا ، ومسحنا ما تصبب من وجوهنا من
عرق ، وقادنا الرجل إلى مقعدين داخل السرادق وسألنا الانتظار لأن « البيه »
سيشرف حالا بمجرد الانتهاء من صلاة الجمعة .

وجلسنا برهة ، وقد تعالت من حولنا أصوات المكبرات تتبادل السباب
والشتائم .. ويعلن كل عن صاحبه ، كأنه أوكازيون ، أو سيرك .. حتى لقد
خشيت أن يخطئ أحدهما فيعلن عن صاحبه قائلا : « انتخبوا مرشحكم
الأوحد ، قبل ما يلعب » أو « مرشحكم الأوحد بنص فرنك يا بلاش » .

واستمر الضجيج يتعالى مسببا من الإقلاق والإزعاج ما لا يمكن تصوره ..
وبدأت أحس بوطأة الحر داخل السرادق ، وجف حلقى مرة أخرى ..
فانتهزت فرصة غفلة من الرجل الواقف على باب السرادق ، ثم تسللت
وصاحبي من فتحة في نهايته ، ووجدنا أنفسنا مرة أخرى طليقين في الشوارع .

وسألني صاحبي :

— إلى أين ؟

— إلى الطرف الآخر .

وهز صاحبي رأسه متسائلا عما أعنى فقلت مفسرا :

— إلى خطوط العدو .

— أى عدو ؟

— المرشح الآخر حتحت باشا .

— ولم ؟

— نشرب كوين آخرين من الشراب .. ألدك مانع ؟

— أبداً .. ليس لدى ما يمنع .. من أن نمر على جميع المرشحين .. ما دامت المسألة فيها شربات .

ودخلنا في الشارع المجاور فواجهنا السرادق الآخر وقد علق عليه الميكروفون والافئة .. تماماً كالسرادق الأول لا يفترق عنه في شيء سوى الاسم .

وقفنا أمام مدخل السرادق متظاهرين بقراءة اللافتة منتظرين أن ندعى إلى الداخل كما سبق أن دعينا في السرادق الأول ، وأن نشرب الشربات في صحة حنحت وعلى روح عبد الواحد .. كما سبق أن شربنا في صحة عبد الواحد وعلى روح حنحت .

ولكن أحداً لم ينادنا ولم يدعنا للتفضل .. وطال بنا الانتظار والتلكؤ حتى أصابنا الملل ، ولم أجد بداً من أن أسحب صاحبي من يده وأقتحم السرادق بلا دعوة .

ودلفنا إلى الداخل ، وتلفت حولى .. فلم أجد أثراً للشربات .. ووجدنا السرادق خالياً . ولكنى استطعت أن أميز بعد برهة رجلاً قد جلس في أحد الأركان مستغرقاً في النوم .

واقتربت منه وصحت محيياً « السلام عليكم » .. لعله يستيقظ ، ويقدم لنا الشربات .

وهب الرجل من نومه فزعاً وأجاب في خوف :

— عليكم السلام ورحمة الله .. أهلاً وسهلاً . تفضلوا .

وجلسنا على مقعدين مقابلين للرجل ، وانتظرت أن يقوم صاحبنا لإحضار الشربات .. ولكنه — لشدة الأسف — عاود الجلوس .. ولم تمض لحظة حتى علا شخيره واستغرق في النوم مرة أخرى .

وكرهت أن يخذلنا الرجل ، وأن نحرم شربات حنحت ، فصحت بأعلى صوت محاولاً إيقاظ الرجل :

— وحدوه .

وهب الرجل مرة أخرى في فزع شديد وأجابني :
— لا إله إلا الله .

ثم هبط مرة أخرى على مقعده ، وهمّ بأن يغمض عينيه .. ولكنني صممت
على ألا أعطيه فرصة للنوم فصحت به :

— اراى الصحة يا عم ..

— محسوبك عوف .. الحمد لله .. رضا .

وبدأت أستدرج الرجل إلى ناحية الشرابات .. عله يكون ناسياً فأذكره :
— هذا الحر لا يحتمل .

— ربنا يلطف .

— ألا يمكن أن أجد عندك كوب ماء ؟

— بالطبع .

وخرج الرجل من السرداق .. ولم أشك حينئذ أنه سيعود بالشرابات ،
ولكنني فجعت عندما أبصرت به يعود بكوب ماء يبدو أنه أحضره من الحنفية
رأساً .

وشربت من الكوب جرعة ، ثم أعدته إليه بتأفف وقلت مؤثباً :

— لقد سمعنا أن عبد الواحد بك يسقى ضيوفه شرابات ؟!

وهز الرجل رأسه وقال :

— على قد حاله .

ودهشت من إجابة الرجل ، ولكنه أردف مفسراً :

— عبد الواحد بك يسقى شرابات .. لكن تحت باشا يقدم غداء .. لقد

ذبحنا اليوم عجلاً .. وسنحضر صوانى الفتة ، بمجرد أن يعود الباشا من صلاة
الجمعة .

ولم يكد الرجل ينتهى من قوله حتى سمعت ضجة تقترب من السرداق ، ولحنا
مظاهرة كبيرة تلوح من على بعد .

وأخيرًا وصل « حتحت باشا ».. محمولاً على الأكتاف ، وقد علت من حوله الهتافات .. « يحيا نصير الحرية » ، « يحيا مرشح الاستقامة » .. « نموت ويحيا حتحت » .. « نحن فداؤك يا حتحت » .. « كرسي النيابة ينتظرك يا حتحت » .. ثم انقطعت هذه الهتافات الحماسية .. واستبدل بها هتاف .. ملحن .. أخذ الهاتفون يرقصون على نغماته .. وقد تربع المرشح في الوسط على أكتاف بعضهم .. وأخذ واحد منهم يصيح « عايزين مين ؟ » فيرد عليه الجميع « عايزين حتحت » .. « مين نائبكم ؟ » .. « فيش غير حتحت » .. « ابن الدائرة » .. « هوا حتحت » .

وذكرني هتافهم .. بمنظر كنت أراه في طفولتي عندما كان يسحب بعض الرجال أمامهم جملاً ويسيرون به في الشوارع صائحين : « بكره من ده ؟ » فيجيب الصبية الذين التفوا حولهم « بيقرشين » .

وازدهم السراشق بالهتافين الصائحين ، واقترب منا « حتحت باشا » .. رجل كل ما فيه محتمل إلا كلمة « باشا » .. لقد كان الرجل أشبه بالخنزير الذكر .. أسود أكرش .. قد علا قفاه سنم كسنم الجمال ، وبدت عليه أبلغ آيات الغباء .

وتقدم الباشا فجلس على مقعد كبير يتصدر المكان .. وبعد برهة .. رأيت ثلة من الفراشين قد أقبلوا يمدون المناضد داخل السراشق .. ويرصون عليها الصواني المليئة بالثريد الذي علته أكوام اللحم .

وبدأت المعركة الأولى .. معركة الطعام .. بين جمهور الناخبين طرف أول .. وصواني الفتة واللحم طرف ثان .. وأسفرت المعركة عن انتصار باهر للناخبين .. فقد مسحوا الفتة واللحم من الصواني مسحاً .

وانتهى القوم من الطعام .. وهجم الفراشون يحملون بقايا المعركة .. ويخلون الميدان من الأنقاض ..

وبدأت الجولة الثانية .. جولة الخطب .. واضطجع القوم على مقاعدهم وقد

انتفخت كروشهم ، واسترخت أطرافهم .. واعتلى المنصة الخطيب الأول
متخذًا مكانه وراء الميكروفون .. وبدأ خطبته قائلاً :

— أيها الناخبون الكرام .

وأصلح الخطيب منظاره وثبته جيداً فوق عينيه .. ثم تنحنح ، وعاد صوت
المكبر يردد صياحه :

— أيها الناخبون الكرام .

وقلبت البصر في الناخبين الكرام .. فبدأ لي أن « الفتة » قد خدرت أعصابهم
وأثقلت أجفانهم .. ولم أشك في أن أذهانهم قد استغرقت في سبات عميق .. وأن
كلام الخطيب سيذهب أدراج الرياح .
ودوى صوت الخطيب للمرة الثالثة :

— أيها الناخبون الكرام .. كم وددت لو وهب الله لي فصاحة سحبان حتى
أعبر عما يجيش في صدري .. ولكن يعزيني عن ذلك أن من سألتحدث عنه ليس
في حاجة إلى خطيب فصيح لكي يبين لكم أفضاله ومحاسنه .. فهي واضحة بيننا
وضوح الشمس . وليس هنا من ينكرها إلا كل مغرض أعمى .. إن مرشحنا
العظيم كان زاهداً في كرسي النيابة .. وما كان في نيته أن يزج بنفسه في معركة
الانتخابات .. لولا أن أولى الأمر فينا قد ألحوا عليه واستجاروا به .. حتى ينقذنا
مما نحن فيه ويقل عثرتنا .. ويكون لنا في مجلس النواب صوت مدو .. وسيف
بتار .. ينادى بمطالبنا ، ويندود عن حياضنا ، ويرد إلينا حقوقنا الضائعة ..
ومصالحنا المسلوقة .. لقد لجأنا إليه لأنه منا .. فلو انتخبناه فإن كلامنا يكون قد
انتخب نفسه .. وإذا فاز بمقعد النيابة فكأننا كلنا قد فزنا به .

سأسرد لكم شيئاً عن تاريخ حياته .. حتى تروا أي بطل هذا الذي يجلس بيننا
جلسة التواضع .

نشأ « زينهم باشا ابن حنتحت باشا » في بيت كريم المختد عريق الأصل بتفرع
نسبه من بيت رسول الله ﷺ .. ولم يحاول هو أن يعتمد على ثروة أبيه ، بل شق

طريقه بنفسه .. وبدأ يخوض غمار الحياة معتمداً على عزيمته وعلى خصاله ..
وجلده وقوته .. فأخذ يثب من نجاح إلى نجاح .. وهكذا نشأ الرجل نشأة
عصامية بمحنة رغم ثراء عائلته ، فجمع بذلك قوة النشأة وطيب الأصل .
وهكذا ترون أن « زينهم باشا » مفخرة الحى ، بل مفخرة الوطن .. « زينهم
باشا » ابن عابدين البكر .. الذى يمسك التراب فيضحي تبرا .. الرجل المفضل
الكريم .. الذى يصدق على المحتاجين والفقراء ويسد حاجة المعوزين .. والذى له
علينا فى كل يوم آية فضل وإحسان .

هذا هو « زينهم باشا » .. الساحر البيان .. الفصيح اللسان .. الثابت
الجنان .. القوى الإيمان .. الشديد الحنان ، الذى لا يرد سائلا ، ولا يخيب
مسعى .. هذا هو زينهم باشا محط آمالنا ومعقد رجائنا .
ومد الخطيب يده فجزع كويًا من الماء .. ثم جفف عرقه بمنديل فى يده ،
وعاد يتمم خطبته :

— هذا هو زينهم باشا .. الرجل النموذجى الكامل ، الذى لم تشب سمعته
شائبة ، الرجل القويم ، النزيه الصادق الوعد .. العف اللسان .. الشديد فى غير
عنف .. اللين فى غير ضعف .

قارنوا بينه وبين هذا الأفاق الذى يحاول أن يتناول إليه .. فيزاحمه فى
دائرته .. هذا الدجال المحتال ، المتقلب ، المتلون .. يا لضبيعة الدائرة ، التى
هانت حتى أضحي أمثاله يرشحون أنفسهم لكرسى نيابتها !! كيف يجرو على
منافسة زينهم باشا ؟! كيف يجرو على أن يقارن نفسه بهذا البطل العبرى الذى
يتوقد ذكاء ونشاطاً ؟

وفجأة توقف الرجل عن الاسترسال فى خطبته فقد قاطعه صوت شخير عال
ينطلق مصحوباً بصفير طويل ، ونظر حوله يبحث عن مصدر الشخير
والصفير .. فإذا هو به نفسه البطل العبرى الذى يتوقد ذكاء ونشاطاً .
وصمت الخطيب ، وران فى السرادق سكون إلا من صوت الباشا الشاخر

الصفافر .. وقد سقط رأس الخنزير على صدره وبرز سنام الجمل في قفاه وتدلّت شفته السفلى وسالت ريالته على صدره .

ونظر إليه الخطيب وأخذ يهز رأسه في صمت ودهشة .. ووجدت صاحبي « أبا شولح » يقرصني في يدي .. وفهمت ما يعنى ، وحققت في وجه الخطيب فإذا بأعراض الأخلاق قد بدأت تظهر عليه .. وإذا بجرعة الماء قد فعلت مفعولها .. ووجدتني أرهف السمع والبصر إلى مشاهدة ما يوشك أن يقع من أحداث خطيرة .

ومضت فترة صمت والخطيب يهز رأسه وينظر إلى « زينهم باشا » دون أن يتكلم .. وأخيراً نظر إلينا ، وسألنا في لهجة يائسة ساخرة :

— بقى بالذمة دا منظر !؟ .. أهذا شكل باشاوات ؟! .. أهذا هو البطل العبقري الذى يتوقد ذكاء ونشاطاً ؟! أهذا الذى تسيل ريالته كاللعاتيه والمجازيب هو الذى سيطالب بحقوقنا فى مجلس النواب ؟! والله لقد ظلمنا أنفسنا وظلمنا مجلس النواب !

يا لضيعتنا وضبعة البلد التى تهب أمثالك كرسى النيابة : وأنت لا تستحق إلا كرسياً فى قهوة بلدى .. أو كرسى مطبخ !
أأنت من نسل النبى ؟! .. أستغفر الله العظيم .. أهذا الشكل الحلاليفى الزرايى من نسل النبى ؟!

أبوك حتحت باشا من بيت كريم المحتد عريق الأصل ؟! الله يرحم أبوك .. ويرحم القرد والمعزة والرق ، وجراب الحاوى .. الله يرحم المعلم حتحت .. الذى حفيت قدماه من فرط اللف فى الحوارى .

أأنت القويم ، النزيه .. الصادق الوعد ، العف اللسان .. يا من لم تر حارات عابدين أقدر منك لساناً ولا أحط خلقاً ؟! أأنت الرجل الكامل التمودجى .. أم الرجل التمودجى السيئات الكامل النقائص ؟!

مالك والنيابة !! هل ظننت أن المال الذى جمعته بالغش والسرقة والتجارة فى

السوق السوداء يستطيع أن يهلك كل شيء .. قم لعنة الله عليك وعلى أيك وعلى كل من ينتخبك .

واستيقظ « زينهم باشا » على صوت الخطيب ، وقفز من مكانه فرعاً . ووقف برهة ينصت مأخوذاً إلى اللعنات التي تكال له .. ويحلق في الخطيب في ذهول شديد .. ثم أفاق لنفسه ، وصاح بخدمه يأمرهم بالقبض على الرجل المجنون وإلقائه خارج السرادق أو تسليمه للشرطة .

وتكأ الخدم على الخطيب .. فأوسعوه ضرباً .. واختفوا به عن أبصارنا وقد علا صياحه إلى عنان السماء .

واعلى « زينهم باشا » منصة الخطابة مصراً على أن يخطب في الناضحين بنفسه غير معتمد على أحد من الخطباء المأجورين ، ووقف أمام المكبر وقد بدا عليه ارتباك شديد ، وأخذ يتحنس الكرافة .. ثم يضع يده في جيب البنطلون ويخرجها بضع مرات .. ويتنحنح ويصق .. ثم يفرغ ما تبقى من المياه في الدورق فيملاً به الكوب ويشربه .

وأخيراً نطق الباشا .. بعد أن وضع أمامه ورقة مكتوبة :

— أبناء وطني .. لست أريد أن أثقل عليكم بالخطب الرنانة ، فإن شعاري دائماً .. العمل في صمت .. لا أقول إلا ما قل ودل ، ولا أفعل إلا ما أفاد ونفع . إليها الإخوان الكرام .. سأخلص لكم مبادئ في كلمات قلائل ، وسأبين لكم الأغراض التي أنوى تحقيقها إذا ما فزت بأصواتكم وأصبحت نائباً عنكم . إن أهدافي التي أبغى الوصول إليها تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، أو أهداف للوطن وأهداف للدائرة .

أما أهداف الوطن فهي وحدة وادي النيل تحت التاج المصري وطرد آخر جندي إنجليزي من مصر والسودان .. هذا عن الناحية الخارجية .. أما عن الإصلاح الداخلي فسيكون هدفي إصلاح حال الفلاحين والعمال ورفع مستوى المعيشة بين الطبقات الفقيرة .

أما أهداف الدائرة .. فأني أعاهدكم ألا يبقى بينكم عاطل .. أو مظلوم ، وأن
أفتح صدرى لكم جميعاً .. وأن أكون في المجلس كأنتى خلاصتكم .. أو كأنتكم
في المجلس .. وأن أفعل ..

وصمت الرجل ، ثم أخذ يكرر :

— وأن أفعل .. وأن أفعل ..

ثم نظر إلى يمينه فجأة وصاح غاضباً موجهاً القول إلى رجل معمم يجلس
بجواره :

— انت يا شيخ على .. الله يخرب بيتك .. ماذا كتبت بعد « أن أفعل » ؟
إن خطك لا يقرأ .

ثم كور الورقة في يده وقذف بها في وجه الشيخ « على » وبصق عليه .
ولم أكن في حاجة هذه المرة إلى قرصة صاحبي حتى أدرك أن النفاق قد تبدد
من نفس « زينهم باشا » ، وأن جرعة الماء قد سرى فيه مفعولها .. فقد تبينت
أعراض الأخلاق على وجهه ، واضحة جليلة .

وبدا لي كأن هناك صراعاً في جوف الرجل ، وأن النفاق المتحكم في نفسه
يأبى أن يتوارى وراء الصراحة الطارئة .. وأنها تقاومه مقاومة شديدة .. ومضت
برهة والرجل تبدو عليه حيرة شديدة ، وكأنه هو نفسه في دهش مما يحدث في
داخله من صراع خفى ومعركة مستترة ، وأنه بات مذهولاً من هذا الدافع
العجيب الذى يدفعه إلى أن يكون إنساناً آخر غير نفسه .

وظللت أرقب الرجل مراقبة دقيقة .. كما نرقب أرنباً أو فأراً تجرى عليه إحدى
التجارب .

وفجأة رأيت الرجل يندفع في قهقهة عنيفة عالية .. ثم يصيح بصوت يتخلله
الضحك :

— شيخ « على » .. الله يخيلك يا شيخ « على » .. ما هذا الكلام الفارغ الذى
كتبته لى في الورقة .. مبادئ إيه وهباب إيه .. من قال لك إني صاحب مبادئ .. أنا
(أرض النفاق)

صاحب عمارات .. وصاحب أطيان .. وصاحب مصانع .. وصاحب
ثروة .. وصاحب لقب .. وصاحب كل شيء إلا المبادئ .. اللهم إلا إذا كان
النفاق والغش وللؤم .. والاحتيال .. تسمى مبادئ :
ما هذا التهريج الذى حبثوت به الورقة ؟!

وحدة وادى النيل ؟!
وانطلق الرجل مرة أخرى فى قهقهة شديدة وأخذ بدنه يهتز ويترنح ، ثم عاد
صياحه :

— آنا أدخل مجلس النواب لأحقق وحدة وادى النيل ؟.
والله لقد هزلت .. ولو كانت وحدة وادى النيل ستنتظر حتى تتحقق على
يدى .. فلا كنا ولا كانت الوحدة .
ثم لماذا نطلب وحدة وادى النيل ؟

وماذا يمكن أن نفيد من وحدة وادى النيل .. ونحن شعب إذا نقل موظف
من إلى جرجا .. شيعناه بمناحة !

هل تعلمون أنه قد مضى على ثلاثة أشهر ولا عمل لى إلا التوسط فى نقل
« محمد » ابن اختى .. حتى أعيده إلى القاهرة . من أين ؟ .. من الجزيرة .
مالنا ولوحد وادى النيل .. أليس من الأفضل أن نطالب بوحدة مصر
أولا .. ومن نطالب بالوحدة ؟! الإنجليز ؟!

أنا رجل جاهل .. ولا أدعى قط علماً بالسياسة .. ولكنى مع ذلك أعرف
أن أبسط طرق الوحدة أو الاتحاد بين فردين أو جماعتين .. هو التزاور والاختلاط
والامتزاج والتحاب وتبادل المنافع حتى يصبح لا غنى لأحدهما عن الآخر ..
وحتى يصبحا كفرد واحد ولا تستطيع أن تحول بين اتحادهما أية قوة .. أما أن
يظل أحدهما بمنأى عن الآخر .. كالكسيح المقعد .. ثم يتباكى ويتصايح ..
ويعلن أنه يريد الوحدة .. فذاك هو الهذر والتغفيل .

على أية حال هذا مجرد حديث .. أنا لا شأن لى بهذه الشؤون السياسية ،

وما فكرت قط في الوحدة ولا في غيرها .
أما الجلاء .. فلا أكتفيكم القول أنى آخر من أفكر فيه أو أرحب به .. كيف
لا .. ولحم أكتفى من أموال الحليفة .. ومما وردته لها خلال الحرب .
إن هدفي الأول من دخول مجلس النواب هو أن أصبح نائباً محترماً ، وأن يقال
لى حضرة النائب المحترم .. ألا ترون معنى أنه لقب ضخم رنان .. وأنه يتيح لى
كذلك أن أخوض معمعة السياسة .. ومن يدرى ربما استطاع أن يقفز لى إلى
كرسى الوزارة فأضحى معالى .
أيها النخبون الكرام .. أنتم كرام حتى تنتخبونى .. فإذا ما فزت فى المعركة
فأنتم أوغاد للنام .

يا كلاب .. يا أولاد الكلاب . لا بد لى من تملقكم وخطب وركم ومجاملتكم
ورشوتكم بالطعام والنقود والخطب والوعود .. حتى تجعلونى نائباً .. فإذا ما
جعلتمونى .. فاغربوا عن وجهى فما عادت لى إليكم حاجة .. إياكم أن تكونوا
حسنى النية ففسألونى الوفاء بالوعود .. إياكم أن تطلبوا منى التوسط فى قضاء
حاجتكم فإنى أوكد لكم أنى لن أجد من وقتى فسحة لسماع سخافاتكم .
أيها الرعاع الحوش .. لقد ذبحت لكم عجلاً .. أنزله الله فى جوفكم بالسم
الهارى .. وأطعمتكم « فتة » جعلها الله فى بطونكم ناراً كاوية .. أنتم قوم
لا تتحركون إلا للمنفعة .. منفعة الجيوب أو البطون .. أليس كذلك يا شيخ
« على » ؟ .. لقد لدعت منى ثمناً للخطب التى كتبها جنبيين غير الغداء
والعشاء .

أيها النخبون اللثام ..

لِمَ نضحك على بعضنا ؟ .

لِمَ لا نكون صرحاء فنكف عن هذا الخداع ؟! أنتم سفلة ، وأنا أشد منكم
سفالة . أنتم خيلاء أشرار ، وأنا أكثر منكم خبثاً وشرّاً .. أنتم نفعيون ، وأنا بلا
مبادئ .. ما الداعى إذن لأن نتشدد بهذه الخطب الرنانة ، وبوحدة وادى

الليل ، ورفع مستوى المعيشة ، وغير ذلك من الأقوال البراقة الخداعة ؟
أنا أريد أن أكون نائبًا ، وأنتم تستطيعون أن تعطوني ما أريد .. المسألة لا تزيد
عن أن تكون مجرد صفقة .. « خذ واعطى » .

سأخذ أصواتكم وأعطيكم ثمنها .. لا تنتظروا منى وعودًا ، فأنا لا أشتري
« شككا » سأدفع لكم نقدًا .. الصوت بخمسين قرشًا .. ما رأيكم ؟
وتعالت الصيحات من أركان السرادق مختلفة مشوشة « خمسين قرش يعملوا
إيه ؟ » أو « خليه بجنيه » أو « موافقين » .

وعاد « زينهم باشا » يصيح في وسط الجمع :

— لن أدفع أكثر من خمسين قرشًا .

ثم التفت إلى يمينه قائلاً :

— يا شيخ على .. استبدل كل الكلام الذى كتبته للنشر فى الأهرام بما سأقوله

لك :

« يعلن زينهم باشا حتمت أهل دائرة عابدين اللغام أنه قد جعل لأصواتهم
تسعيرة محددة هى خمسون قرشًا للصوت وسيكون الدفع فورًا أمام مكاتب
الانتخابات ، والذى لا يعجبه السعر .. فملعون أبوه فى الأرض » .

وهنا تعالى صياح الناخبين :

— ملعون أبوك انت لأبو اللى يتشددو لك .

وبدأت المعركة حامية الوطيس ، تعالى الصراخ وتطايرت الكراسى فى

الهواء ، وانهار السرادق على من فيه .

وخرجت وصاحبى نعدو .. هاربين من المعركة .. حتى وصلنا إلى شارع

حسن الأكبر ، فوقفنا نلهث ونجفف عرقنا المتصبب ، ووجدت صاحبى ينتظر
إلى حانقًا ويقول :

— أنت المسئول عن كل هذا .. لقد ارتكبت فعلا نكرًا .. هذه الدماء التى

سالت ، والمعارك التى نشبت ، أنت المسئول عنها . إن الذنب كله فى عنقك .

— عنقى أنا ، ولم ؟! أهو أنا الذى دفعتهم إلى التغارك والتقاتل ؟
— أنت الذى أزلت من نفوسهم النفاق .. أنت الذى كشفت ما ستر من
خبائثهم .. لقد كان لهم من النفاق حجاب واق فهتكته .. وأضحى كل منهم
يرى صاحبه على حقيقته ففزعوا وجزعوا .. ألم أحذرك من كل هذا ؟
— صبراً لا تخف عليهم .. لقد قلت لك إن كل انقلاب لا بد له من ضحايا .

(١٥)

وباء الأخلاق

« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .
لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصائب وفيه
البلاء .. اشربوا فيشى إن أمكن ففيه الشفاء
وفيه الوقاء حفظكم الله من الأخلاق ومن كل
وباء » .

وصلنا إلى باب الخلق .. فوجدنا في الميدان صخبًا وضجيجًا ، وسمعنا صفافير
تطلق ، وأبصرنا حشدًا من الناس أمام المحافظة ، وسألنا عما حدث ، فقيل لنا إن
بعض المذنبين قد فروا من التخشيبية .. لأن الحراس قد أطلقوا سراحهم زاعمين
أنهم لم يفعلوا أكثر مما يفعل كثير من الزعماء والوزراء والكبراء الذين ما زالوا
مطلقى السراح يتمتعون بكامل حريتهم وجاههم ونفوذهم وسلطانهم .
ونظر إلّى صاحبي في أسف ، وقال :
— وهذا أيضا أنت سببه .. فلا بد أن الحراس قد شربوا من المياه الجديدة
ففعلوا ما فعلوا .

— ونعم ما فعلوا .. فقد حققوا مبدأ المساواة .. فإما أن يطلق سراح المذنبين
الفقراء ، وإما أن يقبض على المذنبين من الكبرياء ، ولقد فعلوا هم ما يستطيعون
فعله فأطلقوا سراح مذنبهم .

وسرنا في شارع محمد على متجهين إلى العتبة .. ولم نكد نسير في الشارع
برهة حتى وقفنا متسمرين ، وقد غلطنا ذعر شديد فقد رأينا جسداً يهوى إلينا
من الدور الرابع لأحد المنازل .
ووقفنا ننظر إلى حطام الجسد مرتاعين ، ونظرنا إلى أعلى فوجدنا رجلاً يقف
في الشرفة التي هوى منها الجسد وسمعناه يصيح بنا ضاحكاً :
— ما تخافوش .. دى حماى .. عقبال عندكم .
وتكأ كالأشخاص حول الجسد ، وازداد التزاحم ، وتعالى الصياح ، وتسلفت
وصاحبي من بين القوم .. ونحن نسمع تعليقات القوم حول الحادث :
« لا .. بسيطة دى حماة على أفندى » .. « ما تتخضوش دى حماة على
أفندى » ، « ما فيش حاجة .. دى حماة على أفندى وقعت من الدور الرابع » .
ووجدت صاحبي ينظر إليّ متسائلاً وقد أبصر بوجهي علامة حزن :
— انت زعلان على حماة على أفندى ؟
— لأ .. أنا زعلان لأنى ساكن في الدور الأول .
ونظر إليّ صاحبي ضاحكاً وأجاب :
— يا سيدى .. من لم يمت بالسيف مات بغيره .
وعاودنا السير .. ونحن نسمع من كل بيت غمراً به صياحاً وضجيجاً ، ونبصر
في كل حانوت .. معركة حامية .. ووجدنا الشحاذين قد تبدلت دعواتهم
فأصبحت لعنات ، ولم نعد نسمع « ربنا يجعل بيت المحسنين عمار » ، بل
« هات حسنة الله يخرب بيتك » .
ووصلنا إلى العتبة ، فإذا بالترام معطل ، وحركة المرور واقفة ، والمعارك قد
اشتد أوارها .. واتجهنا إلى ميدان الأوبرا .. فلمحنا عربة إسعاف تمر كالبرق ..
ثم تقف أمام الكونتنتال .. وبعد برهة لمحنا جسداً يخرج على نقالة وقد عصب
رأسه وشد ذراعه إلى عنقه ، وسألنا رجلاً يقف على قارعة الطريق عما حدث
وعما يعرفه عن الرجل الذى حملته عربة الإسعاف ، ونظر إلينا الرجل وأجاب :

- ده إبراهيم باشا زكى .
— إبراهيم باشا زكى وزير الأشغال ؟
— أجل .
— وماذا حدث له ؟
وهز الرجل كتفيه وأجاب ببساطة :
— كان عنده حفلة تكريم .
ونظر إلى صاحبي فى غيظ وسألتنى :
— أيعجبك هذا ؟
— جدًا .
— أنت رجل سوء وشر .
— أبدًا والله .. هذه هى الطريقة الوحيدة لإبطال حفلات التكريم والكف
عن هذا التهريج وتلك المسخرة . هل تظن أن هناك وزيرًا سيقبل أن تقام له حفلة
تكريم .. بعد أن لقى زميله من وسائل التكريم ما حمله إلى الإسعاف ؟
وكان التعب قد أخذ منا مأخذه .. فقد بلغت الساعة السادسة مساء ، وقد
أمضينا اليوم فى حركة مستمرة نتقل من مكان إلى مكان .. نشاهد زوال النفاق
من النفوس وآثاره المروعة .
ونظرت إلى صاحبي وقلت له :
— إنى لم أعد أحتمل السير .. ألا تحس أنت بالتعب ؟
— إنى أشد منك تعبًا .. ليتنا أرحنا أنفسنا وأرحنا الناس .. ليتك لم تلق
المسحوق فى النهر فتلوته بالأخلاق ، من يدرى كيف سينتهى الحال بالدنيا
وبالناس .. إن بى عليهم جزعًا شديدًا .
— لا تخف .. سليمة إن شاء الله .. هيا بنا إلى الحانوت نقضى فيه ليلتنا حتى
نستطيع أن نبدأ فى الصباح .. جولة جديدة .
وعندما انتهيت من قولى ، وجدت رجلا قد وقف بجوارنا يرهف السمع

وينصت إلينا وقد بدت عليه علامات الدهشة ، وخيل إلّى أنه من المخبرين ، فلم أجد خيرًا من أن أشرغ بالفرار وصاحبى .. قبل أن يتسرب إليه الشك بنا فيلقى القبض علينا .

واتخذنا طريقنا إلى الخانوت فوصلناه قرب العشاء ووقفنا أمام الباب نتحسس موضع المفتاح فى الظلمة .

ثم أضأنا عود ثقاب استعنا به على فتح الباب .
ودخلنا الخانوت وأخرج صاحبى الفأر فأطلقه بين الشوالات ثم أشعل المصباح وفرش لنا شوالين على الأرض تمدد على أحدهما وتمددت على الآخر .. ولم تمض لحظة حتى رحنا فى سبات عميق .

* * *

ولست أدرى كم مضى علينا ونحن فى سباتنا ، ولكن استيقظت فجأة على طرقات شديدة يباب الخانوت وأصوات تصايح :
— افتح .. افتح .

وهبيت من نومى فزعًا ، ووجدت صاحبى قد وقف بجوارى يتفرض كريشة فى مهب الريح ، وأصبنا بحيرة فلم ندر ماذا نفعل .. وعادت الطرقات تتوالى والأصوات تصيح بنا بشدة :
— افتح .. افتح .

وراح صاحبى يقول بصوت مرتعد :
— من ؟

وأجابه صوت غليظ صاحب :
— قلنا لك افتح .

ورأينا الباب يهتز تحت طرقاتهم ويكاد يتهاوى أمامهم .
وسألنى صاحبى هامسًا .
— من تظن الطارقين ؟

— هل عرفتما جرمكما الشنيع ؟ .. هل رأيتما مدى ما جرّه على الناس من بلاء ومصاب ؟ لقد تركتما البلد كمرجل يغلي .. وأنتما هنا راقيدين في هدوء كأنكما ما فعلتما إنّمَا ولا جرماً ؟

وبدأت أستعيد رباطة جاشي وصحت بالرجل :

— ما هذا الذى تهرف به ؟ ! إثم وجرم .. ووباء وجرائم .. منذ متى كانت الأخلاق وباء ؟ .. هل تظن أننا ننكر ما فعلنا .. أو أننا نخشى مغيبته ؟ .. إني أنا الذى وضعت مسحوق الأخلاق فى النهر .. وأنا الذى لوّثت المياه — على حد قولكم — بجراثيم الأخلاق .. ونشرت وباء الأخلاق بين الناس وضيعت من نفوسهم النفاق .. أنا الذى سأصلح الدنيا وأعجو شرورها .

والى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
وتبادل الشرطة النظرات وهزوا رءوسهم ثم قال أحدهم :

— مجنون !!

وصدق الآخرون على قوله .. وأجابه أحدهم :

— وأشد منهم جنوناً هذا الأحمق الذى بجواره .. الذى تركه حتى « أتى بما لم تستطعه الأوائل » ، فمزق عن الناس حجب النفاق ، وكشف دخائلهم .. فولوا من بعضهم فراراً وملثوا رعباً .

وصمت برهة ثم صرخ لى :

— هيا تقدم أمامى .

ومد يده فأمسك لى من قفائى كأى أفاق شرير ، وتقدم آخر ففعل بصاحبى نفس الفعل .. وقد حاول التخلص من قبضته صائحاً :

— لحظة واحدة أحضر شولخ وأغلق الحانوت .. لى أخشى على البضائع التى به .. من يدرى قد تنقلب الدنيا .. فتصبح ذات قيمة ويروج سوقها ويقبل عليها الناس .

وتركه الشرطى برهة حتى أحضر فأره ثم أغلق الحانوت . وتقدم بجوارى

وهزرت كفى وأجبتة :

— من يدري .. ربما كانوا زبائن من الزبائن الذين فتحت شهيتهم على الأخلاق الحميدة فأقبلوا مندفعين يريدون أن يتاعوا منها قبل أن يسبقهم غيرهم .
وهز رأسه متشككًا وقال :
— لا أظن .

— قد يكونون لصوصًا تذوقوا المياه الجديدة وأدركوا أن المستقبل قد أضحى للأخلاق الحميدة ، فأقبلوا يسرقونها ويبيعونها للناس في السوق السوداء .
— لا أظن .. فلو كانوا قد تذوقوا المياه الجديدة لمعتهم من السرقة .
وهنا كان عيل صبر الواقفين بالباب .. وأخذ الباب يترنح أمامهم فلم نجد بداً من أن نفتححه .
وفتحنا الباب .. فراعنا أن نجد الشرطة ومعهم ذلك الرجل الذى كان ينصت إلينا .

ولم تمض برهة حتى كنا مكبلين بالأغلال .
ووقفت أتساءل فى دهشة عن سبب إلقاء القبض علينا ، فأجابنى الرجل الذى كان ينصت إلينا :

— كفى استهبالا .. أنت أدري الناس بالجريمة التى ارتكبتها .
— أنا لم أرتكب أية جريمة .. ولا أدري شيئًا عن التهمة الموجهة إلينا .
— أيها المجرم الشرير .. ألم تعترف أنك أنت نفسك الذى لوثت المياه بالجراثيم ؟
— أية جراثيم ١٢ .
— جراثيم الأخلاق .. لقد أفسدت الدنيا وقلبت حالها .. لقد أصبت الناس بوباء الأخلاق ، وأضعت من نفوسهم الرياء والنفاق .. ولن ينفع فى شفائهم بنسلين .. ولا مصل واق .

ووقفت وصاحبى أمام الشرطة وقد تملكنا دهش شديد وأخذنا ننظر إلى الرجل الثائر الحائق وهو يكيل لنا التهم ويهدر صائحًا :

وسرنا وقد أحاط بنا الحراس .. الذين أنبأونا أننا سنوضع فى السجن رهن التحقيق .

وخطر لى أن أحاول رشوة الحراس حتى يطلقوا سراحنا ، ولكنى خشيت أن تكون المياه الجديدة قد سرت فيهم وأن يكونوا هم الآخرين قد أصيبوا بوباء الأخلاق فيرفضوا الرشوة وتكون جريمتنا مضاعفة .

وكان النهار قد بدأ .. ورأينا باعة الجرائد ينطلقون فى الطرقات صارخين : « وباء الأخلاق يا جدع — الميكروب الجديد — الكارثة الكبرى » .

وبدا لى من صياح باعة الجرائد وبما رأيت فى الشارع من آثار التخريب والتدمير وانتشار رجال البوليس فى الطرقات .. أن المسألة جد خطيرة .. أخطر كثيراً مما كنت أتصور .

واستأذنت الحراس فى أن نبتاع بعض الجرائد والمجلات حتى نطلع على ما حدث فى البلد من تطور وعلى ما حل بالناس من نوائب ومصائب . وناديت أحد الباعة فتابعت نسخة من كل ما معه حتى أتسلى بقراءتها فى الطريق وفى السجن . وجلست فى الترام ، وأسكت بالصحيفة اليومية الأولى .. فقرأت فى صفحتها الأولى بالخط العريض :

« ظاهرة عجيبة ينتج عنها حوادث خطيرة »

ثم كتب أسفل هذا العنوان عناوين أخرى فرعية أصغر حجماً من العنوان الرئيسى جاء بها :

« أحد الوزراء يضرب ضرباً مبرحاً فى حفلة تكريمه »

« خطيب يمين فى أحد الجوامع »

« قتل ما يقرب من ألف وخمسمائة حماة »

« فرار ما يربو على الخمسة آلاف زوج من زوجاتهم »

« أحد العظماء يموت ضرباً بالنعال من بعض أتباعه الأوفياء .

« الشيخ نور العيون يعلن ثورته على المايوه ذى القطعتين ويقول إن واحدة منها

فيها الكفاية .. ويجذب مبدأ العراة والسير ملط » .

« الأستاذ بلبوش رئيس جمعية منع المخدرات .. يلقي محاضرة في قاعة إيوارت عن تمييز « الجون هيج » عن « الديوارس » ويختم محاضراته بذكر بعض فوائد الحشيش وبقوله أنا جدد » .

ولم تدهشني العناوين كثيراً فما كنت أتوقع أقل من ذلك بعد أن زال النفاق من النفوس ، وأخذت أقلب صفحات الجريدة بين يدي .. فوجدت كل ما فيها قد تغير وتبدل .

أجل .. إن الجريدة نفسها قد أضحت بلا نفاق .

من يتصور هذا !!؟ من يتصور صحافة بلا نفاق ؟ أو نفاقاً .. بلا نفاق ! وكنا قد وصلنا إلى ميدان باب الخلق ، وقادنا الحراس إلى — التخشبية — حيث أدخلت وصاحبي إلى حجرة ضيقة قد وضع على أرضها المسفلتة « برش ودكة خشبية » .

وتربع صاحبي على الأرض وجلست على الدكة ، ورأته ينظر إلى ويقول في استسلام ومسكنة :

— أيعجبك هذا ؟

— صبراً .. فأخلق بذي الصبر أن يرى فرجاً .

— صبراً إلى متى .. إلى أن يوضع حبل المشنقة في عنقنا !!؟

— حبل المشنقة !!؟ قال الله ولا فالك .. إنه ما زال أمامنا تحقيق طويل .. ومحاكمة أطول .. نستطيع أن نطلب فيها شهادات الزعماء والوزراء .. فيضيعون الساعات الطوال في الدفاع .

— الدفاع عنا !!؟

— لا .. الدفاع عن أنفسهم .

— ولم ؟

— فرصة سانحة ، يشيدون فيها بفضائلهم ومحاسنهم ، ويعددون مساوئ

خصومهم .. ولا تنس كذلك الوقت الذى سيضيعه المحامون .. فى سبيل الظهور والشهرة ، لا فى سبيل الدفاع .

وأطرق صاحبى برهة .. ثم رفع بصره أخيرًا وقال فى حزن :
— على أية حال .. لست أرى فائدة فى كل هذا الوقت الضائع ما دمنا نشتق إن عاجلاً أو آجلاً .

— نشنق ؟ أيها الغيبى .. علام نشنق ؟ إن القتل قد أضحى — ديته — عشر ستين . فماذا فعلنا نحن حتى نشنق ؟!

— هذا القتل الذى تعنيه .. قتل سياسى .. أما نحن فحاولنا تلويث المياه بجراثيم الأخلاق .. ونشرنا بين الناس وباءها الفتاك .

— ومن قال لك إن هذه ليست تهمة سياسية ؟

ونظر إلى الرجل فى دهش وتساءل :

— وأى سياسة فيها !!

— نستطيع أن ندعى أننا لم نقصد بتلويث المياه الجراثيم سوى إصابة خصوم الحكومة .. الخونة .. الأشقياء .. بداء الأخلاق .. وتبقى الحكومة بلا أخلاق .. تصور الفائدة الكبرى التى تستطيع أن تجنيها الحكومة من ذلك ، والضرر البالغ الذى يصيب خصومها .

تصور خصوم الحكومة ومعارضيه .. وقد فقدوا كل قدرة على الغش والخداع والتفجير بالشعب .. والتهويل والتهويل والتفريغ ، والجري وراء الحكم ، والمصلحة الذاتية ، والأنانية والكذب والرياء والنفاق .

تصور خصوصاً شرفاء ومعارضة نزيهة أمينة عفة اللسان .. أمام حكومة لم تصب بعد بداء الأخلاق ولم تشرب — المقلب — الذى شربته المعارضة وتجرعه الخصوم !

أترى هناك جميلاً يمكن أن نصنعه فى الحكومة أكثر من هذا ؟ أهناك سبب أقوى من هذا يحملها على تبرئتنا ؟!

— وهل تظن أن الحكومة ستخدع بادعائنا ؟
— ولم لا ؟
— لأننا لوئنا كل المياه .. فكيف نزعم أننا لم نكن نقصد الحكومة ضمن من قصدنا .
— نستطيع أن نرسل الآن برقية لرئيس الحكومة نحذره فيها من شرب المياه حتى تثبت بذلك حسن نيتنا .
ووجدت الفكرة صائبة .. ووجدت فيها خير منقذ لنا ، وأخرجت من جيبى ورقة وقلماً وكتبت صورة التلغراف الآتى :
« صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .
لا تشربوا ماء الأخلاق ، ففيه المصائب وفيه البلاء .. اشربوا — فيشئى — إن أمكن ففيه الشفاء وفيه الوقاء .. حفظكم الله من الأخلاق ومن كل وباء » .
وقرأت البرقية على صاحبي وسألته :
— ما رأيك ؟
ولم يجب على سؤالى بل هز رأسه وقال فى يأس :
— وماذا تفعل إذا رد عليك « شربنا والى كان كان » ؟
— لا يهم الرد .. المهم أن تصل إليه البرقية حتى تثبت حسن نيتنا ..
وطرقت الباب منادياً أحد الحراس ثم دفعت الورقة من أسفل الباب سائلاً إياه أن يرسل البرقية إلى رئيس الوزارة .
وهبطت على البرش بجوار صاحبي .. فقد كانت جلسة « الدكة » متعبة ..
ثم أمسكت بكوم الجرائد .. لأضيع الوقت بالقراءة ، ولأرى كيف أضحت الصحافة بلا نفاق بعد أن أصابها هى الأخرى وباء الأخلاق .

(١٦)

صحافة بلا نفاق

أيها القراء الخدوعون .. إن هدف
الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليست
الوطنية .. ولا الثقافة ، ولا خدمة الشعب ،
ولا حرية الرأي ، ولا رفع منار الفضيلة ..
ولا .. ولا .. ولا شيء أبداً من كل هذه
الخزعבלات .. إن هدف الصحيفة الأول هو
بيع الصحيفة .. هو المكسب ، هو أكل
المعيش .

فتحت إحدى الصحف الشهيرة ملفت نظري في أولى صفحاتها مقال بعنوان
« أكل عيش » لأحد كبار الكتاب الذى تلتهب مقالاته حماسة وتفيض إخلاصاً
وقوة .

وأدهشنى العنوان بعض الشيء .. فما تعودت أن أقرأ للكاتب الصادق
المخلص .. مقالات بمثل هذه العناوين الباردة ، وأنخذت فى قراءة المقال فإذا به كما
يأتى :

« أكل العيش وما أدراكم ما أكل العيش ؟ أكل العيش يفعل بنا العجب
العجاب .. ولكن أهو حقاً مجرد أكل عيش ! أعنى العيش الخاف أو حتى العيش

والغموس .. لا يدفع بنا إلى كل هذا النفاق .. والتهويز والتهريج .. أكل العيش لا يستلزم منا كل هذا الجهد والتفنن في الرياء والنفاق .. إن الطمع هو الذى فعل .. الطمع لا فى أكل العيش ، بل فى أكل البقلاوة والجاتوة .

من منكم ذاق طعم المصاريف السرية ؟ أقسم لكم أنى معذور فى هذا النفاق .. الذى طالما سقته إليكم فى مقالاتى وأقسم أن أى إنسان كان فى موضعى وذاق مثلما ذقت لما كان أقل حماسة ولا نفاقاً .

أنتم لا تعرفون إلا القليل عما يجرى وراء الكواليس .. كواليس الصحف .. فكل ما تعرفونه هو هذا المظهر الخارجى الذى يبدو لكم على مسرح الصحيفة ، وكل ما ترونه من الكتاب الذى يبدو على صفحاتها .. هو تلك المقالات البراقة الزائفة التى فعل بها الماكياج ما فعل .. والتى تخرج كلماتها من بين أنامل الكتاب .. الأنامل المأجورة .. لا من بين الضلعوع أو من أعماق القلوب . كل ما ترونه أمامكم ليس إلا مقالات بالشن .. إما لسد خانة وملء فراغ أو لحاجة فى نفس يعقوب .

أيها القراء الخدوعون .. إن هدف الصحيفة الأول .. أية صحيفة .. ليس الوطنية .. ولا الثقافة .. ولا خدمة الشعب ، ولا حرية الرأى .. ولا رفع منار الفضيلة .. ولا ولا .. ولا شىء أبداً من كل هذه الخزعبلات .. إن هدف الصحيفة الأول هو بيع الصحيفة .. هو المكسب .. هو أكل العيش . أما كل ما ذكر فهو ليس من الأهداف فى شىء إنما هو وسائل توصل إلى الهدف الأول .. الربح .. فإذا كانت الوطنية مربحة .. فلتحى الوطنية ، وإذا كان المزول والفكاهة أكثر ربحاً ، فلتسقط الوطنية وليحى المزول والفكاهة .. وإذا كان ذكر الفضائح .. أشد ربحاً فلتحى الفضائح .. وإذا كانت محاربة الرذائل وسيلة لانتشار الجريدة فلتحى الفضيلة . وإذا كانت الصورة الفاضحة والسيقان العارية والتهود البارزة .. وسيلة ربح .. فلتذهب الفضيلة إلى حيث ألقت .

أكل العيش يا ناس هو غرضنا الأول . وهدفنا الأوحد . ونحن على استعداد

(أرض النفاق)

لأن نعمل كل المناقضات في سبيل أكل العيش .
منذ بضعة أيام قرأت في إحدى الصحف مقالا يحمل على الشركات السينائية
الأمريكية التي تساعد الصهيونية .. ويطلب كاتبه مقاطعة كل أفلام النجوم
والشركات التي تناصر الصهيونيين . وعدد أسماء النجوم والشركات المذكورة
وحت الحكومة على ألا تسمح بدخولها إلى مصر .

وكان المقال يفيض حماسًا ووطنية ، مما حدا بي إلى أن أقول لنفسى إن الصحيفة
تشكر على تلك الیقظة ، وذلك التوجيه ، ولكن نظرى وقع في أسفل المقال على
إعلان بالخط العريض .. عن أحد أفلام تلك الشركة التي تحذر الصحيفة في
مقالها من مشاهدة أفلامها .

وعجبت من هذا التناقض . كيف تدعو الصحيفة إلى مقاطعة أفلام الشركة
الصهيونية .. وفي الوقت نفسه تعلن عن أفلامها ؟

هل علمت السبب ؟

أكل العيش !

إن الوطنية والحماسة بضاعة رابحة .. والإعلانات كذلك تدر ذهبًا .. فماذا
يضير الصحيفة من أن ترينا وجهيها .. وجهها يلتهب حماسًا ، ووجهها يستجدي
النقود .. ماذا يضيرها من أن تحذر الناس من أفلام الشركة الصهيونية ، وأن
تحثهم في الوقت نفسه على أن يشاهدوا أفلام نفس الشركة — ما دام — كله
مكسب !

لست أدري ماذا يدفعني إلى ذكر كل هذا ؟ وإلى أن أكشف لكم نفسى ..
وأكشف الصحافة معي ! .. لست أدري ما الذى يدفعني إلى أن أكف عن النفاق
وأكون إنسانًا صريحًا وألا أندفع كما تعودت أن أندفع في ذكر مواقف الحكومة
المشرقة . ترى ماذا يدفعني إلى ذلك .. والمبلغ الذى قبضته بالأمس ما زال يتخم
محفظتى والمصاريف السرية لم ينضب معينها ولا جف نبعها !؟

وكيف ينضب معينا .. وخزانة الدولة مفتوحة لنا على مصراعها ..
مصاريق تتدفق بلا رقيب ولا حساب . إني لأذكر كيف تذوقتها لأول مرة ،
وكان ذلك ذات صباح ، وقد جلست إلى مكتبي .. أكتب المقال اليومي الذي
تعودت أن أكتبه .. والذي كنت أحمل فيه على الحكومة حملة شعواء .. وأهاجمها
هجومًا منكرًا .. لا لأني أكرهها .. ولا لأني أريد أن أقوم اعوجاجها وأهدبها
سواء السبيل .. بل لأن صاحب الجريدة أنبأني أن هذه المقالات ترضى الجماهير
وتروج الجزيدة ، فاندفعت أكيل للحكومة النقد والهجاء ، وأنا إنسان طويل
اللسان .. لا أجيد شيئًا أكثر من الهجاء ، إلا المديح الذي دفع ثمنه سلفًا .

ودق التليفون وأجبت :

— ألو .

— الأستاذ (...) ؟

— أجل أنا الأستاذ (...) .

— معالي الباشا يريد أن يكلمك .

وكلمني معالي الباشا .. وأنبأني بأنه يريد مقابلي ، وأنه سيحضر لزيارتي في
البيت ، وتملكني العجب .. معالي الباشا بجلالة قدره في البيت ؟
ومعالي الباشا هذا ليس مجرد وزير .. بل هو وكيل حزب .. وهو القوة
المحركة للدولة .. ترى أى سبب خطير قد دعاه إلى أن يتنازل ويشرفني بزيارته ؟
وذهبت إلى الدار فأعلنت من بها أن عظيمًا سيشفرفنا بالزيارة .. وبعد بضعة
ساعات شرف الرجل .

وجلسنا نتحدث في مختلف الشؤون . وعرجنا على السياسة فعتب على الرجل
عتابًا رقيقًا لمهاجمتي لهم .. وتملكني من عتابه شيء من الخجل ، ثم بدأ يدخل في
الموضوع فأنبأني أنه يسرهم أن أنتقد أعمالهم .. على أن أخفف من حدتي بعض
الشيء ، وأنهم طبقًا يعرفون أني لا أستطيع التحول إلى جانبهم مرة واحدة .
ولكن المسألة يمكن أن تأتى بالتدريج ، وهم على استعداد لتأدية ما أطلب من

خدمات من كافة العيانات .

ولم أدر بم أجيّب .. فلو كان الأمر يختص بى وحدى لكان هينًا ، إذا لم يكن أسهل على من التحول ، ولا أسهل على من أن أشيد بالحكومة بنفس الحماسة والحكمة والمنطق التى كنت أهوى بها إلى أسفل سافلين . فالمسألة كلها كما سبق أن أخبرتكم لا تعدو أن تكون أكل عيش .. لكننى كنت أعلم أن هناك صاحب الجريدة ، وأن الغيبى يعتقد اعتقادًا جازمًا أن جريدته لن تروج إلا بتلك المقالات التى أهجو فيها الحكومة هجاء مقذعًا .

ولاحظ الرجل على التردد .. وكان ذا كيا رأيًا .. إذا لم أكد أقول له :
— من ناحيتى أنا .. لا أظن هناك ما يمنعنا من التعاون فأنا فى خدمتكم ورهن إشارتكم .. ولكن فقط ..

حتى قاطعنى بقوله :

— من الناحية الأخرى اطمئن فقد تفاهت معه ، واتفقنا .
وأدركت أن الناحية الأخرى قد قبضت ، وأنه وجد أن المصاريف السرية أوفر ربحًا من الوطنية ومن هجاء الحكومة .

لست أدرى من هذا الذى ابتكر حكاية المصاريف السرية ؟
لقد كان أولى أن يسميها المصاريف السحرية .. نقود متدفقة لا مقطوعة ولا ممنوعة .. كيف لا أتحمس من أجل الحكومة ، وكيف لا أغفر لها الزلات .. وأبتكر الأعذار ؟ كيف لا ألحس سابق تشنيعى ، وأتناسى هجائى المقصدع وشائمي وسبائى ؟! كيف لا أدق الطبول والزمر ؟! كيف لا أرقص أمامها عشرة بلدى ؟! كيف لا أعمل لها بهلوانًا . والمصاريف السرية السحرية تغمرنى من كل جانب وتغدق على من كل صوب .

كيف لا أنافق .. بالثمن ، وأنا الذى كنت أنافق مجانًا ، ولوجه .. الله ماذا يضيرنى أن أكون منافقًا بين ملايين المنافقين فى أرض النفاق ؟!

ولكننى اليوم .. أحس بطارئ جديد .. طارئ خطر . قد بدد من نفسى

النفاق وجعلنى عاريًا مكشوفًا ، وسلبنى القدرة على أن أظهر غير ما أبطن ، وأن أقول غير ما أعتقد ، وأن أكتب لمجرد أكل العيش .

إنى أحس أن أكل العيش من عند الله لا من عند الإنسان .. أحس أن فى السماء رحمة إلهية .. أكثر نفعًا من المصاريف السرية .

لشد ما أشفق عليكم وعلى الأمة وعلى الصحافة .. إنى أخاف من تلك الصراحة التى تعتمل فى جوفى .. إنى أخشى ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى الكتابة لوجه الله ولوجه الوطن .. ذلك الدافع الذى يدفعنى إلى قول الحق فى بلد يخشى الحق ويكره الحق .

اللهم رفقًا بنا .. اللهم هب لنا من لدنك رحمة وهب لنا من أمرنا رشدًا .
اللهم إنى فى غنى عن مصاريفهم السرية ، وعن كل ما يدفع لى لأغير ما بنفسى من صراحة وحق .

إذا كان أكل العيش يحب النفاق .. اللهم اشهد أنى سأموت جوعًا .
وهزرت رأسى رضاء وغبطة وقلت لصاحبى :

— هذا كاتب قد فعلت فيه الجرعة مفعولها .. إننا سنتظر منه خيرًا كثيرًا ، فليس أنفع فى الأرض من أهل الفكر المخلصين الصرحاء الذين يكتبون بقلوبهم ، فهم خير قادة للبشر وخير واثق للإنسانية ، ولكننا فى هذا البلد قد أتلفناهم .. فقد تحولوا من كتاب وأهل فكر .. إلى باعة كلمات وتجار أفكار .. تستأجرهم الجرائد لقاء أجر شهرى فيوردون لها المقالات بكميات معروفة فى مواعيد منتظمة ، كأنهم متعهدو لحوم وخضار .. يكتبون لمجرد ملء الفراغ وسد الخانة .. فيهدرون ويملاؤون الصفحات بالسخف ، والناس موهومون من أسمائهم الرنانة (التى اكتسبوها بما كتبوا فيما مضى قبل أن تصبح أسماءهم رنانة) يتخيلون فى القشور لبابًا ويقبلون عليها فلا تطعمهم من جوع ولا تروهم من ظمأ .. إن الكاتب منهم لا يكتب حين تنضح فى رأسه فكرة أو حين ينزل عليه وحى ، فهذه أشياء لم يعد لها مكان فى دنيا الروتين .. إنه يكتب بلا فكرة

وبلا وحى . يكتب لأن موعد تقديم المقالة قد حان ، وهو لا بد أن يكتب شيئاً .. أى شيء ، والجريدة لا يهمها ما يكتب من هذر .. فهى لا تريد سوى اسمه .. أما الآن ، فقد أضحي إنساناً آخر ، لقد جولته الجرعة من بائع كلمات إلى كاتب مخلص حر .. والله لو لم تكن هناك فائدة فى الحياة الجديدة سوى ذلك لكفى بها فائدة .. هل هناك خير للبلد من أن يكون أهل الفكر فيها مخلصين أحراراً ؟

وهز صاحبى رأسه موافقاً ، ولم ينبس بينت شفة ، فعدت إلى الصحيفة أتابع القراءة .

ووقع بصرى فى أسفل المقال على إعلان سينا .. أضحكنى ما به .. فقد كان إعلاناً بلا نفاق .. وإليك الإعلان كما قرأته :

شركة أفلام الفجر (لصاحبها الحاج متولى بائع الخردة بوكالة البلح) تقدم أسخف وأبوخ أفلام الموسم :

حب بلا أمل

تأليف وإخراج وتمثيل وسيناريو وحوار وتصوير أثقل مخلوقات الله وأغباهم وأجهلهم الأستاذ (...) مع شرذمة من الأفافين والأفاقات .. الضائعات .

فيلم رخيص تافه محشو بالأخطاء الفنية وغير الفنية ومحشو كذلك ببضعة رقصات بلا مناسبة .. ومحكمة وقضاة وكلاء نيابة .. ومحام يخطب بلا مناسبة أيضاً ، والرواية مفروض فيها أن تكون مؤثرة مفعجة .. فيها حريق .. ومريض بالسل ، ورجل يقتل نفسه بالرصاص .. وآخر يصدمه ترام ، وطفل يقع من رابع دور . ومع ذلك فكل هذه الكوارث والفواجع تبعث الضحك فى النفوس .. أما الشيء المفعج حقاً ، فهى النكات البائخة والتبريج الرخيص المحشوبه الفيلم ، ونحن نحذر الجمهور من مشاهدة الفيلم ونسأله أن يطلب الرحمة

لصاحبه « الحاج متولى » الذى حشر نفسه حشرًا فى تجارة السيخا فأضاع
« تحويشة العمر » على الفيلم وعلى الراقصة التى فى الفيلم .
ونظرت إلى صاحبى وقلت ضاحكا :
— هكذا تكون الدعاية والإعلانات وإلا فلا .
ثم لفت نظرى إعلان آخر بعنوان :

أوكازيون

تعلن محلات (..) الكبرى عن أوكازيون تباع فيه البضاعة بنفس السعر
العادى وبدون أى تخفيض .. بضائع قديمة مخزونة ، ليس هناك طريقة لتصرفها
سوى هذا الأوكازيون الصورى .. احذروا الغش والنصب والاحتيال .
وإعلان آخر بعنوان :

النصاب الأكبر

لكى تتروا المعجزات الخارقة زوروا النصاب الأكبر الدكتور (..) المنوم
المغناطيسى وقارئ الكف واللاعب بالبيضة والحجر ، تهويش فى تهويش ..
وغش فى غش ، وتهريج فى تهريج .. هل يعلم الغيب إلا الله ؟
وهكذا ظللت أتنقل من إعلان إلى إعلان .. وكلها قد خلت من النفاق
وملئت بالصراحة والحق .
وتركت الإعلانات جانبًا ، وأخذت أقلب البصر فى الأنباء المحلية .. فقرأت
تحت عنوان :

مجلس الوزراء

اجتمع مجلس الوزراء للنظر في الموقف السياسى .. وظل المجلس مجتمعاً لمدة ثلاث ساعات ، وقد انصرف الوزراء تبدو على وجوههم علامات التعب والإرهاك .. وقد سألنا أحد الوزراء عما تم في الموقف فالتفت إلينا في دهشة وتساءل :

— أى موقف ؟

— الموقف السياسى .. لقد قيل لنا أن المجلس سيبحث الموقف السياسى في هذه الجلسة .

— يجوز .

— وماذا تم فيه ؟

— والله لا أدرى .

— كيف ؟ .. ألم تكن معاليكم موجوداً في المجلس ؟

— كنت موجوداً .. ولكنى سرحت في نصف الجلسة ، ونمت في النصف الثانى .

وسألنا وزيراً آخر توسمنا فيه خيراً ورأينا فيه علامات اليقظة :

— ماذا تم في الموقف السياسى ؟

— لا شيء .

— ألم يبحث المجلس في الموقف السياسى ؟

— لا . ماذا بحث ؟

— لم يبحث شيئاً .. سوى النظر في بعض الترقيات والدرجات والعلاوات ،

ثم ضاعت بقية الوقت في خنافة بين وزير التجارة ووزير المالية من أجل التنازع على بعض الاختصاصات .

— وما هي آخر أخبار الموقف الخارجى ؟
ونظر إلينا الوزير فى ضيق وتبرم وأجاب :
— يا أخى حل عنى بقى .. أنا مالى ومال الموقف الخارجى اسأل رئيس الوزراء .

وحاولنا أن نستفهم من رئيس الوزارة .. ولكنه جرى منا وعندما لحقنا به رفع عصاه وهوى بها على أم ناصيتنا ولعن أبانا ثلاثاً .. ثم زاغ بعبرته .
وانتهيت من قراءة أخبار مجلس الوزراء ، فانتقلت إلى عمود آخر لأقرأ تحركات الوزراء تحت عنوان (الوزراء) فقرأت ما يلى .

انتقل معالى وزير الزراعة إلى الإسكندرية للمرور والتفتيش رغم أنه ليس هناك ما يستدعى لا المرور ولا التفتيش .. فلما سألناه عن سبب سفره أنبأنا أنه يجب أن يمر ويفتش على أسوان فى الشتاء ، وعلى الإسكندرية ورأس البر وبور سعيد فى الصيف .

استقبل معالى وزير الأشغال فلان باشا .. وفلان باشا .. ثم أمضى فى مكتبه بضع ساعات وطلب منا أن نذكر أنه يشغل عشرين ساعة فى اليوم .. وأنه منهك جدا .. وأنه قد خسر بدخوله الوزارة .. وأن الوزارة عبء ثقيل .. وأنه لولا أن الوطن فى حاجة إليه لاستقال منذ زمن .

وقبلت الصفحة فوق نظرى على إعلانات الوفيات فهالنى ذلك التطور الذى طرأ على طريقة النعى .

وتركت الصحيفة جانباً وتناولت إحدى الصحف الحزبية .. فإذا بعنوان على صدر الصحيفة بالخط الأحمر جاء به :

« يجب أن تستقيل الوزارة .. الرئيس يصرح بأنه يريد العود إلى الحكم فوراً .. لأنه مشتاق وبه لوعة » .

وقرأت المقال فوجدت نصفه الأول .. كلاماً عادياً مما تعودت أن أقرأه فى الجريدة .. وهو مهاجمة الوزارة وطلب إقالتها .. أما النصف الثانى فقد اختلف

عما تعودت أن أقرأه .. لقد زال ما به من نفاق ، وأفصحت الصحيفة صراحة .. عن سبب هجومها على الوزارة .. وقالت إن الوزارة قد طال عمرها بلا مناسبة .. وإن أنصار الحزب قد نفذ صبرهم وعلى وشك أن ينفضوا .. وأن المسألة (بقت بأيخه قوى) .

وقلبت الصحيفة فلم أر في عمود الزيارات الذى كان يكتظ بالأسماء زائرا واحداً ، وأدهشنى أن أجد الصحيفة خلّت من التهريج والتضليل . وألقيت بالصحيفة وأمسكت بصحيفة أخرى . فوجدت في صدرها نبأ عجيبيًا .. بالخط العريض جاء فيه :

سبق صحفى عجيب

الوزارة تحل مجلس النواب ، ومجلس النواب يسحب الثقة من الوزارة .
البلد بلا وزارة .. وبلا مجلس نواب .
ثم قرأت تحت العنوان ما يلى :
جاءنا والصحيفة ماثلة للطبع ، أن مجلس الوزراء قد قرر حل مجلس النواب ..
لأنه كعدمه . ولأنه عبء يرهق ميزانية الدولة بلا أية فائدة ، وفي الوقت نفسه قرر مجلس النواب سحب الثقة من الوزارة .. لأنها لا تستحق منه الثقة .
ونظرت إلى صاحبي وصحت به في دهشه :
— أرايت هذا ؟

ثم مددت له يدي بالصحيفة فلما قرأ الخبر هز رأسه وأجاب ببساطة :
— طبعا .. وزارة بلا نفاق .. لا بد أن تحل مجلس النواب .. ومجلس نواب بلا نفاق .. لا بد أن يسقط الوزارة
ثم رأيت الدهش قد علا وجهه فجأة ووجدته يحملق في الجريدة ويهتف بى :
— أقرأت هذا ؟

فهزرت رأسي مستفهماً .. فأجاب :

— هذا الخبر خاص بنا .

— بنا نحن ؟

— أجل .

وخطفت منه الجريدة وسألته :

— أين ؟

فأشار بأصبعه إلى خبر صغير في أسفل خبر الوزارة ومجلس النواب .. وبدأت

القراءة :

وباء الأخلاق

تلقينا والجريدة ماثلة للطبع أن مجرمين شقيين قد ألقيا في النهر كيساً مليئاً
بمسحوق الأخلاق ، وأن وباء الأخلاق قد انتشر بسرعة بين الناس .. ولا شك
أن هذا هو سر ما قد حدث من اضطرابات في كل أنحاء البلد .. وقد علمنا أن أحد
المخبرين استطاع الإرشاد إلى المجرمين وأنه سيلقى القبض عليهما وينالان عقابهما
الصارم .

وهز صاحبي رأسه وسألني في يأس :

— ما العمل الآن .. أما من طريقة للنجاة ؟

خاتمة

هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين إما
 شعب يكره نفسه لأنه — رغم ما يشيعون عنه
 من أنه مصدر السلطات — يأبى أن يصلح
 حاله ، ويعالج مصابه ، ويزيل عن نفسه ذلك
 القيد الثقيل من الفقر ، والجهل ، والمرض ..
 وإما أنه شعب زاهد ، قد تعود ذلك البؤس
 الذى يرتع فيه ، والحرمان الذى يأخذ
 بخناقه .

لم أكن أرى داعيًا لهذا التشاؤم من صاحبي ، ولا كنت أشعر أن هناك من
 الخطر على حياتنا ما يدعونا إلى التفكير فى الفرار ، وألقيت الصحيفة من يدي
 وأخذت أفكر فى موقفنا برهة ثم قلت له :

— لست أرى معنى الفرار ، فلا بد لنا أن نسير فى الطريق حتى النهاية .
 — أى طريق هذا الذى تود السير فيه حتى النهاية ؟ أما يكفيك هذا الحال
 الذى دفعت بنا إليه ؟ ماذا تريد أكثر من هذا ؟!

— أريد أن أشاهد محاكمتنا .. فلا شك أنها ستكون محاكمة طريفة .. هل
 أبصرت فى حياتك إنسانًا يحاكم بتهمة إصابة الناس بالأخلاق ، وإزالة النفاق من
 نفوسهم !

— يا سيدى لم أبصر ، ولا أود أن أبصر .. مادمت سأكون أنا ذلك المتهم ؟
— على أية حال .. تود أو لا تود .. ستبصرها مرغماً . فإني لن أحاول
الفرار ، وإذا أردت أن تهرب فاهرب وحدك .
— إما أن تهرب سوياً .. أو نبقى سوياً .
— قلت لك لن أفر .

— إذا فلنبق وأمرنا الله .
واضطجع صاحبى على البرش واستلقيت بجواره .. ولم نلبث قليلاً حتى غلبنا
التعب ورحنا فى سبات عميق .

ولم يطل نومنا حتى استيقظنا على صوت الباب يدفع والحارس يصيح بنا لكى
تنبعه إلى النيابة لعمل التحقيق .

وسرنا وراء الشرطى حتى وصلنا إلى حجرة وكيل النيابة ، ودخلت أنا أولاً
ووقفت أمام المحقق .. أفحصه ويفحصنى ، وأقلب فيه البصر ، كأن كلا منا
سيشتري الآخر ، وكان هو أول من نطق ، فسألنى قائلاً :
— اسمك ؟

فقلت اسمى ، وأجبتة عن بقية الأسئلة الأولية الأخرى ، فلما انتهى منها عاد
يحملق فى كأنه يحاول أن يدرسنى أو يكشف عن دخيلة صدرى .. وحملت فيه
أنا الآخر فوجدته متأثقاً متحذلقاً .. فرحاً بنفسه ، مغروراً فى سلطانه
وجبروته .. محيطاً بنفسه بجو من الرهبة .. حتى بدا لى أن الخالق لو هبط من سماءه
ليجربى التحقيق معنا .. لكان أكثر تواضعاً .

طال بنا الصمت ، ولم أشك فى أن صاحبنا يحاول أن ينسج الشباك ويضع
الخطط لإيقاعى ، فقد وجدته يسأل فجأة :

— أين كنت فى الساعة الحادية عشرة مساء ؟

وفكرت برهة ، وأدركت أن الرجل ينوى أن يتعب نفسه ويتعبنا بلا مبرر ولا
داع .. وفضلت أن أختصر الطريق .. وأريحه من عناء التحقيق ، وألقى إليه

الاعتراف كاملا ، فقلت ببساطة :

— يا سعادة البليك .. أرح نفسك .. أنا الذى ألقىت كيس الأخلاق فى النهر ، وإنى على استعداد لأن أكتب وأمضى على هذا الاعتراف .

ورفع الرجل حاجبيه فى دهشة وبدا عليه الامتعاض .. كأنما ساءه أن أسلبه فضل اكتشاف الحقيقة .. وأن أضيع عليه فرصة إظهار ذكائه ونبوغه .

ووجدته يقلب شفتيه ويقول فى ازدراء :

— أجب على قدر السؤال ، وما تبقاش غلباوى .

— ما تبقاش غلباوى انت .. واكتب ما أقوله لك .

وضرب الرجل مكتبه بيده ، واحمر وجهه ، وفتح فاه لينادى العسكرى الواقف بالباب ، ولكن التليفون دق فجأة فرفع السماعه ووضعها على أذنه ، ووجدت أساريه تنفرج وصوته يلين .. ويهمس فى التليفون بصوت رقيق ناعم :

— أهلا وسهلا .. حاضر .. حاضر .. أيوه يا أفندم من عنيه الاثنين .. الساعة سبعة ، ما تتأخرش ، أوريفوار .

ووضع السماعه .. ثم نظر إلى وكسا وجهه سيما القسوة والجد والصرامة ، واستدعى بعض الشرر ليتطاير من عينيه ، وفتح فاه ليطلب العسكرى ، ولكن التليفون عاد يدق مرة أخرى .

ورفع السماعه .. فانطفأ الشرر ، وانقلب الغضب خنوعا ، والشدة ليئا وخضوعا ، وانطبت على تقاسيم وجهه .. أبلغ آيات الاحترام ، ووجدته يقول بلهجة الرقة والتواضع :

— أهلا وسهلا سعادة الباشا .. نقبل الأيادى يا أفندم . تحت النظر يا أفندم .. حاضر يا أفندم .. أيوه يا سعادة الباشا مضبوط يا سعادة الباشا .. بكل سرور يا سعادة الباشا .. أنا برضه بقول كده يا سعادة الباشا .. برضه أحسن يا سعادة الباشا .. مع السلامة يا سعادة الباشا .

ووضع السماعة وعاد يكسو وجهه علامات الصرامة والغضب .. ولكنه كان قد نسي الباعث على هذا الغضب ، فقد أحدثت به هذه المحادثات المتبادلة كثيرًا من الشرود ، وأخذ ينظر إلى من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، محاولاً أن يتذكر سبب غضبه على . أو حتى من أكون وما مسألتي ، وأخيرًا نظر إلى الكاتب وسأله متبرماً :

— كنا بنقول إيه ؟

— سعادتك قلت للمتهم ما تبقاش غلباوى .. فأجابكم .. ما تبقاش غلباوى انت .

— أيوه .. أيوه .. تذكرت .

ثم صفق يديه فأقبل الحاجب مسرعًا . وفي تلك اللحظة دق التليفون مرة ثالثة .. ورفع الرجل السماعة ووجدته يجيب في ضيق وتبرم .. « يا ستى اطبخی الى تطبخيه .. معرفش .. معرفش .. مش فاكرك .. زى ما انتى عايزه » . وأدركت أنه لا شك يحدث البيت ، ووجدت الحاجب يقف منتظرًا . فخطر لي خاطر عجيب .. وجدت فيه خير منقلنا من غضب وكيل النيابة .. ونظرت إلى الحاجب وقلت له بصوت منخفض :

— البيه عايز يشرب .

وانطلق الحاجب ليحضر كوب ماء !

إن في كوب الماء خير معين لنا على صاحبنا .. إذ هو كما بنا لى من محادثاته التليفونية .. لم يتجرع من المياه الجديدة .. ولم تتقبل إليه عدوى الأخلاق ، ولا تبدد من نفسه النفاق .

ووضع الرجل السماعة .. وفي تلك اللحظة أقبل الحاجب يحمل كوب الماء ووضعه أمامه فمد يده إليه وتجّعه بدون تفكير .. ثم كسا وجهه علامات الغضب مرة ثالثة والتفت إلى الكاتب متسائلًا :

— هيه .. كنا بنقول إيه ؟!

وتنحني الكاتب وهم بأن يرد عليه ما كتب .. ولكنى قاطعته قائلاً :
— يا سيدى .. أرجوك .. إن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلى كل هذا
التعقيد وتلك الأسئلة .. إنها تتلخص فى بضع كلمات .. إنى أقر وأعترف أنى قد
وضعت عامداً ، ومع سبق الإصرار ، مسحوق الأخلاق فى المياه .. وإنى متالك
لقوائى العقلية ، ومستعد لتحمل نتائج كل ما حدث وما سيحدث .. هل تريد
شيئاً أكثر من هذا ؟

وهز الرجل رأسه فى حيرة . ودهش كأنه يشك فى سلامة عقلى .. وصاح
بالحاجب :

— هات الرجل الآخر .

وأقبل الحاجب بصاحبى الذى وقف أمام وكيل النيابة فى هدوء وأجاب على
أسئلته الأولية .. ولم ينس أن يذكر أن صناعته تاجر أخلاق بالجملة والقطاعى ،
وأنه مستعد لتوريد الطلبات حتى المنازل (هذا شئ جديد لم أكن أعرفه عن
صاحبى أو ربما كان ابتكاراً جديداً بمناسبة زوال النفاق من الناس ورواج بضاعة
الأخلاق بينهم) .

وصمت وكيل النيابة برهة وبدأت عليه الحيرة .. وخيل لى أن مفعول الجرعة
بدأ يؤثر فيه وسمعه يوجه القول إلى صاحبى :

— ماذا تعرف عن كيس الأخلاق ؟

— إنى صاحبه .

— ومن الذى وضعه فى الماء ؟

فأشار لى مجيباً :

— هو .. وإن كنت أعتبر أنى متضامن معه فى كل ما فعل . وأنى أشاركه
المسئولية عن كل ما حدث .. بل وأتحمل عنه كل عقاب .. فإن الذنب ذنبى ..
فهو طائش أحق لم يكن يدرى قط مغبة عمله .. ولا كان يتصور أنه سيؤدى إلى
تلك النتائج .

وهرش وكيل النيابة رأسه وبدأ لى أن الجرعة تتفاعل فى جوفه ، وأن الأخلاق تسرى فى نفسه ، وأطرق برهة فى صمت ، ثم رفع رأسه متسائلا فجأة :
— منذ متى ، وأنت تملك هذا الكيس ؟

فأجاب صاحبه :

— منذ مدة طويلة .

وهنا بدأ يظهر مفعول الجرعة فقد هز وكيل النيابة رأسه فى حسرة وأسف وقال :

— منذ مدة طويلة ، وأنت تملك هذا الكيس !!؟ يا للأحق المأفون ... وكيف سمحت لنفسك طول تلك المدة أن تحتفظ بالكيس دون أن تلقى به فى النهر .. أيها المجرم الأثيم ؟! كيف سمح لك ضميرك بأن تترك النفاق يرعى فى جسد الأمة . ويلوث الناس .. دون أن تحاول أن تتقدم لهم بالعلاج ؟

ثم صاح بالحراس طالبًا منهم أن يعيدونا إلى السجن ، وهو يتمم قائلا :
— هذه مسألة خطيرة .. لا بد من عرضها على النائب العام .

وعدنا إلى السجن ، ومر بنا اليوم الأول ثقيلًا مملًا ، وبتنا ليلتنا فى نوم قلق متقطع .. وفى الصباح طلبتنا النيابة للتحقيق مرة أخرى .. وقبل أن نذهب إلى وكيل النيابة استطعنا الحصول على إحدى الجرائد الصباحية فقرأنا العنوان الآتى بالخط العريض :

« القبض على المجرمين الخطرين والتحقيق معهما » .

وكيل النيابة المحقق يصاب بالأخلاق فجأة .. فيطلب تبرئة المتهمين ، أو محاكمتهم على احتفاظهما بكيس الأخلاق مدة طويلة دون أن يلقيها فى الماء .
ثم جاء بعد ذلك ما لى :

قبض فى ساعة مبكرة من النهار على المجرمين الأثمين اللذين ألقيا بجرائيم الأخلاق فى الماء وأودعا السجن رهن التحقيق ، وفى الساعة العاشرة صباحًا طلبا للتحقيق ، ولكن أحدهما احتال على وكيل النيابة وسقاه جرعة من الماء الملوث (أرض النفاق)

فأصيب بالأخلاق .. ورفض مباشرة التحقيق ورفع تقريراً إلى النائب العام يطلب منه تبرئة المتهمين أو محاكمتهم بتهمة السكوت على مصاب البلد دون أن يحاولوا التقدم بالعلاج رغم اعترافهما أنهما كانا يملكان العلاج منذ مدة طويلة . وقد أمر وكيل النيابة بالتنحي عن التحقيق .. وعين آخر لإعادة التحقيق بدلا منه ، وستتخذ الاحتياطات اللازمة لتحسينه ضد وباء الأخلاق .

وقد بلغنا والجريدة ماثلة للطبع أن الجهات المسؤولة قد استطاعت أن تحجز كمية من المياه غير الملوثة التي ستخصص لمن ييدهم الأمر .. ولأصحاب الأمر .. ولأصحاب المناصب العليا الذين تخشى عليهم الدولة من وباء الأخلاق .. ويدخل ضمن هؤلاء كل من سيتولى أمر التحقيق مع المتهمين والنظر في قضيتهم .. حتى لا يتكرر ما حدث من المحقق المصاب .. وحتى ينال المتهمان ما يستحقان من عقاب على سوء فعلتهما .

وقد بلغنا كذلك أن كميات من الماء الملوثة قد أعدت للفحص والتحليل ، وأن التجارب ستجرى لمحاولة عمل مصل واق من الأخلاق ، وإن كان الأمل في ذلك ضعيفاً جداً .

ولم يتضح بعد ما إذا كان الوباء ينتقل بالعدوى .. ولكن السلطات المسؤولة جادة في عمل معازل خاصة للمصابين .. وستصدر أوامر للتبليغ عن كل حال اشتباه أو إصابة بالأخلاق .

وطويت الصحيفة ونظرت إلى صاحبي وقلت في يأس :

— لا فائدة .. لقد ضاع منا كل أمل .

وسألني صاحبي في ذعر :

— كيف ؟

— إن المسؤولين سيحصنون أنفسهم ضد الأخلاق .. وسيكون وكيل النيابة المحقق سليماً معافى .. وكذلك القضاء .

— هذه نكبة كبرى .. لقد كان كل أملنا في إصابتهم بالأخلاق .. واحسرتاه

لقد ضاع العمر سدى !!

— لن يضيع العمر يا صاحبي .. ولو ضاع . ما ضاع سدى . أهنأك خير من
أن نموت وتحيا الأخلاق ١٩
— أبداً .. فقط ليها تحيا .

ووقفنا أمام وكيل النيابة الجديد .. المحصن ضد الأخلاق .. ولم يكن مظهره
يشير بالخير .. بل استطعت أن أقرأ من سيماؤه أنه قد نوى شرًا .

ولم يطل بنا التحقيق .. فقد كان اعترافنا واضحًا جليًا لا يحتمل التحقيق .
ومرت بنا الأيام ونحن في غياهب السجن .. حتى كان ذات صباح استدعينا
للمحاكمة ، ووقفت وصاحبي في قفص الاتهام نقلب البصر بين الجماهير
المحتشدة في ساحة المحكمة .. واستطعنا أن نميز بينهم المعارف والأهل والأصدقاء
وقد أخذوا يلو حون لنا بأيديهم ويسألوننا التجلد والتشجع .

وافتححت الجلسة ، وجلس القضاة يحذقون فينا بنظرات قاسية صارمة ..
وملأني التشاؤم إذ لم يبد عليهم أى أثر للوباء .. وباء الأخلاق .

ونودى على الشاهد الأول .. وهو الرجل الذى كان ينصت إلينا في تلك الليلة
السوداء والذى وشى بنا وأرشد الشرطة إلينا . ولم تستغرق شهادة الرجل سوى
بضع دقائق .. ثم بدئ بعد ذلك في عرض عينات من المجنى عليهم ممن أصيبوا
بوباء الأخلاق وزال من نفوسهم النفاق ، أو ممن أصابهم المجنى عليهم بأضرار
وعاهات .. بعد أن أزيل عنهم حجب الرياء وستر المداينة والكذب .

وبدا وكيل النيابة يسرد التهمة في تفصيل وإسهاب قائلاً :

— أمامكم أخطر مجرمين عرفهما التاريخ .. مجرمان تضاءلت أمام جرميتهما

كل جرائم عرفتها الإنسانية وارتكبتها البشر .

لست أدري أى عقاب يمكن أن يتناسب وفداحة الإثم الذى ارتكباها ، فإن
المشرعين الذين وضعوا القوانين لم يخطر على بالهم قط أن هناك إنسانا يمكن أن
يرتكب تلك الجريمة التى ارتكباها .

هذان المجرمان المائلان أمامكما .. قد تسببا في فناء البشر .. لقد جردا الناس من خير قناع كانوا يخفون به خبايئهم وشروهم .. لقد كشفوا عن حقيقتهم المروعة وتعرت نفوسهم من كل ما كان يسترها ويحجب عورتها .. كيف يستطيع الناس أن يحيوا بلا نفاق ؟! كيف يستطيعون أن يحتمل بعضهم بعضًا .. ؟! كيف يستطيع الزوج أن يعيش مع زوجته لحظة بلا رياء ولا نفاق ؟! كيف تستقيم الأمور وكيف تنقضى المصالح ؟! كيف تنتظم الحياة ويتعامل الناس وقد خلوا من النفاق ؟!

كيف تنشأ الأحزاب ، وتؤلف الوزارات ؟! من ينادى بأمانينا الوطنية .. ومن يخطب .. ومن يكتب ؟
كيف يحدث كل هذا .. بعد أن زال النفاق ؟! وماذا يقول الخطباء ويكتب الكتاب ؟! وماذا تفعلون أيها القضاة وماذا يفعل المحامون .. بعد أن انتشر وباء الأخلاق ؟!

إن البشر سينتحرون جزعًا وفزعًا إن لم يدركنا الله برحمة من عنده .. فيعيد إلى أنفسنا ما تبدد من نفاق .. ، ويزيل عنا ما ابتلاها به هذان المجرمان من أخلاق .
يا حضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيًا للإطالة .. فالجريمة واضحة وضوح الشمس ، والمجرمان معترفان .. فلا تأخذكم بهما رحمة ولا شفقة .. فإن نفسيهما الشريرتين وجسديهما النجسين لا يستحقان أية رحمة .

إني أطلب أن تحكموا عليهما بالإعدام .. وبودي لو استطعت أن أطلب أكثر من هذا ، فإني أرى في مجرد إعدامهما رحمة بهما وخلصًا لهما من هذه الدنيا الموبوءة بالأخلاق .

يا حضرات القضاة والمستشارين .. لست أرى داعيًا للإطالة .. هل تروني مبالغًا .. لو سألتكم أن تحكموا عليهما بالإعدام .. على أن يكون الحكم مشفوعًا بتوصية إلى السماء تؤدى بهما إلى جهنم وبئس القرار .. إننى أعلم أن فى طلبى

هذا شيئاً من الغرابة .. وأن ليس من سلطة القضاء التوسط لدى السماء .. ولكن
لِمَ لا نجرب . على أن تكون التوصية في صورة دعاء حار .. يدعو فيها القضاء على
المتهمين بأن يخرب الله بيتهما .. ويمرط بهما السماء ويسود آخرتهما ..
ولا يريهما نصفة ولا حسنة .. ولا يعطف عليهما بلحظة في الجنة ، بل يخلدهما
في الجحيم مع أمثالهما من الأبالسة والشياطين .

وصمت وكيل النيابة وأخذ يجفف عرقه بمنديل في يده وطلب جرعة ماء ..
فأخرج أحد الشرطة زجاجة من جيبه وأفرغ له منها في كوب في يده ، فتناول
الرجل جرعة واحدة وبدأت عليه علامات الاشمئزاز وهمس قائلاً :
— هذا هو المصرح به لسعادتكم بأمر الحكومة .

وصمت الرجل مكرهاً ووضع الكوب أمامه على المنضدة ..
ونظرت إليه وهززت رأسى في أسف ودهشة .

هذا الرجل لم يكتف بأن يسأل القضاة حكمهم الأرضى بل يطلب منهم
التدخل في حكم السماء .. آه .. من لى بجرعة واحدة من المياه الملوثة .. أدفع بها
في جوفه !

ولم أكن قد طلبت محامياً للترافع عنا .. فقد كنت موقناً من براءتنا .. واثقاً
من قدرتي على الدفاع عن نفسى وعن صاحبي .
وطلبت كلمة الدفاع .. فقلت لهم إني سأتكلم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة
عن صاحبي ، وبدأت مرافعتى قائلاً :

— يا حضرات المستشارين .. كم كان بودى لو تنوقم تلك المياه الجديدة التى
لوثت بالأخلاق .. والتى وضعتمونا من أجلها في هذا القفص ، والتى دفعت
بوكيل النيابة إلى أن يسألكم أن تحكموا بالإعدام علينا .. ولكنى أعرف أنها
محظورة عليكم ، ومع ذلك فإنى سأتحدث إليكم فما زال أملى في عدالتكم
كبيراً .. رغم أنكم لم تصابوا بعد بالأخلاق .
قضيتنا اليوم .. تتلخص في كلمتين .. هى .. نفاق .. أو لا نفاق .. هل

يمكن أن تستقيم الحياة بلا نفاق .. أم لا بد لها من النفاق ١١٩
دعكم من تلك المظاهرات ، وهذه الاضطرابات التي ترونها .. فلست أرى
فيها إلا رد فعل سرعان ما سيزول ، وسرعان ما ستتعود بعده أن نبصر أنفسنا
سافرين مجردين من حجب النفاق والرياء .. فنعمل على إصلاح ما فسد ..
وتقويم ما اعوج .

أقسم لكم أيها السادة أننا سنصلح في بضعة أشهر ما عجزنا عن إصلاحه في
عشرات السنين .

هل يعجبكم هذا الحال الذي نحن عليه ؟! هل يعجبكم هذا العالم الذي نعيش
فيه .. والذي يتحكم فيه نفر من البشر ، يدفعون بالشعوب إلى أتون الحروب ،
كأنها خراف الضحية أو كباش الفداء .. فداء أنفسهم الخبيثة الحمقاء ، ونفاقهم
المر الكريه ؟!

من يستطيع منكم أن يفهم السياسة الخارجية الخبيثة الملتوية .. المليئة بالنفاق
والرياء .. كل منهم يستر شروره وراء ستار زائف من الدفاع عن الحرية والمبادئ
السامية ، والشعوب مستسلمة راضخة ، لم تكذ تجف دماؤها أو ترمم خرائبها
حتى يلوحوا بخراب جديد ودمار عاجل .

لو زال النفاق من الدنيا ، لكشف هؤلاء اللؤماء ، عن دخيلة أنفسهم ،
وخباثت صدورهم ، ولأدركت الخراف الآدمية أنها الضحية ، كاسبة كانت أو
خاسرة ، ولأحجموا عن أن يساقوا إلى المذابح البشرية .

هؤلاء المنافقون الذين يقودون العالم إلى التهلكة ، هؤلاء اللذين يسمونهم
بالسياسيين الذين يظهرون غير ما يظنون ، ويقولون ما لا يعنون ، المضللون
المطففون ، الذين يضللون الناس في غياهب النفاق وظلمات الرياء ، ويضلون
هم أنفسهم ، ويتخبطون في دياجير من الشك ويحيدون عن جادة الصواب ،
ولا يعرفون ماذا يريدون ، ويصبح الأمر بين أيديهم أشبه بخيط معقد ملتو لا
يعرفون أوله من آخره ، فيلجئون إلى العنف والتهديد بالحرب ، وينزلون بالبشر

إلى مستوى الحيوان ، الذى يعجز عن التفاهم بعقله ، فيعض بأسنانه أو يرفس برجليه .

لو تبدد النفاق من النفوس لأفلحت هذه العصابات التى أنشئوها لحراسة الأمن وإقرار السلام .. هذه الهيئات الصورية التى تجمع قومًا من المنافقين المخادعين الفجرة الأشرار ، الذين لا يرون الحق إلا فى جانب القوى .. أما الضعيف فصيحته لا تصل إلى آذانهم ، والذين يدينون القتل لأنه أجهد القاتل فى قتله ، ويؤنبون المضروب لأنه أزعج الضارب بصياحه .
لولا النفاق ، ما سلب من صاحب حق حقه ، وما طرد شعب من أرضه ليحل الغريب فى أرضه .

لولا النفاق ما اعترف بالضعيف ربًا للبيت ، وبرز البيت دخيلاً متهمًا .
لولا النفاق يا سادة ، ما اتهم أصحاب القبلة الذرية العرب المسالمين بأنهم خطر على الأمن والسلام .

هذه يا سادة هى سخرية النفاق والمنافقين .. يا لها من سخرية رائعة !!
يا حضرات القضاة .. هذا هو بعض ما فعل النفاق بالعالم .. أما ما فعل بأمتنا فهو جم وفير .

أمة من عشرين مليونًا ، يعيش ثلاثة أرباعهم على هامش الحياة ليس بهم من الآدميين شبه ولا صلة .

أمة يعيش ثلاثة أرباعها ، عيش البهائم .. حفاة عراة ، لا يكادون يأخذون من الحياة إلا ما يقيهم على قيد الحياة .

أمة ثلاثة أرباعها عبيد ، لا يملكون من أمرهم شيئًا ، ومع ذلك فهى أمة ديمقراطية ، بها برلمان والسلطة فيها هى سلطة الشعب .

يا للنفاق !! ويا للرياء !!

تصوروا أن السلطة فى هذا البلد هى سلطة الشعب !!

هذا الشعب لا بد أن يكون أحد اثنين .. إما شعب يكره نفسه لأنه — رغم ما يشيعون عنه من أنه مصدر السلطات — يأبى أن يصلح حاله ويعالج مصابه

ويزيل عن نفسه ذلك القيد الثقيل من الفقر والجهل والمرض ، وإما أنه شعب زاهد قد تعود ذلك البؤس الذى يرتع فيه والحرمان الذى يأخذ بخناقته .. أو من يدرى ربما يكون .. من فرط حبه لأولى الأمر فيه ، وولعه بأسياده .. قد أبى إلا أن يحرم نفسه العيش ليؤكلهم الفطائر . فيجوع ليتخموا ، ويموت ليحيوا !!
يا للنفاق ! يا للرياء !!

هذا الشعب — مصدر السلطات — ماذا فعلوا لإصلاح حاله ؟ إنهم يبدون كأنهم يفعلون الشيء الكثير ، ومع ذلك فما ظهر أثر هناك لما فعلوا وما يفعلون .. ترى ما السبب ؟ السبب بسيط ، هو أن كل ما فعلوه نفاق فى نفاق !!

إى والله ، إن النفاق ، هو أصل الداء ، ومنبع العلة ، فلو أنهم فعلوا ظهرت آثار ما فعلوا ، ولو أنهم لم يفعلوا لأدرك الشعب أنهم لم يفعلوا ، فعرف كيف يفعل هو !!

لنستعرض بعض ما فعلوا التعرف مبلغ ما به من صدق ومبلغ ما به من نفاق ، لنستعرض تلك المشروعات التى هملوا لها وكبروا ، والتى ملأوا الدنيا حولها دعاية وضجيجًا .

إنى لأذكر الآن أحدها وهو مشروع مجانية التعليم الابتدائى الذى طلبوا له وزمروا ، وهتفوا له وصفقوا ، اعتبروه منحة للشعب البائس التعس ، وخطوة فى سبيل إصلاحه ، ومازالوا حتى الآن يتفاخرون به .

ترى هل أدى المشروع غرضه ؟ وهل أتاح لأبناء الشعب التعليم المجانى ؟ كلا والله .. لقد كان المشروع منحة لأبناء الأغنياء ، بلا أية مناسبة !!

فالمفهوم أنه قبل أن تتم المجانية فى التعليم ، يجب أن تتم وسائل التعليم ، وأن يكون لدينا من المدارس ما يكفى لهذا التعليم عندما يصبح مجانًا ويقبل عليه كل أبناء الشعب ، ولكن الذى حدث هو أن عمت مجانية التعليم وبقيت وسائله محدودة كما هى لا تكاد تسمح إلا بالعدد الذى كان يتعلم أولا ، وأصبحت المجانية

مقصورة على من يقبل في تلك المدارس وضمنهم أو أولهم أولاد الأغنياء .. الذين سيفضلون بالطبع — ونحن في بلد الوساطات — عند القبول على غيرهم من أولاد الفقراء !

وهكذا وجد وزير المالية ، ووزير المعارف ، أبناءهم يتعلمون مجاناً ، واستمر أبناء الشعب المساكين ، لا تتاح لهم فرصة التمتع بالمجانبة ، لأنهم لم تتح لهم فرصة الدخول في المدرسة .

كل هذا لأن المشروع لم يقصد به سوى الدعاية ، ولأن أصحابه كانوا من كبار المنافيين .

ومشروع رفع أجور العمال .. ماذا كانت فائدته ؟
ماذا يمكن أن تكون فائدة مشروع لا يطبق إلا على القلة من العمال الحكوميين .. أما العامل الزراعى ، وهو الأغلبية العظمى في هذا البلد ، فما زال كما هو .

ومشروع الحفاء ومشروع البر ، وغيره ، وغيره ، من كل هذه الفقايع التى تذهب جفاء ، والتى لا نخس منها سوى الفرقعة الجوفاء والرنين الزائف .
وتلك الاجتماعات ، والخطب ، والمشروعات التى تطالعنا على صفحات الجرائد بالخط العريض ، وكلها نفاق فى نفاق .

هل رأيتم أيها السادة ، أمة تعالج بالنفاق كهذه الأمة ؟
لقد عاجلوا مرض الشعب باللجان والاجتماعات ، وقضوا على فقره وجوعه ببضعة مطاعم وولائم ، وعلى جهله بالعود والتحتيات .
أتراهم يظنون أن الشعب هو هذه القلة المحيطة بهم ؟! أتراهم يخدعون أنفسهم أم يخدعون الشعب ؟!

كل هذا أيها السادة مبعثه النفاق ، وأقسم لكم أنه لو استمر الحال على ذلك لكان السادة أول ضحاياهم .. أجل إنهم سيكونون أول من يجنى عاقبة نفاقهم ، فما بمثل هذا يكون لإصلاح حال الرعية وعلاج مصاب الشعب .

أيها السادة .. إن النفاق هو الذى فعل بنا ما فعل .. إن المنافقين الذين يحيطون بأولى الأمر ويخفون عنهم الحقائق ويدلون الأمور ، هم شر ما ابتلى به أولو الأمر وابتلى به الشعب ، هؤلاء هم الستار الزائف الذى يزين لأولى الأمر المساوئ .. ويجمل الشرور ، ويملأهم رضا وارتياحاً .. ماذا تخشون إذا من زوال النفاق ؟ أو بعد كل هذا تعتبرون من أزال من نفوسكم النفاق مجرمًا أثيمًا يستحق الحكم بالإعدام ؟

يا حضرات القضاة والمستشارين : إني بحكمكم راض ، احكموا على بالموث إذا شئتم .. فحبذا الموت فى سبيل القضاء على النفاق .

وانتهيت من المرافعة وساد القوم سكون عميق ، ثم هبت بعده عاصفة من الهتاف والتصفيق من جمهرة المتفرجين ، وقال القاضى بصوت عميق بأن الحكم بعد المداولة ، ونهض القضاة وخلفهم أحد الحجاب يحمل الزجاجاة إياها المليئة بالماء غير الملوّث والذى يقيهم شر الأخلاق .

ونظرت إلى الحاجب فى حمرة وأسى وتمنيت لو سقطت منه الزجاجاة فتحطمت وسكب ما بها حتى لا يجد القضاة ما يشربونه سوى الماء المزوج بالأخلاق .. لقد كان هذا هو أملى الوحيد !

وناديت الحاجب ، فتوقف برهة ، ثم اقترب من القفص ، وهمست فى أذنه :
— أنا فى عرضك .

وهز الرجل رأسه مستفهمًا عما أريد ، فأردفت قائلاً :
— روحى فى أيديك .

ورأيته ينظر إلتى فى عطف شديد ويحيينى قائلاً :

— لا تخف .. لست فى حاجة إلى رجاء ، فأنى أعرف ما تريد .. إنى أفهم كل

شئ ، وكيف لا أفهم ، وقد شربت من مائك وزال من نفسى النفاق ؟ ومضت فترة من الوقت ، وأنا أدعو الله أن يصيب القضاة بظماً شديداً ، وأن ينجح الحاجب فى إبدال المياه التى بالزجاجاة .

وأخيراً عاد القضاة ، ولم أنظر إليهم ، بل نظرت إلى الحاجب ، وإلى الزجاجة في يده ، فإذا بها كما هي ، لم تنقض قيد أثملة ، ورأيت الحاجب يهز رأسه في حسرة وأسى .

وأسقط في يدي وشعرت باليأس وأصابني هبوط شديد ، ونظرت إلى صاحبي ، وقلت له في حزن :
— لا فائدة .

وكان التجهم يبدو على وجه القاضى والقسوة تشيع في ملامحه ، وبدأ في قراءة الحكم في لهجة صارمة فقال :

— إن جريمتكما كما قال المدعى ، هي شر ما عرف التاريخ ، وإن القانون لم يضع العقاب الذى يتعادل وخطورتها ، فإن حكم الإعدام أقل مما تستحقانه ، ولقد خطر لنا أن نعرزه بالدعوات التى يطلبها النائب العام ، ولكننا خشينا ألا تستجاب دعواتنا .. وهكذا وجدنا أنه لا بد لنا من التفكير فى عقاب أشد قسوة ، وأخيراً اهتمدنا إليه .

إن حكم الإعدام سينقذكما من الحياة ، وتكون النتيجة أنكما تفران من الدنيا بعد أن فعلتما فعلتكما ، وتركتما البشر بلا نفاق يمانون من الأخلاق ومصائبها وبلاياها ، ولذا فقد رأينا أن أقسى عقاب يمكن أن نحكم به على مثلكما ، هو ألا نتيح لكما فرصة الفرار ، وأن نبقيكما فيها لتقاسيا من شرورها ولتتحملا نتائج عملكما .. وعلى ذلك فقد استقر رأينا على أن المسألة فى غاية البساطة ولا تحتاج إلا لأن نحكم عليكما بالحياة .

وساد الصمت وتملكتنى دهشة شديدة ، ثم هجمت على صاحبي أوسعده عناقاً وتقبيلاً ، وعلت من ناحية المتفرجين ضجة وصياح وهتاف وتصفيق .

ولم تمض لحظة حتى وجدت نفسى وصاحبي مطلقى السراح وقد حملتنا الجماهير على الأكتاف وساروا بنا يشقون الشوارع فى مظاهرة صاخبة وقد تعالت هتافاتهم :

— يحیی عدو النفاق — يسقط النفاق والمنافقون — لا نفاق بعد اليوم —
نريد ماء الأخلاق — ليسقط أعداء الأخلاق .

ورأيت شعبة من المظاهرة تنجھ لتريق الماء غیر الملوث الذى احتفظ به أولو
الأمر لينجیهم من وباء الأخلاق ولیرغموهم على شرب الماء الملوث .

وهكذا سرت الأخلاق بین الناس ، وتبدد منهم النفاق وذهبت موجة الفزع
التي أصابتهم عندما كشف القناع عن نفوسهم وظهرت لهم خبايئهم وخسبهم
ولؤمهم ، وأحسوا بما هم عليه من ضعة وسوء ، فتملكهم الخزي والحجل
وأخذ كل منهم یستر عورة نفسه التي كشفها ضیاع النفاق .

وبدأت الأمور تستقیم بعد فترة اضطراب فتولى الأمور فى البلد قوم غیر
منافقین ، وأجريت فیها لأول مرة انتخابات حرة ، وتكون برلمان بلا نفاق ،
فأضحى الشعب حقاً هو مصدر السلطات فبدأ فى إصلاح حاله ، وإقاله عثرته ،
ووضعت من أجله المشروعات النافعة المجدية ، وردت إليه حقوقه الضائعة ،
وأخذ من غنيه حق فقيره ، وأطعم من جوع وكسى من عرى ، وأضحى يتمتع
فى عيشه بما يتمتع به الآدميون .

وراجت تجارة صاحبی ، وأقبل الناس عليه يطلبون المزيد من الأخلاق .
وجلست فى الحانوت لأشاركه فى تجارته وأوزع على الناس شریكات
الشجاعة ، احتفالاً بنجاحنا فى تبديد النفاق وفى إغراء الناس بالأخلاق .

ووجدت صاحبی یصر على ألا يتناول من الناس ثمن ما یبيعهم قائلًا لهم : إن
الحساب يوم الحساب ، فزاد بذلك من إقبال الناس عليه ، وتوافدوا على الحانوت
من كل حذب وصوب ، ولم یطل بنا الأمر ، حتى كان كل ما بالحانوت من
أخلاق قد نفذ ولم یعد به سوى أكياس فارغة .

وجلست وصاحبی فى اللیل أسأله : ماذا ستفعل عندما یقبل الناس علينا فى
الغد فلا یجدون لدينا شیئاً من الأخلاق ؟

وهز صاحبي رأسه وأجاب :

— اطمئن .. إن الأخلاق لا تنفد أبدًا ، سأعوضهم عن المسحوق بيضع كلمات تصلحهم مدى الحياة .

وفي الصباح أقبل القوم على الحانوت يتزاحمون ويتصايحون ، وخرج صاحبي إليهم فأسكتهم بإشارة من يده ، وسألهم في رفق :

— ماذا تريدون ؟

فتصايح الناس : أخلاق ، شجاعة ، نزاهة ، إخلاص .

فعاد صاحبي يشير إليهم بالسكوت :

— صبرًا .. هذه كلها أشياء موجودة في نفوسكم ، ولكنها راقدة في غفوة ، لقد علاها الصدا من طول الركود ، شيء واحد هو الذى يحركها ، وهو أن تتبعوا بإخلاص قول القائل : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . لا تفعل شيئًا إلا إذا تذكرت كيف تود أن يفعله معك غيرك .. ضع نفسك دائمًا مكان سواك ، ثم عامله كما تعامل نفسك ، إذا وددت أن يظلمك غيرك فاطلم .. إذا رغبت في أن يشى بك غيرك فارتكب التهمة والوشاية .. إذا أردت أن يقسو عليك الناس فاقس عليهم .. إذا أردت أن تؤكل أموال أولادك إذا ما تيمموا فكل أموال اليتامى .. إذا أردت أن يخونك الناس فخهم ، وإذا أحببت أن تهان فقدم الإهانة .

إيها الناس .. إذا أمكنكم أن يعامل بعضكم بعضًا كما تعاملون أنفسكم فكفى بهذا دينًا .. إن الدين عند الله المعاملة .

وصمت الناس برهة ، ثم وجدتهم يقبلون بعضهم على بعض فيتصافحون ويتعانقون ، ثم ينصرفون عنا شاكرين هائئين ، وقد علا البشر وجوهمهم ، وبدت عليهم القناعة والرضا .

وأخيرًا خلا المكان إلا منى ومن صاحبي ومن مخلوق آخر جلس ينظر إلينا في هدوء وهو الفأر « شولخ » .

وأمسك صاحبي بالفأر فوضعه في جيبه ثم مد يده إلى وشد على يدي وهمس في أذني : أستودعك الله ، لقد بلغت الرسالة ، أشكر لك معاونتي على تبليغها .
وشددت على يده وأجبتة :
— الشكر لك أنت .

وافترقنا .. وذهب كل منا في طريقه وهو يهتف لي :
— لا تنس هذا القول الذي تحفظونه عن ظهر قلب دون أن تحاولوا قط العمل به : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

* * *

هذه قصة النفاق والمنافقين وأرض النفاق ، قصة قد يكون فيها بعض الشطط وبعض الخيال ، ولقد كنت أنوى أن اختمها كما يختم كتاب القصة عادة قصصهم الخيالية ، على أنها حلم ، وعلى أني فتحت عيني فوجدت نفسي راقداً على الأريكة في الدار .

ولكن يخيّل إلى أن ما بها من حقائق قد طغى على ما بها من خيال ، حتى بت أربأ بها — وهي صيحة خالصة منطلقة من أعماق صدري — أن تكون مجرد حلم .. فاعذروني إذا ما ختمتها عند هذا الحد ، واعذروني إذا ما ادعيت أنها حقيقة واقعة . وأن خاتمها أمنية تجيش في صدري .

يا أهل النفاق !! تلك هي أرضكم .. وذلك هو غرسكم .. ما فعلت سوى أن طفت بها وعرضت على سبيل العينة بعض ما بها .. فإن رأيتموه قبيحاً مشوهاً ، فلا تلموني بل لوموا أنفسكم .. لوموا الأصل ولا تلموا المرأة .
أيها المنافقون !! هذه قصتكم ، ومن كان منكم بلا نفاق فليرجعني بحجر .

« تمت »

رقم الإيداع : ٤٤٢٦ / ٨٨
الترقيم الدولي : ٣ — ٠٤٢٣ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

الثلث ٦ جنيهات

دار مصر للطباعة
سعد جوده النجار وشركاه

To: www.al-mostafa.com